سلسلة شروح عقيدة الرسالة

تحرير المقالة في شرح الرسالة

(للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني)

(٣١٠هـ/٩٢٢م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م)

(قسم العقيدة)

تأليف

الإمام الشيخ القاضي أحمد القلشاني

(٨٦٣هـ - ١٤٥٩م)

دراسة وتحقيق

الأستاذ الحبيب بن طاهر

الأستاذ محمد المدنيني





تحرير المقالة
في
شرح الرسالة

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبّر عن آراء واجتهادات أصحابها

مؤسسة المعارف

الطبعة الاولى
1429هـ - 2008م
ISBN 978-9953-69-108-4

الإدارة العامة : كورنيش المزرعة – جامع عبد الناصر– بناية إسكندراني – ط2
هاتف وفاكس :00961-1-653857/00961-1-653852-00961
المكتبة والمستودعات :الطريق الجديدة - شارع حمد - بناية رحمة
هاتف وفاكس : 00961-1-640878
ص . ب **11/1761** – بيروت – لبنان
E-mail: maaref@cyberia.net.lb
WWW.al-maaref.com

سلسلة
شروح عقيدة الرسالة

تحرير المقالة في شرح الرسالة

(للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني)
(٣١٠هـ/٩٢٢م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م)

(قسم العقيدة)

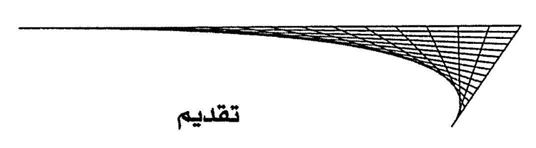
تأليف
الإمام الشيخ القاضي أحمد القلشاني
(٨٦٣هـ - ١٤٥٩م)

دراسة وتحقيق
الأستاذ الحبيب بن طاهر
الأستاذ محمد المدنيني

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



يطلب من مكتبة المعارف ص ب ١١/١٧٦١ بيروت ـ لبنان



تقديم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً

توقفنا مرّات ومرّات أثناء إنجازنا تحقيق هذا الشرح لعقيدة الإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ـ رحمه الله تعالى ـ لنتساءل:

• ما قيمة إحياء مدوّنة عقدية مشروحة تضرب في الماضي السحيق قروناً وأجيالاً؟ وهل يعني إحياؤها ركوناً إلى السلامة وبحثاً عن الأسهل واكتفاء بتقليد السلف؟

• وما الذي يحدث لحياتنا الفكرية والعقدية لو طرحنا وراءنا ظهريّاً فهم الإمام ابن أبي زيد للعقيدة الإسلامية، وغيرها من الأفهام والاجتهادات التي يزخر بها تراثنا الكلامي؟.

• وهل تدعو الحاجة اليوم إلى قيام علم كلام جديد، يدرك أهلُه عمق التحولات المعرفية والثقافية والسياسية. . . التي يشهدها العصر، ويحللون مستلزمات هذه التحولات وركائزها وآثارها، ويستوعبون لغة العصر ومناهج العلم، لصياغة نظام علم الكلام وتقديم عقيدة التوحيد في ثوب يليق بإنسان العصر؟.

إنّ الفضاء الذي جمع علماء الإسلام لدراسة قضايا العقيدة الإسلامية هو علم أصول الدين أو علم التوحيد أو علم الكلام. ويجمع المتكلمون من خلال تعريفهم له[1] على أنه يقوم على دعامتين رئيستين:

---

(١) جاء في المواقف: «الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة» «المواقف. الإيجي» (١/٣١)، وفي «إحصاء العلوم»: «صناعة الكلام =

الأولى: الوحي؛ ويتمثل في جملة التعاليم الإلهية التي ترشد الإنسان إلى بناء تصوره للوجود وتهديه إلى السلوك الذي ينبغي أن يكون عليه في حياته لأنّه الكائن الجدير بتحمل أعباء الخلافة وإنجاز مهمة الإعمار.

ويتميز الوحي الإلهي باعتباره خطاباً عاماً يستوعب جميع المخاطبين بكل تنوعاتهم الجغرافية والتاريخية بالثبات؛ لصدوره عن الحق الذي أحاط علمه الشامل بأحوال الوجود ومصلحة الإنسان في كل مكان وزمان.

الثانية: العقل في تفاعله مع الوحي؛ ويعني ذلك جملة الأفهام التي يقدمها علماء العقيدة لأبناء الأمة في كلّ مرحلة تاريخية من مراحل شهودهم.

وتتميز هذه الأفهام بقابليتها للتجديد والتحول باستمرار، ولذلك تظهر براعة المتكلم وهو يقبل على معالجة قضايا الدين، في وعيه بمشاغل الناس في عصره، وتعبيره عنها تعبيراً يناسب واقعهم الثقافي والحضاري والاجتماعي... ويستجيب لتطلّعاتهم. كما تظهر براعته في معرفته بمستواهم الذهني بحيث يفهمون الصياغة التي عرضها عليهم، ويتقبلونها القبول الحسن.

وعلى أساس هاتين الدعامتين نشأ علم الكلام وتدرج أصحابه في ضبط مسائله وصياغة مفاهيمه ومبادئه، واستنباط مناهجه، ومعالجة قضاياه، والإجابة عمّا يستجدّ من استفهامات وإشكاليات... وقد نما وازدهر مع سائر العلوم الدينية في تاريخنا الإسلامي. وتوقف عن العطاء وركن إلى الجمود ردهات من الزمن. ورغم ذلك ظلّ التراث الكلامي زاخراً بإنتاجات الماضين وإسهاماتهم التي حوتها المصنفات المخطوطة والمطبوعة.

ولـمّا كان موضوع دراسة علم الكلام منذ لحظة ظهوره إلى يوم الناس هذا واحداً وهو «العقيدة»، فلا يعني ذلك أن يتبنّى اللاحقون اجتهادات

= يقتدر به الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل» «إحصاء العلوم» (ص٨٦)، وقال ابن خلدون: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات» «المقدمة. ابن خلدون» (١/ ٥٨٠).

السابقين، ويلتزموا بحدودها ولا يخرجوا عليها، أو أن يغفلوا عنها ويفرطوا فيها، أو أنْ يستخفوا بها ويستنقصوا أمرها لكونها من الماضي، والماضي لا قيمة له أمام الجديد.

إنّ على المهتمّين بهذا الحقل المعرفي في ثقافتنا العربية الإسلامية، والدارسين المعاصرين أن يطّلعوا على تجارب القدامى في ميدان العقيدة[1] لمعرفة تاريخ ظهور مسائل التوحيد ونسق تطورها، ومواقف أصحابها، والاستفادة منها في أبحاثهم من خلال الاستناد إلى عملية المقارنة التاريخيّة، وتخصيب المسائل الجديدة التي يطرحونها، وتيسير سبل اكتشاف المناهج المناسبة لتحليلها، كما يمكن لهذه التجارب أن تخدم الحياة الفكرية والعقدية لأصناف من أبناء الأمة[2].

وفي هذا السياق نضع المقدمة العقدية لرسالة الإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني وشرحها، فقد أثبت الرجل في تحريره لها براعة في التعامل الجاد مع مشاغل عصره، وقدرة على معاجلة القضايا الفكرية والعقدية لأبناء جيله؛ بتقديمه مقرّرات العقيدة الإسلامية، بأسلوب مختصر يساعد الناشئة، على الإحاطة بما يجب عليهم معرفته من قواعد العقيدة الإسلامية التي تحدّد انتماءهم للإسلام، وتصحّح عباداتهم والتزاماتهم لأحكام الشريعة وتسلّحهم بما يحفظون عقائدهم من التزلزل والتشكيك. . .

ولذلك لا نجد غرابة في أن تنتشر في عصره في سائر بلاد المسلمين، حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان[3]، وأن يوجه بعض المستشرقين ـ في العصر الحديث ـ جهودهم إلى دراستها، وترجمتها[4]، كما

(١) وكذلك الشأن بالنسبة لميادين الفقه وأصوله، والمقاصد. . .

(٢) عناصر العقيدة: الألوهية والنبوة والبعث.

(٣) انظر: «معالم الإيمان» (٣/ ١١١).

(٤) ترجمها المستشرق «أدرسل» إلى الإنجليزية مع عبد الله المأمون السهروردي، ونشرت الترجمة مع النص العربي بلندن سنة ١٩٠٦هـ؛ وترجمها إلى الفرنسية كلّ =

يقبلون على تحقيق المؤلفات الكلامية المخطوطة. أفلا تدعو القيمة العلمية للرسالة وغيرها، الباحثين في محيطنا العربي الإسلامي إلى الاهتمام بالتراث الكلامي المخطوط الزاخر والاستفادة منه في معالجة القضايا والإشكاليات المعاصرة؟ ولم لا يهتم دعاة المسلمين ووعّاظهم وخطباء منابرهم بالرسالة وسائر المصنفات العقدية المختصرة والمطوّلة، ويستثمرونها في عملية توجيه الناس إلى العقيدة، وتعليمهم قواعدها ومبادئها وحججها وبراهينها، لتصدر أعمالهم وتصرفاتهم عن فهم واع لهذه العقيدة، وليقووا على الصمود أمام الدعوات التي تنشط في ديارهم لنشر الإلحاد والتنصير والتشكيك في عقيدة الإسلام باسم النسبية في العقائد والأفكار؟

ومعْ ضرورة إحياء التراث الكلامي الهائل، والعناية به دراسة وتحقيقاً، تبقى الحاجة ماسّة إلى تجديد الحياة لعلم الكلام عبر:

١ ـ إعادة رسم نظامه بما يناسب ذهن المخاطب المعاصر، وتنويع مناهجه، وإثراء أساليبه؛ تبعاً للتطوّر الحاصل في المسائل المطروحة، التي لم يتطرق إليها المتكلمون القدامى في بحوثهم ودراساتهم؛ كمنزلة الإنسان ومهمته في الكون، وما يقتضي ذلك من النظر في حقوقه، مع متابعة التوجهات والمناهج العلمية الحديثة والتمكن من علوم العصر، على هدى وبصيرة من مقرّرات العقيدة الإسلامية.

٢ ـ تثبيت قيم التحاور والجدال بالحسنى، في الإطار المذهبي الإسلامي دون إقصاء. وأن يكون التمسّك بالقناعات المذهبية قائماً على الحجج والبراهين، التي يشترك في إدراكها جميع العقلاء.

٣ ـ تدعيم ثقافة الحوار الذي أرسى قواعده القرآن الكريم مع غير المسلمين، استكمالاً لمسيرة هداية البشرية إلى الدين الحق التي انطلقت على يدي رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام.

= من المستشرقين «فانيان» سنة ١٩٢٤هـ، و«ليون برثر» وطبعت ترجمته مرات بالجزائر، مقدمة تحقيق «الرسالة الفقهية» (ص٤٨).

ولنا في علماء العقيدة الإسلامية خير مثال على تطبيق دعوة القرآن الكريم المسلمين لمحاورة بعضهم البعض، ولمحاورة غير المسلمين من شتّى الملل والنحل. فقد فتحوا صدورهم وكتبهم لتتبّع جميع الآراء والمعتقدات، تدويناً ومناقشة... تماماً كما فعل القرآن الكريم مع العقائد المنتشرة في عصر نزوله؛ فقد سجّلها، وناقش أصحابها، وأقام المعتقد الصحيح، محتجّاً على كلّ ذلك بالحجج والبراهين التي لا يجد العقل عنها انفكاكاً.

وإنّما اهتمّ القرآن بالمعتقدات المخالفة له لأنّه يعترف بوجودها، وإن كان يعتبرها باطلة؛ لأنّ بطلانها لا يلغيها ولا يمنع تأثيرها في حياة الناس؛ وقد اقتضت واقعية الإسلام أن يتعامل مع الواقع، ويسعى إلى تصحيحه وتغييره. وعلى هديه سار علماء العقيدة الإسلامية.

إنّ جهود العلماء في العصر الحاضر في سبيل تحقيق نهضة المسلمين لا يمكن أن تبنى على فراغ، بل لا بدّ أن تستفيد من تجارب السابقين واجتهاداتهم، وإنّ العناية بتحقيق تراثهم ودراسته هو وجه من وجوه الاستفادة، وفي هذا السياق يأتي تحقيقنا لشرح الإمام أحمد القلشاني لعقيدة الشيخ أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

التعريف بـ:

- الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (صاحب العقيدة).

- الشيخ القاضي القلشاني (شارح العقيدة).

عبد الله بن أبي زيد القيرواني[1]

(٣١٠هـ/ ٩٢٢م - ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)

نسبه وولادته:

عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمٰن النفزاوي[2] أو النفزي[3]، القيرواني؛ أبو محمد. و«النفزي» نسبة إلى «نفزة» قرية في الشمال الغربي من القطر التونسي[4]، و«النفزاوي» نسبة إلى «نفزاوة» من بلاد الجريد في الجنوب الغربي. فهو من صميم الشعب الإفريقي البربري[5]. وأجمع مؤرخوه أن مكان

(١) ترجمته في: «الأعلام» (٤/ ٢٣٠ - ٢٣١)، «أعلام الفكر الإسلامي» (٤٤ - ٤٩)، «تاريخ الأدب العربي» (٣/ ٢٨٦)، «تاريخ التراث العربي» (١/ ٣/ ١٦٦)، «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٢١٢)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (١/ ٤٤٣)، «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٥ - ٢٢٢)، «دائرة المعارف الإسلامية» (١/ ٨٠)، «الديباج» (١/ ٤٢٧ - ٤٣٠)، «شجرة النور» (٩٦)، «شذرات الذهب» (٣/ ١٣١)، «طبقات الفقهاء» (١٥٠)، «عنوان الأريب» (١/ ١٢٨)، «فهرست ابن خير» (٢٤٤)، «كشف الظنون» (٨٤١ - ٨٨٠)، «مرآة الجنان» (٢/ ٤٤١)، «معالم الإيمان» (٣/ ١٠٩ - ١٢١)، «معجم المؤلفين» (٦/ ٧٣)، «النجوم الزاهرة» (٤/ ٢٠٠)، «هدية العارفين» (١/ ٤٤٧ - ٤٤٨)، «الوفيات» (٢٢١).

(٢) «النفزاوي» هو ما ذكره الدباغ «معالم الإيمان» (٣/ ١٠٩)، والشيخ محمد الفاضل بن عاشور «أعلام الفكر الإسلامي» (ص٤٦)، والزركلي «الأعلام» (٤/ ٢٣٠)، وبروكلمان «تاريخ الأدب العربي» (٣/ ٢٨٦).

(٣) «النفزي» هو ما ذكره عياض «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٥)، وابن فرحون «الديباج» (ص١٣٦)، ومخلوف «شجرة النور» (ص٩٦)، والقلشاني في شرحه.

(٤) ذهب محمد بن شنب إلى أنه من «نفزة» من أعمال الأندلس «دائرة المعارف الإسلامية» (١/ ٨٠)، وهو بعيد.

(٥) «أعلام الفكر الإسلامي»، لمحمد الفاضل بن عاشور (ص٤٦).

ولادته مدينة القيروان. وكانت ولادته على الأرجح سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

الإطار السياسي والديني:

ولد ابن أبي زيد بعد أربعة عشر سنة من قيام الدولة العبيدية الشيعية سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، التي أطاحت بالدولة الأغلبية السنِّية، وحلت محلها في الهيمنة على بلدان الشمال الإفريقي. وما بين ولادة ابن أبي زيد سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م ووفاته سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، يكون قد عاصر خلفاء الدولة العبيديّة حتى سنة تغيير عاصمتهم ومركز حكمهم من المهدية إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م؛ ثم عاصر الأمراء الصنهاجيين من بني زيري الذين خلّفهم العبيديون على ملك إفريقية نيابة عنهم.

ولا شكّ أنّ الاختلاف الجوهري القائم ـ في مجال العقائد ـ بين الشيعة الإسماعيلية من جهة، وأهل السنَّة الذين يتزعمهم فقهاء المالكية والخوارج من جهة أخرى، كان سبباً كافياً لأن تحول منطقة الشمال الأفريقي مسرحاً للصّراعات الدامية. فكان الشيعة العبيدية في هذا الصراع يمثلون الطرف المهاجم الذي يسعى إلى بسط سيطرته ونشر معتقده وحمل الطرف المقابل على التحول عن مبادئه وعقائده، تارة بالقوة والإرهاب والقتل، وتارة بالمال والمناصب؛ وكان أهل السنة وكذلك الخوارج يمثلون الطرف المقاوم، وإن اختلفت مظاهر المقاومة بين هذين الفريقين.

مذاهب ومعتقدات أخرى في عهد ابن أبي زيد القيرواني:

لم يكن المذهب العبيدي هو وحده الذي عاصره ابن أبي زيد، واطّلع على معتقداته وآرائه، وشهد صراع أهل السنَّة العلمي والقتالي معه؛ بل كانت الساحة الإفريقية في المجال العقائدي والفكري تتنازعها تيارات مختلفة، منذ عهد الأمراء الموالين للدولة الأموية إلى نهاية عهد الأغالبة الموالين للدولة العباسية. فقد كان للمذهبين الإرجائي والاعتزالي حضور بالقيروان، توفّر لهما بتشجيع الأمويين للمرجئة، والعباسيين من بعدهم ممثّلين في الأغالبة للمعتزلة.

لكن وإن تمّ القضاء على الإرجاء كمذهب قائم في عهد الأغالبة[1]، وتمّ انحسار الاعتزال بعد سقوط الدولة الأغلبية بسبب تحوّلهم وانتمائهم إلى المذهب العبيدي[2]؛ إلّا أنّ آراء المذهبين ظلّت حاضرة ومتناقلة، إمّا عن طريق بقاياهم، أو عن طريق علماء أهل السنَّة الممثلين بعلماء المذهب المالكي الذين كانوا يعرضون لآراء مخالفيهم في سياق الردّ عليهم ونقض معتقداتهم، بحيث تمكّن ابن أبي زيد من الاطّلاع عليها.

ومع المذاهب العبيدي الشيعي، والإرجائي، والاعتزالي، فقد كان المذهب الخارجي، الصفري والأباضي، حاضراً أيضاً في إفريقية، وقد تمكّن أصحابه من إقامة دولة وبسط نفوذهم على مناطق شاسعة فيها بما في ذلك مدينة القيروان في بعض الفترات، مما جعل لآرائهم رواجاً وانتشاراً[3]، وقد قام بين الخوارج وأهل السنة تحالف عسكري لمحاربة العبيديين.

وإنّ اطّلاع ابن أبي زيد القيرواني على مختلف عقائد هذه الفرق المخالفة لأهل السنَّة، سنجد له صداه في المقدّمة العقائدية للرسالة الفقهية التي ألّفها، على ما سنبيّنه عند دراستنا لهذه العقيدة.

نشأة ابن أبي زيد وطلبه العلم:

في هذا الإطار السياسي المتمخض عن الصراع المذهبي بين الفرق الدينية وخاصة بين أهل السنَّة الذين يمثلهم المالكية الذين يمثلون غالبية مسلمي الشمال الإفريقي، وبين التيارات المتعددة التي واجهوها وعارضوا مبادئها ومعتقداتها، كالمعتزلة في عهد الدولة الأغلبية، والخوارج الصفرية

---

(١) انظر: أسباب القضاء على مذهب المرجئة من قبل العباسيين وممثليهم الأغالبة «الصراع المذهبي بإفريقية» (١٥٩).

(٢) انظر: أسباب انتماء المعتزلة في القيروان للمذهب العبيدي «الصراع المذهبي بإفريقية» (١٠٦ ـ ١٠٩).

(٣) انظر: «المدارس الكلامية بإفريقية» (٨١ ـ ٨٣)، و«الصراع المذهبي بإفريقية» (١١٠ ـ ١١٧).

والإباضية، والشيعة وخاصة الإسماعيلية؛ نشأ ابن أبي زيد القيرواني وتلقى تعليمه الديني على خوف من اضطهاد الدولة العبيدية المتربّصين بكل من ينشر من المالكية علوم أهل السنة، وبكلّ من يتلقّى هذه الدروس. وقد استطاع هذا الطالب أن يشقّ طريقه في طلب العلم، وأن يصل إلى الأخذ عن أبرز من يمثل المذهب المالكي بالقيروان، رغم الحصار المضروب عليهم.

وأما العلماء الذين أخذ عنهم ابن أبي زيد القيرواني بالقيروان، فمنهم:

- أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح، المعروف بابن اللبّاد القيرواني، توفي سنة ٣٣٣هـ[١].

- أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، توفي سنة ٣٣٣هـ[٢].

- أبو الفضل العباس بن عيسى الممسي، استشهد سنة ٣٣٣هـ بالمهدية في قتال العبيديين[٣].

- أبو سليمان ربيع بن عطاء الله بن نوفل القطان، استشهد سنة ٣٣٣هـ بالمهدية في جهاد العبيديين[٤].

- أبو عبد الله محمد بن مسرور العسال، توفي سنة ٣٤٦هـ[٥].

- أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق الإبياني، توفي سنة ٣٥٢هـ[٦].

---

(١) «ترتيب المدارك» (٥/ ٢٨٦ ـ ٢٩٥)، «شجرة النور الزكية» (٨٤)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (٤/ ١٩٩).

(٢) «ترتيب المدارك» (٥/ ٣٢٣ ـ ٣٢٦)، «شجرة النور» (٨٣ ـ ٨٤).

(٣) «ترتيب المدارك» (٥/ ٢٩٧ ـ ٣١٠)، «شجرة النور» (٨٣)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (٤/ ٣٨١).

(٤) «ترتيب المدارك» (٥/ ٣١٠ ـ ٣٢١)، «شجرة النور» (٨٣)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (٤/ ٩٢).

(٥) «شجرة النور» (٨٤ ـ ٨٥).

(٦) «ترتيب المدارك» (٦/ ١٠ ـ ١٢)، «شجرة النور» (٨٥)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (١/ ٤٤).

- أبو عثمان سعدون بن أحمد الخولاني، توفي بالمنستير سنة ٣٢٤هـ.

- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي، توفي سنة ٣٥٦هـ[١].

- أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الجروي المغربي الفاسي، توفي سنة ٣٥٧هـ[٢].

- أبو محمد عبد الله الأصيلي الأندلسي، توفي سنة ٣٩٢هـ[٣].

وغيرهم.

شيوخه في رحلته للحجّ:

خرج ابن أبي زيد حاجاً، وفي رحلته التقى جمعاً من العلماء، فسمع من أبي سعيد بن الأعرابي، وإبراهيم بن محمد بن المنذر، وأبي علي بن أبي هلال، وأحمد بن إبراهيم بن حماد القاضي، والحسن بن بدر، ومحمد بن الفتح، والحسن بن نصر السوسي، وعثمان بن سعيد الغرابلي، وحبيب بن أبي حبيب الجزري، وغيرهم[٤].

إجازاته وأسانيده:

لم يكتف ابن أبي زيد القيرواني بما تلقاه عن العلماء مباشرة؛ بل كان حريصاً على أن يحصل على الإجازات والأسانيد العلمية في الأحاديث والروايات والآثار وأقوال الفقهاء، وذلك من طرف مشاهير علماء عصره الذين يمثلون حلقات السند العلمي في وقته، في مراكز العلم الأخرى، ولم يمكنه السفر إليهم للأخذ عنهم؛ فكان أن وجّه إلى أئمة المذهب ببغداد ومصر يطلب إجازته بمروياتهم؛ فأجازه بكر بن العلاء القشيري البصري، وأبي بكر الأبهري البغدادي إمام المالكية ببغداد، وأبي بكر بن الجهم المعروف بابن الوراق

(١) «ترتيب المدارك» (٦/ ٥٤ ـ ٧٦)، «شجرة النور» (٩٤).

(٢) «ترتيب المدارك» (٤/ ٨١ ـ ٨٤)، «شجرة النور» (١٠٣).

(٣) انظر: «ترتيب المدارك» (٧/ ١٣٦).

(٤) انظر: «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٧)، «شجرة النور» (٩٦).

المروزي البغدادي، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القرطي المصري، ذكر ذلك هو في مقدمة كتابه «النوادر والزيادات»[١].

وقد أفاده حرصه على الحصول على الأسانيد العلمية أن امتاز بعلوّ أسانيده، فهو يروي عن سحنون بواسطة، وعن ابن القاسم بواسطتين، وعن مالك بثلاث[٢].

منزلته العلمية:

تجدر الإشارة هنا إلى أن إسناد العلماء الإجازات لمن يطلبها تعتبر تزكية له وثقة منهم بكفاءته العلمية وأهليته لما أجازوه فيه؛ وهذا بناء على سبق معرفتهم بمكانته العلمية، إمّا بمعرفتهم الشخصية له، أو باشتهاره ووصول خبره إليهم. وإنّ إسناد هؤلاء الأئمة المشهورين إجازاتهم لابن أبي زيد القيرواني لخير دليل على شهادتهم له بالنبوغ والعالمية، وعلى شهرته وبعد صيته في الآفاق.

وبالفعل فقد بلغ ابن أبي زيد القيرواني بعد تحصيله العلم منزلة رفيعة بين علماء عصره، وشهد له بذلك شيوخه قبل أن يشهد له تلاميذه والمؤرخون له.

فقد بلغ من ثقة علماء عصره بعلمه ومعرفتهم بمنزلته، أن مال بعض شيوخه إلى تقليده في آرائه، قال حافظ المغرب أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: «ما قلّدت أبا محمد ابن أبي زيد، حتى رأيت السبائي يقلّده»[٣]، والسبائي هذا أحد شيوخه. وبعد أن كان هو الطالب لإجازة العلماء ببغداد، أصبح هو المطلوب من هؤلاء العلماء أن يجيزهم بكتبه، لما سمعوا عنها وعرفوا قيمتها، فقد أرسل أبو عبد الله محمد بن مجاهد رسالة إلى الشيخ ابن أبي زيد يشيد له فيها بكتابيه «المختصر» و«النوادر» ويشكره عليهما، ويطلب

---

(١) مخطوط (رقم ٥٧٢٨)، ورقة ٢.
(٢) «الفواكه الدواني» (١/٩).
(٣) «ترتيب المدارك» (٦/٢١٦).

منه أن يتفضّل بإنفاذهما بعد عرضهما بحضرته، وإجازتهما له ولغيره من علماء بغداد، فجاوبه الشيخ بأنّه سوف يوجّه إليه وللشيخ الأبهري إمام المالكية ببغداد بالكتابين المذكورين[1]. كما أظهر علماء بغداد تقديرهم لمكانة الشيخ العلمية واهتمامهم بكتبه وبما بذله فيها من جهد لخدمة المذهب المالكي والعقيدة السنية، وذلك بما قام به الأبهري من تتبع ألفاظ «الرسالة» ومعانيها، فرفعها إلى النبي ﷺ أو إلى أصحابه ﷺ، وسمّى هذا العمل بـ«مسلك الجلالة في مسند الرسالة»[2]؛ وبما قام به القاضي عبد الوهاب البغدادي من وضع شرح عليها وعلى «مختصر المدونة»، وسمّى شرح المختصر «الممهّد في شرح مختصر أبي محمّد»[3].

وقد أفاض نظراؤه المعاصرون له من العلماء، وكذلك طلبته، في ذكر قيمته العلمية؛ قال عنه أبو الحسن القابسي: «إمام مؤيّد موثوق به في درايته وروايته»[4]، وذكره أبو بكر بن الطيب الباقلاني في كتابه، فعظّم قدره وأضفى عليه لقب «الشيخ»[5]. ولخص القاضي عياض شهادة العلماء فيه بقوله: «كان أبو محمد إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله. وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، كتبه تشهد له بذلك، فصيح القلم، . . وحاز رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار. وهو الذي لخّص المذهب وضمّ نشره وذبّ عنه»[6]. وللجهد الكبير الذي بذله في خدمة المذهب المالكي، والأثر الذي أحدثه فيه أطلق عليه أهل المذهب تسميتين: «مالك الصغير»[7] «وقطب المذهب»[8].

ويلخص هذه المنزلة وصف محمد مخلوف له بـ«الفقيه، النظار، المتكلّم، الحافظ، الحجّة، الأديب»[9].

---

(١) «ترتيب المدارك» (٦/ ١٩٧).
(٢) انظر: «الرسالة الفقهية مع غرر المقالة»، محمد أبو الأجفان (٤٣).
(٣) «ترتيب المدارك» (٧/ ٢٢٢).
(٤) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٦).
(٥) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٦).
(٦) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٦).
(٧) «طبقات الفقهاء» للشيرازي (١٦٠).
(٨) «معالم الإيمان» (٣/ ١١٠).
(٩) «شجرة النور الزكية» (٩٦).

الأديب والشاعر:

أضاف ابن أبي زيد القيرواني إلى نبوغه في العلوم الشرعية براعته في مجال الأدب، فقد كان فصيح اللسان له قدرة على البيان، في المجالين الشفهي والكتابي. كما كان ينظم الشعر، وقد وصفه مترجموه بأنّه شاعر مجيد متفنّن[1]، وأنّه ذا عذوبة ألفاظ، وملاحة إيراد، وجزالة معان[2]. ومن شعره في رثاء شيخه أبي الفضل العباس الممسي، وكان قد استشهد في معركة المهدية ضدّ العبيديين:

يا ناصراً للدين قمت مسارعاً	وبذلت نفسك مخلصاً ومريداً
وذببت عن دين الإله مجاهداً	وابتعت بيعاً رابحاً محموداً
عهدي به بين الأسنة لم يكن	لله عند لقا العدوّ كموداً
كانت حياتك طاعة وعبادة	فسعدت في المحيا ومت سعيداً
يا قرّة للناظرين وعصمة	للمسلمين وعدّة وعديداً
يا فاتق الرتق الخفي بعلمه	ومبيناً للمشكلات مفيداً
جمعت كلّ فضيلة ونقيبة	وحويت علماً طارفاً وتليداً
وبرعت بين أصوله وفروعه	فقهرت ما قد كان منه عتيداً
يا أيّها المحسود في أخلاقه	وفعاله لا لمت فيك حسوداً
أفديك من ورع عليم فاضل	لك في الورى ما إن رأيت عنيداً
يبكي إذا غسق الدجى بمدامع	قد خددت في خدّه أخدوداً
إن فاتني نظر إليك فلم يفت	ذكر يحلّ من السلو عقوداً
ومدامع تشفي وتطفي بالحشا	ناراً إذا طفيت تزيد وقوداً[3]

وقال في رثاء شيخه أبي بكر بن اللباد، وكان قد امتحن بالسجن، ثم بالمنع من الخروج من بيته، ومن التدريس والاجتماع بأهل العلم والطلبة:

يا من لمستعذب في ليله حزناً	مستوطن من بقايا دائه وطناً

(١) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٥)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (٢/ ٤٤٣).
(٢) «معالم الإيمان» (٣/ ١١٠).
(٣) «ترتيب المدارك» (٥/ ٣٠٨).

يا عين وابكي لمن في فقده فقدت	جوامع العلم والخيرات إذ دفنا
لهفي على ميت ماتت به سبل	الخيرات قد كان أحيى الدين والسننا
نفسي تقيك أبا بكر ولو قبلت	فدتك من كل مكروه إليك دنا
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها	فنحن بعدك نلقى الضيم والفتنا
ونحن بعد أيتام بغير أب	إذ غيب الترب عنا وجهك الحسنا

موقفه من العبيديين:

كانت مواقف علماء القيروان من الدعوة العبيدية قد اتخذت أشكالاً أربعة: المقاطعة وعدم المخالطة لرجال الدولة الجديدة ولكل من يتصل بهم؛ وتكفيرهم والمجاهرة بمعاداتهم؛ والمناظرة والمواجهة العلمية؛ وَإعلان الجهاد ووجوب مقاتلتهم.

ولم يشذّ موقف ابن أبي زيد من الدعوة العبيدية الشيعية، عن موقف مشائخه وعلماء بلده، في المسارت التي اتخذوها لمواجهتها؛ والأخبار المنقولة عنه تدلّنا أنّه كان ضالعاً فيها؛ فقد جعل من داره مركزاً لاجتماع علماء المالكية لتدارس أمر العبيديين وطرق مجابهتهم، واختيار المناظرين لهم من بينهم ممّن يقدر على إفحامهم، من ذلك ما روي أنّ والي العبيديين على القيروان شدّد في طلب أهل العلم ليدخلهم في الدعوة، فطلب أبا سعيد بن أخي هشام، وأبا محمد بن التبان، وأبا القاسم بن شبلون، وأبا محمد بن أبي زيد، وأبا الحسن القابسي، فاجتمعوا بدار أبي محمد بن أبي زيد، واتفقوا على السير إليه، فقال لهم ابن التبان: «أنا أمضي إليه وأكفيكم مؤونة الاجتماع به، ويكون كلّ واحد في داره، وأبيع روحي من الله دونكم؛ لأنكم إن أُتي عليكم وقع على الإسلام وهن». ولمّا دخل على الوالي قال له: «جئتك من قوم إيمانهم مثل الجبال، أقلّهم يقيناً أنا»(١).

وقد شارك في جهاد العبيديين في الحملة التي قادها ضدّهم شيوخه

---

(١) «معالم الإيمان» (٣/ ٩١)، «ترتيب المدارك» (٦/ ٢٥٢).

فقهاء القيروان بالمهدية سنة ٣٣٣هـ؛ وكان عمره في هذه الواقعة ثلاثة وعشرين سنة. ولا شكّ فإنّ مثل نفس ابن أبي زيد الطامحة للعلى بخدمة دينها، يكون صاحبها قد وظّف ماله أيضاً في تجهيز الجيش؛ إذا احتملنا أنّه بدأ حياته موسراً. وكما قدّم نفسه وماله في الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد وظّف كذلك لسانه وقلمه لرثاء شيوخه المستشهدين والإشادة بجهادهم في ميادين العلم والقتال(١).

جهوده العلمية:

تظهر جهود ابن أبي زيد العلمية من خلال ما تخرّج على يديه من العلماء المبرزين، وما صدر عنه من التآليف.

وبنظرة تقويمية لجهوده العلمية، من خلال مؤلفاته الآتي ذكرها، وإشادات العلماء بها، يبرز ابن أبي زيد الشخصية العلمية المفصلية في تاريخ المذهب المالكي؛ سمحت لمن جاء بعد طبقته من علماء المذهب أن يرتكزوا عليها في دراساتهم الفقهية. فقد انصبّت جهوده على مسارات:

الأول: جمع واستقصاء ما روي عن الإمام مالك وعن تلاميذه وتلاميذهم من آراء وأقوال. ولأجل ذلك سعى إلى أن يربط صلاته مع مراكز المذهب المالكي ـ الأندلس ومصر وبغداد ـ ليستفيد من علمائها ما ليس عند القيروانيين من المادة الفقهية المروية عن إمام المذهب، وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه. فكان أن تحقق له ذلك بما جاءته من إجازات أقطاب المذهب، وَتجمع لديه ما لم يتجمّع لغيره من علماء المالكية في عصره وقبل عصره، ممّا كان موزّعاً بين الأقطار التي انتشر فيها أصحاب الإمام مالك.

وقد مكّنه هذا التجميع من إقامة منهج هامّ يقوم على ما يلي:

* تمييز أقوال إمام المذهب وحصر الروايات عنه؛ وضبط مواطن

---

(١) انظر: رثاءه لشيخه أبي الفضل الممسي «ترتيب المدارك» (٥/ ٣٠٨). وانظر: رثاءه لشيخه ابن اللباد «ترتيب المدارك» (٥/ ٢٩٤).

الاتفاق والاختلاف بينه وبين أصحابه؛ وتحديد ما انفرد به أصحابه وتلاميذهم ممّا لم يكن له فيه قول.

* دراسة الخلاف فيما فيه خلاف بين الروايات والأقوال، وذلك بتحقيق مناط الخلاف حيث كانت الصورة واحدة واختلفت فيها الأنظار؛ أو بتحقيق الصور المناسبة لها لبيان أوجه الفرق بينها، حيث كان الخلاف في الصور.

* وضع كلّ حكم فقهي، برواياته المتعدّدة وأقواله المختلفة، ضمن معايير الأركان والشروط التي تتحقق بها ماهية كلّ موضوع من مواضيع الأحكام الفقهية[1].

ويظهر هذا الجهد الذي قام به ابن أبي زيد في كتابه الموسوعي «النوادر والزيادات» الذي سيأتي الحديث عنه.

وغني عن البيان ما وفّره هذا الكتاب ـ بالمنهج الذي أقامه عليه مؤلفه ـ لعلماء المذهب في جميع مراكزه، في عهد ابن أبي زيد وبعده، من المادة الفقهية التي أغنتهم عن السفر لتلقّي مدونات المذهب ومصنفاته المتفرّقة بين هذه المراكز، إذ كان كل مركز قبل ابن أبي زيد يختص بروايات وأقوال، قد تختلف أو تتفق مع المراكز الأخرى. كما وفّر لهم فرصة المقارنة بين الاتفاقات بإقامة القاعدة النظرية الصلبة التي ينبني عليها المذهب، لحفظ وحدته؛ والمقارنة بين الاختلافات بإقامة قواعد الترجيح بينها من الناحية النظرية العلمية أو الخصوصية العرفية.

ولعلّه من أجل هذا العمل الضخم الذي أنجزه ابن أبي زيد للمذهب المالكي، عدّ هو وطبقته آخر المتقدمين وأوّل المتأخرين[2]، فكان تاريخ هذه الطبقة فاصلاً بين التاريخين للفقه، كما كان جهد ابن أبي زيد وما قدّمه للمذهب فاصلاً بين مرحلتين، نقل الدراسات الفقهية داخل المذهب إلى مرحلة جديدة.

---

(١) انظر: «أعلام الفكر الإسلامي» لمحمد الفاضل بن عاشور (ص٤٧).
(٢) «الفكر السامي» (٢/ ١١٥).

الثاني: تلخيص المذهب وتبسيطه، بتقديم مادّة فقهية مركّزة، مقتصراً على رؤوس المسائل وأوائلها، دون التعرّض للتفريعات، ولا للخلافات داخل المذهب، حيث سلك مسلك الترجيح والاختيار بينها، مع سهولة العبارة وسلاسة المعاني. ويتمثّل هذا في كتاب «الرسالة». وهدفه منها تمكين الأطفال والمبتدئين وعامّة الناس من كتاب ميسّر، يكون عمدتهم في معرفة أصول العقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة، وآدابها. ولكنّه أصبح فيما بعد عمدة العلماء والمتفقهين في مراجعة المسائل والدراسات الفقهية في المذهب المالكي، في جميع معاهد العلم بالبلاد الإسلامية بلا استثناء. فابتدأ رواجها من عهد مؤلفها، واستمرّ تعاقب الشروح عليها من عصره، حيث كان أوّل من اهتم بها الإمام الأبهري بإسنادها وإرجاع ألفاظها إلى السنَّة النبوية وآثار الصحابة؛ ثم كان أوّل شارح لها القاضي عبد الوهاب البغدادي، واستمرّت العناية بها من قبل العلماء بالشرح والبيان والتعليق إلى عصرنا الحاضر.

والحق فإنّ إنجاز مثل هذا المختصر، الذي لاقى الإعجاب والعناية من أقطاب المذهب في عصر مؤلفه، شكلاً ومضموناً، لا يقدر عليه إلا من غاص في أعماق المذهب، وأحاط بجميع أصوله وفروعه، وعرف كلياته وجزئياته، وفهم مداركه واستدلالاته، وكان قادراً على التصرّف في مسائله وتنزيلها على صورها.

ومن هنا تظهر عبقرية ابن أبي زيد في الدراسات الفقهية، بظهور قدرته على الانتقال من الدراسات المطوّلة التي تدل على موسوعية صاحبها وحفظه؛ إلى الدراسات المختصرة التي تدل على قدرة صاحبها على التمييز بين الأصول والفروع، وترتيب المسائل بحسب قوّتها؛ وهو أمر لا يحصل لصاحبه إلّا بتوفيق من الله تعالى.

وقد شهد له علماء المذهب بدوره في حماية المذهب المالكي وحفظه من التبعثر وتشتت الأقوال، التي تؤول عادة بأي مذهب، هذه صورته في تعدد الأقوال والآراء، إلى الانقسام وتولد المذاهب عنه؛ لذلك عدّوه ضمن علماء ستة كان لهم فضل كبير على المذهب وتماسكه وقوة حجته، فقالوا: لولا

الشيخان، والمحمدان، والقاضيان، لذهب المذهب. فالشيخان: أبو محمد بن أبي زيد، وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، والقاضيان: أبو الحسن بن القصار، وأبو محمد عبد الوهاب البغدادي[1].

الثالث: الاحتجاج لآراء مذهبه العقدي السنّي، والفقهي المالكي. وقد اشتهر بردوده على أهل الأهواء والبدع، من منتسبي فرق المعتزلة والخوارج والشيعة والصوفية المنحرفين. كما اشتهر بعمق مناقشاته لهم، وإقامة الحجة عليهم؛ وكتبه المعنونة بما يدلّ على ذلك شاهدة على ما وصفه به القاضي عياض بأنّه كان ذابّاً عن مذهب مالك، قائماً بالحجة عليه، بصيراً بالردّ على أهل الأهواء[2]. ولو عثر على كتبه العقدية ـ الآتي ذكرها ـ لأعطت صورة جلية على مدى مساهمته في تدعيم المدرسة السنّية في المجال العقدي، مثلما أعطت كتبه الفقهية التي وصلت إلينا «النوادر والزيادات» و«الرسالة» صورة واضحة على مساهمته في تدعيم المذهب المالكي. على أن المقدمة العقدية التي مهّد بها لـ «الرسالة» الفقهية تعتبر عملاً ذكياً، أوضح فيها أصول العقيدة السنّية وخصائصها بإيجاز محكم، وأسلوب رائع[3].

تلاميذه[4]:

لقد بلغ ابن أبي زيد من المنزلة العلمية حتى انتهت إليه رئاسة المذهب السنّي عامة والمذهب المالكي خاصة، وأصبح وجهة لطلبة العلم من كل الأقطار، فكثر بذلك الآخذون عنه. وقد نبغ تلاميذه، ما جعلهم يتبوّؤون سدّة العلم بعده. ومنهم:

---

(١) «معالم الإيمان» (٣/ ١١٠). (٢) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٦).

(٣) انظر: «المدارس الكلامية بإفريقية» عبد المجيد بن حمده (ص٤٥).

(٤) انظر لمعرفة جميع تلاميذه المذكورين في كتب التراجم: «معالم الإيمان» (٣/ ١٤٦)، «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٧)، «الديباج» (١٣٧)، «شجرة النور» (٩٦)، «تراجم المؤلفين التونسيين» (١/ ٢٢٤).

ـ من القيروان: أبو بكر بن عبد الرحمٰن الخولاني (ت٤٣٢هـ)، وأبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي البرادعي (ت بعد ٤٣٠هـ)، وأبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد اللبيدي (ت٤٤٠هـ)، وأبو عبد الله الحسين بن أبي العباس الأجدابي (ت٤٣٢هـ)، وأبو عبد الله محمد بن العباس الخواص (ت٤٢٦هـ)، وأبو محمد مكّي بن أبي طالب القيسي المقرئ (ت٤٣٧هـ)، وأبو زكرياء يحيىٰ بن علي الشقراطسي القرشي التوزري (ت حوالي ٤٢٩هـ)، وأبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت حوالي ٤٢٢هـ)، وأبو عمر أحمد بن محمد الإشبيلي المهدوي (ت٤١٠هـ).

ـ من المغرب: أبو عبد الرحمٰن عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز الكتامي السبتي الفاسي (ت٤١٣هـ)، وأبو علي السجلماسي، وأبو محمد ابن غالب (ت٤٣٤هـ)، وخلف بن ناصر، وغيرهم.

ـ من الجزائر: عبد الله بن يونس الوهراني الطبيب.

ـ من الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت٤٦٣هـ)، وأبو بكر محمد بن موهب المقبري التميمي القرطبي (ت٤٠٦هـ)، وأبو المطرف عبد الرحمٰن بن هارون الأنصاري المعروف بالقنازعي القرطبي (ت٤١٣هـ)، وأبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن الحذاء التميمي (ت٤١٠هـ)، وغيرهم.

وتتلمذ عليه جماعة من الصقلّيين والليبيين.

مؤلفاته:

وصف مترجموه تآليفه بأنّها مفيدة، بديعة، عالية؛ وأنّها تشهد له بأنه كان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، وأنّه من الطبقة العالية في المؤلفين[1].

تتوزع مؤلفاته حسب المحاور التالية:

---

(١) «شجرة النور الزكية» (٩٦)، «الفكر السامي» (١١٦/٢).

في العقيدة:

* المقدمة العقائدية التي افتتح بها كتاب «الرسالة» الفقهية.

* المقدمة العقائدية التي افتتح بها «كتاب الجامع»[1] من مختصر المدونة.

* كتاب الثقة بالله والتوكل على الله سبحانه.

* كتاب المعرفة واليقين.

* كتاب المضمون من الرزق.

* كتاب البيان في إعجاز القرآن.

* كتاب الردّ على ابن مسرّة المارق. ذكره أبو علي عمر بن محمد السكوني قال: «وقد صنّف أبو محمد بن أبي زيد ـ رحمه الله تعالى ـ كتاباً في الردّ عليه، منطوياً على التقاسيم الأصولية والقوانين الحقيقية البرهانية، يدلّ على تبحره رحمه الله في علم أصول الدين، وبهذا شهد له القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله تعالى في كتابه المصنّف في كرامات الأولياء»[2].

* رسالة في الردّ على القدرية ومناقضة رسالة علي بن أحمد البغدادي المعتزلي المالكي، نزيل مصر. ويبدو أنه انتسب إلى مالك لكي يروّج دعوته في الطبقات الشعبية، وكتب إلى فقهاء القيروان رسالة يدعوهم إلى الاعتزال والقول بالقدر وخلق القرآن، وغير ذلك من مذهب المعتزلة. وجاوبه ابن أبي زيد برسالته هذه، ظهر فيها علمه وقوّته في الكلام بالردّ على أهل الأهواء. ونفى عن مالك وأصحابه جميع ما نسب إليهم، وجعل يحتجّ على نقض قوله في القدر من كلام مالك البديع في رسالته في القدر إلى ابن وهب. والرسالة

---

(١) مطبوع بدار الغرب الإسلامي بيروت، سنة ١٩٩٠م، تحقيق عبد المجيد تركي.

(٢) لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام، لأبي علي عمر بن محمد السكوني (ص٢٠)، تحقيق سعد غراب، ونشر بمجلة حوليات الجامعة التونسية عدد ١٢ سنة ١٩٧٥ (ص٢١٠).

نقل منها الحافظ ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري» فقرات في موضعين[1].

* كتاب الاستظهار في الرد على البكرية[2].

* كتاب كشف التلبيس في الردّ على البكرية. والبكرية نسبة إلى أبي القاسم عبد الرحمٰن بن محمد البكري الصقلّي، نزيل القيروان. وكتابه الذي ردّ عليه ابن أبي زيد القيرواني هو «كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين». وقد ردّ عليه ابن أبي زيد في كتابيه «كرامات الأولياء من قلب الأعيان»، و«رؤية الله في اليقظة». وقد شنّع عليه الصوفية وكثير من أهل الحديث، وأشاعوا بأنه نفى الكرامات، وهو لم يقل بذلك. وردّ عليه بعض العلماء من الأندلس والمشرق، كأبي الحسن بن جهضم الهمداني، وأبي عبد الله بن شقّ الليل، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي بكر الباقلاني، وغيرهم. قال القاضي عياض: «وكان أرشدهم في ذلك وأعرفهم بغرضه ومقداره، إمام وقته القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني، فإنّه بيّن مقصوده»[3]، فقد جاء في كلام الباقلاني قوله: «وشيخنا أبو محمد، مع اتساع علمه في الفروع واطّلاعه على شيء من الأصول، لا ينكر كرامات الأولياء ويذهب إلى ما تذهب إليه المعتزلة، وإنما أراد بقوله...» وأخذ بتأوّل قوله ويخرجه مخارج تليق به[4]. قال الطلمنكي مبيّناً سبب إنكار ابن أبي زيد الكرامات: «كانت من أبي محمد بادرة لها أسباب، أوجبها التنافر الذي يقع بين العلماء، صحّ رجوعه عنها، ولم يرد في ظاهر أمره إلّا تحصين النبوّة، فأدّى الأمر إلى أن جهل الكرامات باعتلاله لها، وإلّا فهو أجلّ من أن ينكرها إنكار إبطال. وإنّما أنكرها فيما

---

(١) «تبيين كذب المفتري» (ص١٠٠ و٢٩٨).

(٢) ورد عنوان الكتاب في «ترتيب المدارك» وغيره (الفكرية) وهو تحريف لا معنى له. «تراجم المؤلفين التونسيين» (٢/ ٤٤٤).

(٣) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٩)، وانظر: ما جاء من كلام الباقلاني في ذلك فيما نقله الونشريسي في «المعيار المعرب» (٢/ ٣٩٢ ـ ٤٤٢ ـ ١١/ ٢٤٩).

(٤) «المعيار المعرب» (٢/ ٤٤٢).

بلغنا عن طبقات عندهم محتالين لأكل أموال الناس، مخادعين للجهال»[1].
قال الدباغ: «وإنما كان يبلغه عن ابن الصقلّي أشياء، الله أعلم بها وبصحتها، كأنها عنده من جنس المحالات، فكان ينكر ذلك»[2].

* إثبات كرامات الأولياء.
* رسالة في أصول التوحيد.
* كتاب الدعاء.

في الفقه وأصوله:

* الرسالة الفقهية[3]؛ بما في ذلك المقدمة العقدية التي سبق الحديث عنها. وسبب تأليفها أنّ الشيخ الصالح الفقيه المؤدب أبا محفوظ مُحْرَز بن خلف الصدفي التونسي طلب منه أن يَكتب له جملة مختصرة في العقيدة والفقه والآداب، ليعلّمها للأطفال كما يعلّمهم القرآن الكريم. فأجاب الشيخ ابن أبي زيد طلبته فألف «الرسالة» ووجهها إليه، وقد ذكر ذلك ابن أبي زيد في المقدمة[4]، دون أن يذكر اسم الطالب، وقد رجح أبو عبد الله محمد بن سلامة التونسي في شرحه لها، وأبو علي ناصر الدين البجائي، أنّ الطالب هو المؤدب محرز بن خلف، وليس السبائي على ما ذكره آخرون، وقد صحح ابن ناجي هذا الترجيح، معللاً إياه بأن قول ابن أبي زيد في أول «الرسالة»: «كما تعلمهم حروف القرآن» يدل على ذلك؛ لأنه لا يعلم أنّ أحداً ممن تعرض إلى مناقب أبي إسحاق السبائي ذكر أنه كان مؤدباً.

ومنذ ظهورها أخذت طريقها إلى الانتشار والشهرة، واستقطبت أقلام كثير من الشراح، وجلبت اهتمام كثير من العلماء عبر العصور[5]. قال الشيخ

---

(١) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٩). (٢) «معالم الدباغ» (٣/ ١١٣).
(٣) مطبوع عدة طبعات.
(٤) انظر: مقدمة الرسالة نفسها، و«شرح الرسالة» لابن ناجي (١/ ١١).
(٥) انظر قائمة في أبرز شراحها: مقدمة تحقيق «الرسالة الفقهية» لمحمد أبي الأجفان، والهادي حمّو (ص٣٩).

الدباغ: «انتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين، حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان. وتنافس الناس في اقتنائها، حتى كتبت بالذهب، وأول نسخة نسخت منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري، بعشرين ديناراً ذهباً»[1].

وقد تعدّت شهرتها ـ في العصر الحديث ـ المجال الإسلامي، بتوجيه بعض المستشرقين جهودهم إلى دراستها وترجمتها، فقد ترجمها المستشرق «أدرسل» إلى الإنجليزية مع عبد الله المأمون السهروردي، ونشرت الترجمة مع النص العربي بلندن سنة ١٩٠٦م؛ وترجمها إلى الفرنسية كلّ من المستشرقين «فانيان» سنة ١٩٢٤م، و«ليون برثر» وطبعت ترجمته مرات بالجزائر[2].

وكان ابن أبي زيد ـ بعد أن أتمّ تأليفها ـ وجّه نسخة منها إلى أبي بكر الأبهري ببغداد، وبثانية إلى أبي بكر بن زرب قاضي الجماعة بالأندلس. فأمّا الأبهري فقد أظهرها وأشاع خبرها بين أهل بغداد، وأثنى على مؤلفها، ثم أمر ببيعها بوزنها ذهباً، ليحسن بثمنها إلى حاملها إليه، فبيعت بثلاثمائة دينار ونيف. وأمّا ابن زرب فأخفاها وشرع في تأليف كتاب عوضها، وبعد فترة ظهر كتابه «الخصال» على مذهب مالك[3].

ومدحها القاضي عبد الوهاب البغدادي، بقوله:

رسالة علم صاغها العلم النهد ... قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد
أصول أضاءت بالهدى فكأنما ... بدا لعيون الناظرين بها الرشد
وفي صدرها علم الديانة واضحاً ... وآداب خير الخلق ليس لها ندّ
لقد أمّ بانيها السداد فذكره ... بها خالد ما حجّ واعتمر الوفد[4]

وقد ذكر غير واحد من مترجميه أنّه ألفها وهو في السابعة عشرة من

---

(١) «معالم الإيمان» (٣/ ١١١).
(٢) مقدمة تحقيق «الرسالة الفقهية» (ص٤٨).
(٣) «معالم الإيمان» (٣/ ١١٢).
(٤) «معالم الإيمان» (٣/ ١١٢).

عمره. وَهَذَا بعيد؛ لأنّه والحالة هذه يكون تأليفها حصل سنة ٣٢٧هـ، وإذا كان ابن زرب ولد سنة ٣١٧هـ، فإنّ عمره حين أرسل إليه ابن أبي زيد «الرسالة» يكون عشر سنوات، وهو سن لا يبلغ فيه صاحبه عادة مبلغ العلماء المشهورين وتقليد القضاء، فضلاً عن قضاء الجماعة. وكذلك فإنّ الشيخ محرز بن خلف قد توفي سنة ٤١٣هـ وقد جاوز السبعين[١]، وعلى هذا يكون ميلاده حوالي سنة ٣٤٣هـ ويكون تأليف الرسالة قد تمّ قبل ميلاده. لذلك فالذي نرجّحه أنّ ابن أبي زيد ألف «الرسالة» بعد أن استوى عالماً متمكناً في علوم الشريعة، وقد ذاع صيته وانتشر في الآفاق خبره، بدليل أنّه حين أرسل «الرسالة» إلى الأبهري كان قد سبقتها إليه شهرته، وعرف إمام المالكية بالعراق منزلته، لذلك قابلها بما ذكرنا من الإعجاب والثناء على مؤلفها. والتقدير أن يكون ابن أبي زيد ألفها بعد أن تولّى ابن زرب القضاء سنة ٣٦٧هـ، أي وعمره في حدود الستين سنة، وعمر ابن زرب في حدود الخمسين سنة، وعمر محرز بن خلف في حدود السبعة والعشرين، والله أعلم.

* النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات[٢].
وهو كتاب جمع فيه جميع ما دوّنه أصحاب الدواوين والأمهات - عدا المدونة السحنونية - من أوّل ما ألّف في أقوال مالك وأقوال أصحابه وتلاميذهم، إلى عهد مصنّفه، لكن بدون أن ينقلها بجملتها، وإنّما بتلخيصها وترتيبها فيما بينها بحسب وحدة الموضوعات والمسائل. قال ابن خلدون: «جمع ابن أبي زيد جميع ما في المذهب من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب «النوادر» فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفروع الأمهات كلّها في هذا الكتاب»[٣].
ومن المؤلفات التي تضمنّها كتاب «النوادر»: «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ)، و«العتبية» لمحمد بن العتبي (ت٢٥٥هـ)، و«المجموعة» لمحمد بن عبدوس (ت٢٦٠هـ)، و«الموازية» لمحمد بن المواز (٢٦٩هـ)، والكتب الفقهية

---

(١) انظر: «شجرة النور الزكية» (٢/٢٠٢).
(٢) مطبوع بدار الغرب الإسلامي بيروت.
(٣) مقدمة ابن خلدون (ص٤١٦).

من تأليف محمد بن سحنون (٢٥٦هـ)، وأقوال معاصريه من أئمة المذهب العراقيين والمصريين، كأبي بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ)، وبكر بن العلاء القشيري البصري (ت٣٤٤هـ)، وأبي بكر بن الجهم (ت٣٢٩هـ)، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القرطي المصري (ت٣٥٥هـ)، كما إنه يذكر أقوالاً من مصادر أخرى، كمختصر ابن عبد الحكم المصري (ت٢١٤هـ)، وكتاب أبي الفرج عمر بن محمد الليثي البغدادي (ت٣٣١هـ).

وذكر القاضي عياض أنّ هذا الكتاب وكتاب «المختصر» الآتي ذكره مشهوران، وهما المعوّل عليهما في التفقه عند أهل المغرب[1].

* مختصر المدوّنة.

* تهذيب العتبية.

* كتاب الأمر والاقتداء، والنهي عن الشذوذ عن العلماء، وإيجاب الائتمام بأهل المدينة. وقد بيّن مؤلفه ـ في كتاب النوادر ـ أنّه بحث فيه في مسائل الإجماع وإجماع أهل المدينة.

* كتاب الذبّ عن مذهب مالك[2].

* كتاب التنبيه على القول في أولاد المرتدين ومسألة الحبس على أولاد الأعيان.

* كتاب تفسير أوقات الصلوات.

* كتاب المناسك.

* كتاب ردّ المسائل.

* كتاب ردّ الخاطر من الوسواس.

* رسالة إعطاء القرابة من الزكاة.

* كتاب النكاح بغير بيّنة.

---

(١) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٧).

(٢) مخطوط بمكتبة تشستربيتي (رقم ٤٤٧٥).

* كتاب فضل قيام رمضان.

* التبويب المستخرج.

في الأخلاق والسلوك والآداب:

* كتاب الجامع من مختصر المدونة، بما في ذلك المقدمة العقدية التي سبق ذكرها.

* رسالة فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة.

* كتاب حماية عرض المؤمن.

* رسالة النهي عن الجدال.

* رسالة الموعظة والنصيحة؛ وهي موجهة للقائد محمد بن الطاهر.

* رسالة طالب العلم؛ وهي في أحكام المعلمين والمتعلمين. وقد أشار إليها ابن خلدون في مقدمته[1].

* رسالة الموعظة الحسنة لأهل الصدق.

* رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن.

في السيرة والتاريخ:

* الباب الذي تضمّنه كتاب الجامع من مختصر المدونة، وعنوانه: «باب في مبعث النبي ﷺ وأيامه وعمره ونسبه وصفته وذكر بنيه وبناته وزوجاته وذكر العشرة من أصحابه وأنسابهم وأعمارهم وشيء من التاريخ».

* حكايات عن سعيد بن الحداد.

في الأدب:

* قصيدة في البعث[2].

* قصيدة في مدح الرسول ﷺ، أو في شرف المصطفى[3].

---

(١) المقدمة (ص٤٠٦).　　(٢) مخطوط في باريس.

(٣) مخطوط في المتحف البريطاني (رقم ١٦١٧).

* قصائد متنوعة المضامين، ومنها ما هو في رثاء شيوخه، مقاطع منها مذكورة في كتب التراجم.

ابن أبي زيد القيرواني مجدّد عصره:

ولأجل هذه المزايا التي توفّرت في شخصية ابن أبي زيد، علمياً وسلوكياً، ودفاعاً عن عقيدة الإسلام وشريعته، ضدّ أصحاب البدع والأهواء، من الفرق المنحرفة؛ اعتبره الحجوي الفاسي أحقّ من يصدق عليه حديث: «يبعث الله على رأس كلّ مائة من يجدّد لهذه الأمة دينها» وذلك في إفريقية وما قرب منها، وفي المشرق الإمام الباقلاني[1].

وفاته:

بعد حياة مليئة بالجهاد العلمي والفكري والمالي والدعوي والقتالي، وبعد حياة معطَّرة بنفحات التقوى والورع والصلاح، دامت ستة وسبعين عاماً؛ توفي ابن أبي زيد القيرواني على الصحيح في الثلاثين من شعبان سنة ٣٨٦هـ/ ١٤ سبتمبر ٩٩٦م. وصلّى عليه في اليوم الموالي لوفاته رفيقه أبو الحسن القابسي بالريحانة، في جمع غفير، ودفن بداره بالقيروان. رحمه الله تعالى. وقد جادت قرائح الشعراء بمراث مشجية مؤثرة، تشيد بفضائله وتعدّد مناقبه، وتعبِّر عن لوعة فقده[2]، منها قول ابن الخواص الكفيف:

هـذا لـعـبـد الله أوّل مـصـرع	تـرزى بـه الـدنـيـا وآخـر مـصـرع
كادت تميد الأرض خاشعة الربا	وتـمـور أفـلاك الـنـجـوم الـطـلـع
عجباً لا يدري الحاملون لنعشه	كيف استطاعة حمل بحر منزع
عـلـمـاً وحـلـمـاً كـامـلاً وبـراعـة	وتـقـى وحـسـن سـكـيـنـة وتـورّع
غصّت فجاج الأرض سعياً حوله	مـن راغـب فـي سـعـيـه مـتـبـرّع

(١) «الفكر السامي» (٢/ ١١٦).

(٢) راجعها في «ترتيب المدارك» (٤/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧)، و«معالم الإيمان» (٣/ ١١٨).

يبكونه ولكلّ باك منهم ذلّ الأسير وحرقة المتوجّع[1]

ذكر القاضي عياض أنّ ابن أبي زيد رُئي يوماً في مجلسه، وهو مستغرق في التفكر وعليه مسحة كآبة، فسئل عن سبب ذلك، فأجاب بقوله: «أُرِيتُ - في المنام - باب داري سقط، وقد قال الكرماني: إنّه يدلّ على موت صاحب الدار. فقيل له: الكرماني مالك في علمه؟ قال: نعم هو مالك في علمه، أو كأنه مالك في علمه». ولم يلبث ابن أبي زيد إلّا يسيراً، ثم فارق الحياة الدنيا[2]. رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه. آمين.

---

(١) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢٢١).

(٢) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢٢٢).

أحمد بن عبد الله بن محمّد القلشاني[1]

(٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م - ٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م)

اسمه ونسبه:

أحمد بن محمّد بن عبد الله بن محمد بن خلف الله بن عبد السّلام بن أحمد الخزرجي القلشاني التّونسي، أبو العبّاس. أصله من باجة.

ولادته ووفاته:

لم تشر المصادر التي ترجمت للقلشاني إلى تاريخ ولادته، وأمّا وفاته فكانت في يوم الأحد عند غروب الشّمس ٨ من شعبان سنة ٨٦٣هـ[2]. وصلّي عليه من الغد بجامع الزّيتونة بعد صلاة الظّهر ودفن بجبل الزلّاج، وحضر لدفنه السّلطان أبو عثمان الحفصي ووجوه أهل دولته، وكان عمره ٨٤ سنة[3].

وبالمقارنة بين تاريخ وفاته ومدّة حياته ندرك أنّه ولد سنة ٧٩٩هـ.

---

(١) ترجمته في: «شجرة النور» (١/ ٢٥٨)، «معجم المؤلفين» (٢/ ١٢٣)، «تراجم المؤلّفين التونسيين» (٤/ ١٠١ ـ ١٠٢)، «لقط الفرائد» (٢/ ٧٦٧)، «الحلل» (١/ ٦٠٦)، «إتحاف أهل الزّمان» (٧/ ٦٤)، «نيل الابتهاج» (٧٨)، تاريخ الدولتين (١٣٥).

(٢) في برنامج المكتبة الصادقيّة وفاته في سنة ٨٤٣هـ. وهذا خطأ لأنّ تاريخ وفاته مضبوط بلسان القلم في نيل الابتهاج، ولأنّ ابن عقاب الذي تولى بعده قضاء الجماعة توفي سنة ٨٥١هـ.

(٣) «الحلل» (١/ ٦٠٨)، «تاريخ الدولتين» (١٥١)، «الضوء اللامع» (٢/ ١٣٧)، «كفاية المحتاج» الورقة ١٢، «إتحاف أهل الزّمان» (٧/ ٦٤)، «معجم المؤلّفين» (٢/ ١٢٣)، «لقط الفرائد» (٢/ ٧٦٧).

نشأته وحياته:

نشأ الشيخ القلشاني في بيت من بيوتات العلم المشهورة، فقد كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله القلشاني عالماً فقيهاً قاضياً. أحد أصحاب الإمام ابن عرفة، ولد سنة ٧٥٣هـ وتوفي في ربيع الثاني سنة ٨٣٧هـ[١].

ولا شكّ أنّه مكّن ابنه من المعارف الأوّلية، قبل أن يقوى عوده، ويشتدّ صلبه، وينضج علمه، ويبدأ في العطاء والإنتاج.

وقد لقي جماعة من العلماء وأخذ منهم، نذكر منهم بحسب ما توفّر لدينا من المصادر:

- الإمام أبا عبد الله محمد بن الشيخ محمد بن عرفة الورغمي التونسي؛ تولى إمامة جامع الزيتونة والخطابة به والفتيا. له تآليف في فنون من العلم منها: مختصره في الفقه، والحدود الفقهيّة، ومختصر فرائض الحوفي، وتأليف في أصول الدين «المختصر الشامل» عارض به طوالع البيضاوي. مولده سنة ٧١٦هـ وتوفي في جمادى الثانية سنة ٨٠٣هـ[٢].

- أبا مهدي عيسى بن أحمد بن محمد الغبريني التونسي؛ قاضي الجماعة بتونس، وعالمها، وصالحها، وخطيبها بجامعها الأعظم. توفي في ربيع الثاني سنة ٨١٣هـ أو سنة ٨١٥هـ[٣].

وأخذ عنه جماعة منهم:

- أبا الحسن علي بن محمد البسطي القرشي؛ اشتهر بالقلصادي الأندلسي. له تآليف كثيرة في فنون من العلم منها «أشرف المسالك إلى مذهب مالك»، و«شرح مختصر خليل»، و«شرح الرّسالة»، و«شرح التّلقين»، و«شرحان على تلخيص ابن البنّا»، و«هداية الأنام في قواعد الإسلام». توفي بباجة تونس منتصف ذي الحجّة سنة ٨٩١هـ[٤]. وقد ذكر القلصادي شيخه

(١) «نيل الابتهاج» (٢٩١)، «شجرة النّور الزكية»، «٢٤٤».
(٢) «شجرة النور الزكيّة» (٢٢٧). (٣) «شجرة النور الزكيّة» (٢٤٣).
(٤) «شجرة النور الزكيّة» (٢٦١).

القلشاني في رحلته فقال: «شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام المفتي المدرس المصنّف القاضي أبو العبّاس، لم أر أعْرَفَ منه بمذهب مالك، ولا من يستحضر النوازل والأحكام مثله... حضرت عليه بعض تفسير القرآن، وجميع صحيح البخاري، وبعض مسلم، والرسالة، والجلاب، والتهذيب، وابن الحاجب، وقرأته عليه مع التّهذيب، وأجازني جميعها»[1].

- أبا عبد الله محمد بن قاسم الرصاع، الأنصاري، التونسي؛ قاضي الجماعة بها، وإمامها بجامعها الأعظم بعد الشيخ محمد بن عمر القلشاني. له شرح على الأسماء النبويّة، وشرح حدود ابن عرفة، وتأليف في إعراب كلمة الشهادة، وتأليف في الفقه كبير، وشرح البخاري، وله فتاوى في المعيار والمازونية. توفي سنة ٨٩٤هـ[2].

- عبد المعطي المحمدي[3]؛ نسبة لقبيلة بالمغرب التونسي. الفقيه، العلامة، الزكيّ، العمدة، الأفضل، الفهامة. ولد سنة ٨٩٢هـ[4].

تولّى القلشاني قضاء قسنطينة سنة ٨٢٢هـ[5]، وقيل سنة ٨٢٠هـ[6]، فبقي فيه زمناً طويلاً، ثمّ تولّى قضاء الجماعة بتونس بعد موت ابن عقاب[7]، ثمّ الإمامة والخطابة بجامع الزّيتونة والفتيا به بعد صلاة العصر.

بعث إليه السلطان أبو عمرو عثمان بن محمد المنصور بن أبي فارس يخيّره أن يتولّى خطابة جامع الزيتونة والفتيا به بعد صلاة الجمعة، ويترك

(١) «نيل الابتهاج» (٧٨).
(٢) «نيل الابتهاج» (٧٨)، و«تراجم المؤلّفين» (٤/ ١٠١).
(٣) في «الحلل» (١/ ٦٥١): (الحميدي).
(٤) «شجرة النور الزكيّة» (٢٥٩ ـ ٢٦٠).
(٥) «تراجم المؤلفين» (٤/ ١٠١)، و«نيل الابتهاج» (٢٩٢)، و«كفاية المحتاج» الورقة ١٢، و«إتحاف أهل الزمان» (٧/ ٤٦).
(٦) ذكره صاحب الحلل (١/ ٦٣٤).
(٧) أبو عبد الله محمد الخزامي مشتهر بابن عقاب. توفي سنة ٨٥١هـ ليلة الاثنين جمادى الأولى أو الأخرى.

القضاء، أو يبقى على خطّته خاصّة؛ فاستخار الله في ذلك، وكتب براءة بخطّه باختيار الخطابة والفتيا، واستعفائه عن قضاء الجماعة، فأعفاه وكتب له المدرسة الشماعيّة بعد أن بقي يحكم بين النّاس بتونس في قضاء الأنكحة مع قضاء الجماعة من وقت استعفائه، وذلك أزيد من ثمانية أشهر[1].

ولمّا تولّى القضاء أوصاه والده، فقال له: «أوصيك بتقوى الله سرّاً وعلانية، وأوصيك مع ذلك بآية وحديث، أمّا الآية فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والحديث قوله ﷺ: «حسن خلقك للناس يا معاذ»»[2].

مؤلّفاته:

- تحرير المقالة في شرح الرّسالة: فرغ من تأليفه في ٢٩ صفر سنة ٨٢٢هـ. وهو شرح كامل للرسالة بقسميها العقدي والفقهي.

والملاحظ أنّ القلشاني قد اعتمد في شرحه لقسم العقيدة على شرح الشيخ محمد بن سلامة الأنصاري المسمّى «النكت المفيد في شرح الخطبة والعقيدة»[3]. وبلغ في اعتماده عليه إلى حدّ النقل عنه والسير على منواله؛ لكن لا يخلو عمله من الإضافة.

- معونة الطالب وتحفة الراغب في شرح الإمام ابن الحاجب: شرح فيه مختصر ابن الحاجب الفقهي، قال عنه محمد بابا: «شرحه في سبعة أسفار، وقفت عليه كلّه إلّا سفراً منه... وهو حسن فريد، وفيه أبحاث مع ابن عرفة وغيره، إلّا أنّه اختصر أوائله جدّاً»[4].

- شرح المدونة.

النسخ المعتمدة في التحقيق:

في إطار الاهتمام بعقيدة ابن أبي زيد القيرواني، ونشر ما كتب عليها من

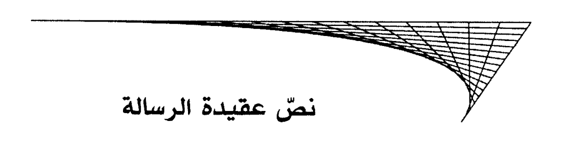
(١) «تاريخ الدولتين» (ص١٤٩).
(٢) «تاريخ الدولتين» (ص١٤٩).
(٣) بصدد الإعداد للنشر إن شاء الله تعالى.
(٤) «تراجم المؤلفين» (٣٧٧ ـ ٣٧٩).

شروح هامّة، فقد رأينا إفراد قسم العقيدة من شرح الإمام القلشاني بالنشر.
وقد اعتمدنا على النسخ التالية:

- النسخة الأولى: رقم ١٢٢٢٥٣، المكتبة الوطنية بتونس، ورمزنا إليها برقم: ١.

- النسخة الثانية: رقم ١٢٢٢٥١، المكتبة الوطنية بتونس، ورمزنا إليها برقم: ٢.

وكان اعتمادنا أساساً على هاتين النسختين، واستعنّا لتوضيح بعض مواطن الغموض على ثلاث نسخ وأرقامها: ١٨٣٩٣ و٦٨٣٦ و٦٢٢٢. كما استعنّا بشرح الشيخ محمد بن سلامة الأنصاري المسمّى «النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة».



نصّ عقيدة الرسالة

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

قال أبو محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني:

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه، وما يسّره له من رزقه، وعلّمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً. ونبّهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه؛ فهدى من وفّقه بفضله، وأضلّ من خذله بعدله، ويسّر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى؛ فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلّموا ما علّمهم، ووقفوا عند ما حدّ لهم، واستغنوا بما أحلّ لهم عمّا حرّم عليهم.

أمّا بعد: أعاننا الله وإيّاك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، ممّا تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة وتعمله الجوارح، وما يتّصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكّدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ وطريقته، مع ما سهّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين. لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلّمهم حروف القرآن؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته. فأجبتك إلى ذلك؛ لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علّم دين الله أو دعا إليه.

واعلم أنّ خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشرّ إليه. وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها؛ وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة، ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم؛ فإنّه روي «أنّ تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله»، و«أنّ تعليم الشيء في الصغر كالنقش على الحجر».

وقد مثّلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به.

وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرّق بينهم في المضاجع؛ فكذلك ينبغي أن يعلّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم، ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكّن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم. وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات.

وسأفصّل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً، ليقرب من فهم متعلّميه، إن شاء الله تعالى، وإيّاه نستخير، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم. وصلّى الله على سيّدنا محمد نبيّه، وآله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً.

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بـ:

ـ أنّ الله إله واحد، لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له.

ـ ليس لأوّليّته ابتداء.

ـ ولا لآخريّته انقضاء.

ـ لا يبلغ كُنْه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون. يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في مائيّة ذاته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ـ العالم، الخبير، المدبّر، القدير، السميع، البصير، العليّ، الكبير.

ـ وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته.

ـ وهو بكلّ مكان بعلمه. خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ـ على العرش استوى وعلى الملك احتوى.

ـ وله الأسماء الحسنى والصفات العلى. لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة.

ـ كلّم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه.

ـ وتجلّى للجبل فصار دكّاً من جلاله.

ـ وأنّ القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

ـ والإيمان بالقدر خيره وشرّه، حلوه ومرّه. وكلّ ذلك قد قدّره الله ربّنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه. علم كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره. لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

يضلّ من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكلّ ميسّر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد.

تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون خالق لشيء إلّا هو، ربّ العباد، وربّ أعمالهم، والمقدّر لحركاتهم وآجالهم.

ـ باعث الرسل إليهم لإقامة الحجّة عليهم.

ـ ثم ختم الرسالة والنّذارة والنبوّة بمحمد نبيّه ﷺ، فجعله آخر المرسلين، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ـ وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرع به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم.

ـ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون.

ـ وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر. وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته.

ـ وأنّ الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدّها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم. وهي التي أهبط منها آدم نبيّه وخليفته إلى أرضه، بما سبق في سابق علمه.

وخلق النّار فأعدّها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته.

ـ وأنّ الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً، لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها.

ـ وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] ويؤتون صحائفهم بأعمالهم. فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يَصْلَون سعيراً.

ـ وأنّ الصراط حقّ يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم.

ـ والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته. لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدّل وغيّر.

ـ وأنّ الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح. يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها، فيكون بها النقص، وبها الزيادة. ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

ـ وأنّه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

ـ وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

ـ وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذّبة إلى يوم الدين.

ـ وأنّ المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ـ وأنّ على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربّهم.

- وأنّ ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه.

- وأنّ خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ، وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم.

- وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديّون؛ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

- وأنْ لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر. والإمساك عمّا شجر بينهم. وأنّهم أحقّ الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظنّ بهم أحسن المذاهب.

- والطاعة لأئمة المسلمين، من ولاة أمورهم وعلمائهم.

- واتباع السلف الصالح، واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم.

- وترك المراء والجدال في الدين.

- ترك كلّ ما أحدثه المُحْدِثون.

وصلّى الله على سيدنا محمّد نبيّه، وعلى آله وأزواجه وذريّته، وسلّم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلّ على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً أبداً

[مقدمة الشارح]

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم الأوحد العلامة الشهير الحافظ المفتي الخطيب القاضي؛ أبو العباس أحمد بن الشيخ الفقيه العالم أبي عبد الله محمد بن عبد الله القلشاني، أبقى الله بركته، مستعيناً بالله وهو خير معين[1]:

الحمد لله الذي ابتدأنا بالنّعم قبل سؤالها، وأوجدنا من العدم، وعرّفنا عوارف فضله وسوابغ مننه وطوله، فأفعم[2] سجال نوالها، وصوّرنا في الأرحام بباهر قدرته وبديع حكمته، بأحسن الصّور وأبدعها على اختلاف أشكالها. وأبرزنا من ظلمات الأحشاء إلى متّسع الفضاء ورائق نسيم الهواء، وذلك من أعظم شاهد لمقام الرّبوبيّة بعليّ جلالها، وسعة رحمتها وكمال فضلها وإفضالها. ويسّر أرزاقنا وبسطها وعرّفنا بإلهامه في المهد كيفيّة التقام الثدي، فما أعظمها من نعم يقصر الوصف عن ضبط كمالها، والقلب واللّسان وسائر الجوارح عن القيام بشكرها، ولو استغرقت في العبادة مسافة العمر سائر أعمالها. ونبّهنا لمعرفته بما أظهر من آثار صنعته، الشّاهدة بوجوده وحياته وعلمه وقدرته وإرادته ووحدانيّته، شهادة قاطعة ناطقة في ذلك بلسان حالها الأفصح من لسان مقالها. رفع السّماء بغير عمد وزيّنها بزينة الكواكب، وخلق الشّمس والقمر عبرة لمن اعتبر في طلوعها وغروبها وزوالها، شاهدة لمدبّرها بعظيم سلطانه وكبير شأنه، وأنّها مقهورة بعليّ أمره في سيرها وانتقالها، مقصورة في مطالعها ومغاربها أن تتعدّى في مسيرها إلى غير جنوبها وشمالها.

---

(١) هذه الفقرة انفردت بذكرها نسخة ٣. (٢) سقط من ١: (فأفعم).

وبسط الأرض وفجّرها بالأنهار وأنبت فيها ما به القوام والتفكّه من الزّرع والثّمار على ساق، وفي الأشجار تتفيّيءُ ظلالها، وجعل منها أغذية وأدوية متكّثرة، تتخلّف عند تعذّر بعضها بأبدالها، فسبحانه من قاهر فوق عباده، قادر على ما يشاء، يخلق ما يشاء ويختار، له العزّة والاقتدار، ولا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب.

نحمده سبحانه على ما أنعم علينا من جزيل النّعم، ونشكره جلّ اسمه على ما أفاض علينا من بحار الجود والكرم، شكر معترف بالتّقصير، شاهداً لخالقه تعالى بالوحدانيّة والاقتدار[١] والتّدبير، شهادة ثابتة بحول الله تعالى وقوّته، مستعيذاً به تعالى من تبدّلها وانتقالها؛ فننال ببركتها إن شاء الله تعالى أعالي الدّرجات ورفيع المقامات، والأمن يوم الفزع الأكبر عند ارتجاف الأرض بزلزالها، وظهور عرصات القيامة وأهوالها، وأخذ كلّ نفس صحيفتها بيمينها أو شمالها.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أنّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، سراج الهداية وخاتم الرّسالة ومحلّ كمالها، المبعوث إلى الأحمر والأسود بالحق بشيراً ونذيراً، لينقذ الأمم من كفرها وضلالها، وقبيح مذهبها وسيّء أفعالها[٢]، بالآيات البيّنات والمعجزات الباهرات، فاهتدت بهدى الله تعالى وخلقه واختراعه أمم سبقت لها السّعادة فأنشطت من عقالها. واشتملت رسالته ﷺ على توحيد الله تعالى وعبادته، وبيّن للأمّة كيفيّة عبادتها، من طهارتها وصلاتها وزكاتها وصيامها وحجّها، وصفة إحرامها بالحجّ وَإِهْلَالِهَا، والتقرّب بالنّوافل، ورغّب فيها، حثّاً لأمّته على الزّيادة في فضائل أعمالها، لتجدها عند الله تعالى محضرة وافية يوم عرضها وتسآلها، وأوضح أحكام الضّحايا والذّبائح والعقيقة والصّيد، حسبما نقله ثقات الأئمّة الأثبات من حملة علم الشّريعة وأعلام رجالها، وأكّد أمر الجهاد على الأمّة أن تبذل في ذات الله سبحانه نفيس نفوسها وأموالها.

---

(١) سقط من ٢: (والاقتدار).

(٢) في ١: (ومعي انتحالها).

وقرّر في الأيمان والنّذور ما هو مدوّن مسطور، من كفّارة ووفاء بنذر طاعة، وإبطال ما هو بضدّها من ضلالها.

وبيّن شروط صحّة عقد عصمة النّكاح، وما يكون سبباً لاختلافها وانفصالها؛ وفي البياعات والمعاملات ما فرّق بين حلالها وحرامها؛ وفي الأقضية والشّهادات والجراح والدّيات، وغير ذلك من الأحكام والحدود، ما أخرج به القضايا عن حير إشكالها؛ وفي الآداب الشرعيّات والأخلاق الزّاكيات المرضيّات، ما تكسب به النّفوس طهارة قدسيّة تزكو بها في حالها ومآلها[1]، حتّى استنارت معالم الشّريعة المحمّدية، وتمهّدت أصولها وفروعها فيما يرجع لعقائد الأمّة وأقوالها وأفعالها.

وتركها ﷺ بيضاء واضحة نقيّة على أكمل نظامها، وأبلغ[2] أحكامها، وأرفع[3] أحوالها.

وختمت بأفخم[4] كلامها وأفخر كمالها، قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

فالحمد لله على نعم كماله، وعلى جميع ما أسبغه علينا من نعمه وإفضاله؛ وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً[5].

أمّا بعد؛ فإنّ الكتاب المبارك الشّهير بـ «الرّسالة»، رسالة الشّيخ الإمام العالم الشّهير الصّالح، أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد رضي الله عنه، لمّا عظم شأنها وجلّ بالنّفع والبركة والقبول مكانها؛ اشتهرت بركاتها اشتهار النّهار، وشاعت في جميع الأقطار، وتلقّاها النّاس بالقبول في سائر الأعصار، وظهرت بركتها ويمنها على من تهمّم بها من الصّغار والكبار. ولهذا يقال: إن من حفظها واعتنى بها وهبه الله تعالى ثلاثاً أو واحدة من الثّلاثة: العلم، والصّلاح، والمال الطيّب. لم تسمح القرائح بمثالها، ولم ينسج ناسج على منوالها،

(١) في ٢: (وضلالها).
(٢) في ١ و٢: (بيان).
(٣) في ١ و٢: (رفيع).
(٤) في ١: (بأفخر) وفي ٢: (بإفهام).
(٥) سقط من ١: (فالحمد لله... تسليماً).

وكثرت بسبب ذلك الأوضاع عليها، فبعض الشّارحين سلك مسلك الإطناب والإسهاب، كالقاضي أبي محمّد عبد الوهاب[1]؛ وبعضهم كابن الفخّار[2] سلك مسلك الاقتصار والاقتضاب[3]، وكلّ إن شاء الله على صواب.

استخرت الله سبحانه في جمع ما لا يُخِل ولا يُمَلّ من كلام الشرّاح وأشياخ المذهب، ممّا يناسب مسائلها ويحلّ بعض مشكلاتها، مستعيناً بالله في ذلك ومتوكّلاً عليه، وما توفيقي إلّا بالله العلي العظيم[4]، عليه توكّلت وإليه أنيب.

أصل: (الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه، وما يسّر له من رزقه).

[معنى الحمد]:

شرح: افتتح الشّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالحمد لله، إذ هو فاتحة كتاب الله الكريم

---

(١) أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، الفقيه المالكي، الحافظ الحجة، النظار المتفنن، الأديب الشاعر، من أعيان علماء الإسلام. له تآليف عديدة في الفقه وأصوله، وفي العقيدة، ومنها شرحه على عقيدة الرسالة. توفي بمصر سنة ٤٢٢هـ «شجرة النور» (١٠٤).

(٢) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن خلف الأنصاري المالكي، المعروف بابن الفخار، العالم النظار الفقيه الحافظ المحدث المسند العارف بالرجال مع معرفته بالشروط. توفي بمراكش سنة ٥٩٠هـ «شجرة النور» (١٥٩).

(٣) في ١: (الانتصاف).

(٤) سقط من ١: (العلي العظيم).

الحديث بلفظ «أقطع» أخرجه ابن ماجه في النكاح: باب خطبة النكاح، وابن حبان: باب ما جاء في الابتداء بحمد الله تعالى، والدارقطني في الصلاة: باب وبلفظ: «أجذم» أخرجه الطبراني في الكبير «مجمع الزوائد في الصلاة»: باب الخطبة والقراءة فيها. وبلفظ: «أبتر» أخرجه الرهاوي في الأربعين «جامع الأحاديث والمراسيل» (٢/ ٢٥٢)، و«الأذكار» (ص١٨٧). قال النووي: «هو حديث حسن». وأخرجه بلفظ: «كل كلام أو أمر ذي بال، لا يفتح بذكر الله ﷻ فهو أبتر، أو قال: أقطع» أحمد في «مسند المكثرين». وأبو داود في «الأدب»: باب الهدي في الكلام، ولفظه عنده: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدُ لله فَهُوَ أَجْذَمُ».

وخاتمة دعاء المؤمنين في جنّات النّعيم، وللوارد من قوله ﷺ: «كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم» ويروى: «أقطع» و«أبتر».

والحمد: الثّناء على المحمود بجميل صفاته وأفعاله. والشّكر: الثّناء عليه بإنعامه. فبينهما عموم وخصوص؛ قيل: مطلقاً، وقيل: من وجه.

وإنّ الحمد لا يكون إلّا باللسان، والشّكر[1] باللسان وغيره، قال الشّاعر:

أفادتكم النّعماء منّي ثلاثة ... يدي ولساني والضّمير المحجّبا

والحمد والمدح بمعنًى[2]. ويفترقان في أنّ الحمد خاصّ بأولي العلم، والمدح يكون لأولي العلم وغيرهم.

واختلف في الألف واللّام في الحمد، هل لاستغراق الجنس وهو الأظهر، أو للعهد. ووجه الأوّل أنّ الحمد لمّا كان يقع[3] على قسمين قديم وحادث:

- فالقديم حمده تعالى لنفسه بكلامه القديم، المنزّه عن التّأخير والتّقديم؛ وحَمْدُهُ من حَمِدَ من عباده كـ: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] و﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[4] [ص: ٤٤] فأثنى تارة على نفسه وتارة على عباده.

- والحادث حمد المخلوقين ربّهم.

فالقديم صفته ووصفه، والحادث خلقه وملكه. فالحمد لله كلّه قديماً كان أو حادثاً له تعالى. فثبت أنّ الألف واللام للاستغراق، وأيضاً فلمّا كانت أصول النّعم وفروعها منه سبحانه استحقّ جميع المحامد.

وعن الشّيخ العارف أبي العبّاس المرسي رضي الله عنه ونفع به أنّه قال: «الذي أقول به إنّها عهديّة، وذلك أن الله تعالى لما علم عجز خلقه[5] عن كنه حمده، حمد نفسه في أزله، فلمّا خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده».

---

(١) سقط من ٢: (الثناء... والشكر).
(٢) سقط من ٢: (بمعنى).
(٣) في ١: (يعقل).
(٤) سقط من ١: (ونعم العبد).
(٥) سقط من ١: (أن الله... خلقه).

[معنى اسم الجلالة]:

قوله: (لله).

«الله» اسم واجب الوجود سبحانه، خالق الخلق، وباسط الرّزق، لا إله إلّا هو. وهذا الاسم الكريم أشهر أسماء الربّ وأعلاها محلّا في الذّكر. ولذلك جعل أمام سائر الأسماء، وخصّت به كلمة الإخلاص، ووقعت به الشّهادة، فصار شعار الإسلام. وهو اسم ممنوع لم يتسمّ به أحد، قد قبض الله عنه الألسن فلم يُدْعَ به شيء سواه. جاء في تفسير ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] هل تعرف أحداً تسمّى «الله» سوى الله(١)؟. قال أبو القاسم القشيري(٢): «كل اسم من أسمائه تعالى يصلح للتخلّق به إلّا هذا الاسم الكريم، فإنّه للتعلّق دون التخلّق».

واختلف هل هو اسم الله الأعظم أوْ لا؟ وذلك على القول المشهور بصحّة التّفضيل بين أسمائه تعالى. قالوا: ولا يمتنع أن يفضّل الله تعالى كلمة من الذّكر على كلمة. ويرجع التّفضيل لكثرة الثّواب، كقوله ﷺ لأبي بن كعب: «أيّ آية معك أعظم؟» الحديث(٣). وفيه أنها آية الكرسي، لاشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى. ولا مذكور أعظم من ربّ العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار.

---

(١) سقط من ١ و٢: (سوى الله).

(٢) عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، أبو القاسم، زين الإسلام، شيخ خراسان في عصره زهداً وعلماً بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها. وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه. من كتبه: «التيسير في التفسير» و«لطائف الإشارات» و«الرسالة القشيرية» توفي سنة ٤٦٥هـ «الأعلام» (٤/ ٥٧).

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين: باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَك أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذَرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ».

قيل: خصوصيّتها أنّها اشتملت على سبعة عشر اسماً لله تعالى ظاهراً ومضمراً، وهي خمسون كلمة وسبعة عشر، ثلثها بتقريب، والثّلث كثير، فصارت كأنّها أسماء الله تعالى، فلهذا قرّر فيها أنْها أعظم آية في كتاب الله تعالى. فإذا تقرّر صحّة التفضيل فأسماء الله تعالى كلّها عظيمة، ولا يمتنع أن يكون فيها الأفضل[1] الأعظم. فقالت طائفة: إنّه هذا الاسم الكريم. قيل لهم: فما بال الدّاعي به قد لا يستجاب له، وقال ﷺ: «إنّه إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[2]؟ قالوا: الدّعاء به مشروط بالعلم والمراقبة. وقالت طائفة: اسم الله الأعظم مبهم كليلة القدر.

وأكثر المحقّقين على أنّه في آية الكرسي، إذ هي أعظم آية للحديث، فلو كان في غيرها لم يصدق فيها أنّها أعظم آية، ومحال ألّا يكون في كتاب الله وفيه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

واختلف في لفظه، فقيل: مشتقّ، وقيل: لا. وعن الخليل فيه روايتان.

وعلى اشتقاقه قيل: من أله الرّجل إلى الرّجل يأله إليه، إذا فزع إليه من أمر نزل به، فأَلَهَهُ أي فأجاره وأمّنه؛ والربّ سبحانه كلّ من خلقه يفزع في حاجته إليه، ويعوّل عند الحوادث والكوارث عليه، فسمّي إلهاً، كما يسمّى الرّجل إماماً إذا أمّ النّاس فأتمّوا به. ثمّ إنّه لمّا كان اسماً لعظيم[3] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أراد تفخيمه بالتّعريف الذي هو الألف واللام؛ لأنّهم أفردوه بهذا الاسم دون غيره، واستثقلوا الهمزة في كلمة يكثر استعمالهم إيّاها، والهمزة وسط الكلام شديدة فحذفوها فصار الاسم كما نزل به القرآن.

وقيل: أصله يأْلَهُ إذا تحيّر، إذ العقول تحار في عظمته وتعجز عن بلوغ كنه جلاله.

---

(١) سقط من ٢: (الأفضل).

(٢) أبو داود في الوتر، باب الدعاء؛ والترمذي: باب ما جاء في جامع الدعوات، وابن ماجه في الدعاء: باب اسم الله الأعظم.

(٣) في ٢: (اسمه العظيم).

وقيل: معناه المعبود من قولهم: أَلَهَ يأْلَهُ إلاهة، أي عبد يعبد عبادة، ومنه قراءة شاذة تؤثر عن ابن عبّاس «وَيَذَرَكَ وإِلاهَتَكَ» أي وعبادتك. والتألّه التعبّد. إلى غير ذلك من الأقاويل.

قال الخطابي[١]: «وأعجب الأقاويل إليّ قول من ذهب إلى أنّه اسم علم ليس بمشتقّ».

ولا خلاف بين النّحاة أنّه أعرف المعارف وإن كان علماً، وهو مستثنى من الخلاف أيّهما أعرف العلم أو الضّمير[٢]. ورئي سيبويه بعد وفاته فأخبر أنّه رأى خيراً كثيراً فقيل له: بم؟ قال: «بقولي إنّ اسم الله أعرف المعارف».

[نعم الله على الإنسان]:

قوله: (الذي ابتدأ الإنسان بنعمته).

المبتدئ هو الله تعالى، والمبتدأ به إن كان الإنسان فحقّه أن يقول بقدرته، وإن كانت النّعمة ـ وهو الظاهر ـ فالباء[٣] للمصاحبة؛ أي أوّل شيء صحب الإنسان في زمن وجوده[٤] نعمة خالقِه عليه.

وجوّزوا أن تكون الباء سببيّة أي أوجده بسبب أن ينعم عليه.

والنّعمة على قسمين: نعمة جلب ونعمة دفع، وكلّ منهما نوعان: ديني ودنيوي. فالدّيني خاصّ بالمؤمنين، والدنيويّ عامّ بجميع الخلائق، فالجنس كلّه منعم عليه.

---

(١) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، أبو سليمان: فقيه محدث، من أهل بست، من بلاد كابل، من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب). له «معالم السنن» في شرح سنن أبي داود، وغيره من المصنفات، توفي سنة ٣٨٨هـ. انظر: «الأعلام» (٢/ ٢٧٣).

(٢) في ٢: (المضمر).

(٣) سقط من ١: (فالباء).

(٤) في ٢: (وجود زمانه).

وقال الأشعري[1]: «لا يقال الله أنعم[2] على الكافر نعمة لا دينيّة ولا دنيويّة».

والمؤلّف ظاهر كلامه أنّه على المذهب الأوّل وهو المشهور، وذلك أنّه لمّا ذكر النّعم الدنيويّة عمّ الجنس، والنّعم الدينيّة خصّصها بالمؤمنين، لقوله بعد هذا «فهدى من وفّقه بفضله» إلى آخر كلامه.

والهاء في «بنعمته» عائدة على الله تعالى إذ هو خالقها، ويحتمل عودها على الإنسان إذ هي مخلوقة له.

قوله: (وصوّره في الأرحام بحكمته).

سمّي الرّحم رحماً، وهو موضع وقوع النّطفة، لانعطافه وحنوّه على ما فيه.

والحكمة: العلم ووضع الشيء في محلّه.

قوله: (وأبرزه إلى رفقه وما يسّر له من رزقه).

أبرزه[3] أي أخرجه من ضيق إلى سعة. ويسمّى الموضع الواسع البَراز ـ بفتح الباء ـ[4] الفضاء الواسع، قاله الجوهري[5].

---

(١) في ٢: (المعتزلة) وهو خطأ. والأشعري هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم، ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ. وهو من البصرة ونزل بغداد، الإمام الفقيه المتكلم الذاب عن الدين، صنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وغير ذلك. وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذب عن الدين وبسط الحجج والأدلة في نصر الملّة فسمّوا باسمه، وقد أثنى عليه أبو محمد بن أبي زيد وغيره من أئمة المسلمين. توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ أو ٣٣٤هـ «ترتيب المدارك» (٥/ ٢٤ ـ ٣٠).

(٢) سقط من ٢: (أنعم).

(٣) سقط من ١: (أبرزه).

(٤) سقط من ٢: (بفتح الباء).

(٥) سقط من ٢: (قاله الجوهري)، إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر. لغوي، من الأئمّة. وأشهر كتبه «الصحاح». انظر: «الأعلام» (١/ ٣١٣).

وأوّل رفقه به في بطن أمّه، أن جعل وجهه إلى ظهرها لئلّا يجري على وجهه حرّ[1] الطّعام والشّراب، وجعل رأسه بين ركبتيه ليتنفّس في فراغ، وجعل غذاءه واصلاً إليه من سرّته.

ومن رفقه به بعد خروجه، أن جعل حجر أمّه له وطاء وثديها سقاء، وجعل لبنها بين الملوحة والعذوبة بارداً في الصّيف حارّاً في الشّتاء، يخرج من عرقين يتغذّى من أحدهما ويشرب من الآخر. وخلق في قلوب العباد الشّفقة عليه إلى غير ذلك ممّا لا يعلمه إلّا الله ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨].

ويسّر أي هيّأ. ومذهب أهل السنّة أنّ جميع ما يتغذّى به المكلّف من حلال أو حرام فهو رزقه، وغيرهم يخصّ الرزق بالحلال.

أصل: (وعلّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً. ونبّهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخِيرة من خلقه).

[المصادر التي يحصل بها العلم للإنسان]:

شرح: ذكر رحمه الله تعالى من الربّ ﷻ على عباده في أصل نشأتهم، وتنقّلهم من طور إلى طور، حتّى يصير هذا البشر يعلم المصالح فيقصدها والمضارّ فيجتنبها.

وأفضل العلوم التي منّ الله تعالى بها على العباد، العلم بوجوده تعالى ووحدانيّته، وما يجب له سبحانه، وما يستحيل عليه، وما يلتحق بذلك من علوم الشّرع.

قوله: (ونبّهه بآثار صنعته).

أي أيقظه من نوم الغفلة والجهالة. وهذا التّنبيه ورد به كتاب الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات. فمن وفّقه الله تعالى لتأمّل مضمون

---

(١) سقط من ٢: (حر).

هذه الآيات، وأدار نظره في ملكوت الأرضين والسماوات وعجائب المخلوقات، علم أنّ هذا الأمر العجيب والتّرتيب المحكم الغريب لا يستغني عن صانع، وهذا مدرك بالبديهة، ولله درّ الشّاعر حيث يقول[1]:

أيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كلّ تحريكة عليه ... وتسكينة شاهد
وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد

فالكائنات مرآة الصّفات وما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، قال الله العظيم: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، إلى غير ذلك. ولبعض العارفين: «ما بيَّنتُ لك المعالم إلّا لتراها بعين من لا يراها؛ فارق عنها رقيّ من ليس يرضى حاله دون أن يرى مولاها».

وفّقنا الله توفيق العارفين، وهدانا بفضله صراطه المستقيم.

وقوله: (وأعذر إليه على ألسنة المرسلين).

الإعذار: المبالغة في طلب العذر، ومنه إعذار الحاكم، وقولهم: قد أعذر من أنذر، أي بالغ إليك بالمعذرة من تقدّم إليك بإنذار، قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

قوله: (على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه).

الألسنة: جمع لسان وهو ترجمان القلب يخبر عن كلّ ما فيه، قال الشاعر، هو الأخطل:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنّما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقد يذكّر ويؤنّث، ويراد به تارة الجارحة وتارة اللغة والكلام.

والمرسلين: جمع رسول، وهو المأمور بتبليغ الوحي إلى العباد.

(١) سقط من ١: (حيث يقول).

والمرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر، كلّهم من العجم إلّا خمسة: محمّد وإسماعيل وصالح وشعيب وهود ﷺ.

والخيرة: ـ بفتح الياء وتسكينها ـ المختارون للتبليغ.

قوله: (من خلقه).

يشمل الملائكة فيشعر بتفضيل الأنبياء على الملائكة، وهو المختار عند أهل الحقّ. وفي الكلام إشارة إلى أنّه لا حكم إلّا لما جاءت به الرّسل، وأنّ العقل لا يحسّن ولا يقبّح.

أصل: (فهدى من وفّقه بفضله، وأضلّ من خذله بعدله؛ ويسّر المؤمنين لليسرى. وشرح صدورهم للذّكرى؛ فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين؛ وتعلّموا ما علّمهم، ووقفوا عندما حدّ لهم، واستغنوا بما أحلّ لهم عمّا حرّم عليهم).

[معنى الهداية والضلال]:

شرح: الهداية تطلق ويراد بها خلق المعرفة في القلوب، وهي التي خصّ الله تعالى بها من شاء من عباده، وهي التي قصد المؤلّف.

وتطلق ويراد بها الدّعاء والإرشاد مثل ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] بمعنى تدعو، وهي لعموم الخلق.

وتطلق ويراد بها البيان كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣] أي بيّنا له.

فالهداية الخاصّة هي خلق القدرة مع المقدور في محلّ العبد على موافقة أمر الربّ، فهذا هو التوفيق[1].

والضّلال عبارة عن خلق القدرة مع المقدور في محلّ العبد على مخالفة أمر الربّ، فهذا هو الخذلان والعياذ بالله تعالى.

---

(١) سقط من ١: (فهذا هو التوفيق).

فقولنا: «خلق القدرة» ليكون العبد مستطيعاً متمكّناً، فيخرج بذلك عن مذهب الجبريّة.

وقولنا: «مع المقدور» ليكون مقارناً لها، فينتفي أثرها ويبقى لها تعلّق الكسب، فيخرج بذلك عن مذهب المعتزلة.

وقولنا: «في محلّ العبد» لأنّ قدرته لا تعلّق لها بالخارج عن محلّه، فكسبه لا يعدو محلّه.

وقولنا: «على موافقة أمر الربّ» لأنّ الأمر يكون تارة بما يريده الآمر، وتارة بما لا يريده، كأمره ﷻ الملائكة بالسّجود لآدم فسجدوا لإرادته وقوع ذلك منهم، وأمر إبليس بذلك ولم يرد آمره[1] وقوعه فلم يقع.

فإذا تقرّر هذا، علمنا أنّ هداية المهتدي وسلوكه سبيل الخير إنّما هو بفضل الله تعالى، إذ لا يجب عليه للعبد شيء.

وضدّ ذلك من الضّلال والخذلان منه عدل، إذ هو المالك لجميع الأشياء، ولا حجر عليه فيها.

وما يقوله المعتزلة من أنّه سبحانه لا يضلّ، وإنّه يجب عليه رعاية الصّلاح والأصلح[2] فباطل، ولا يجب على الله شيء، يفعل في ملكه ما يريد، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون.

وممّا يذكر هنا في إبطال رعاية الأصلح ما قرّره الغزالي[3] ﷺ من فرض مناظرة في الآخرة، ويقال: إنّها جرت بين الشيخ أبي الحسن الأشعري والجبائي المعتزلي[4] في المسألة، في صبيّ مات مسلماً، وبالغ مات مسلماً،

---

(١) سقط من ٢: (آمره).

(٢) سقط من ٢: (والأصلح).

(٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام، الإمام الشهير، صاحب التصانيف في الفقه والأصول والكلام والتصوف. ولد سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ. «الأعلام» (٧/ ٢٤٧).

(٤) سقط من ١: (من فرض... المعتزلي). محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي، أبو علي، من أئمة المعتزلة، وإليه نسبة الطائفة الجبائية. له مقالات وآراء انفرد بها =

أنّ الله تعالى يزيد في درجات البالغ لزيادته بالطّاعات بعد البلوغ. ويجب عليه ذلك عند المعتزلة. فلو قال الصبيّ: لم رفعت منزلته على منزلتي، فيقول: لأنّه بلغ واجتهد في الطّاعة، فيقول الصبيّ: أنت أمتّني في الصّبا، وكان يجب أن تديم حياتي حتّى أبلغ فأجتهد، فيقول الله تعالى: إنّي علمت أنّك لو بلغت لأشركت أو عصيت، فكان الأصلح لك الموت في الصّبا. هذا عذر المعتزلة عن الله تعالى، فعند ذلك ينادي الكفّار من دركات لظى: أما علمت أنّا إذا بلغنا أشركنا، فهلّا أمتّنا في الصّبا كما فعلت بالصبيّ، فبم يجيب عن ذلك؟ وهل يجب عند هذا إلّا القطع بأنّ الأمور الإلهيّة تتعالى بحكم الجلال أن توزن بميزان أهل الاعتزال.

وذكر القرافي[1] في كتابه المسمّى بـ «الانتقاد في الاعتقاد» أنّها جرت بين الأشعري والجبّائي، حتّى إذا انقطع الجبّائي ولم يجد جواباً، فقال للشّيخ أبي الحسن: «أبك جنون؟» فقال له الشيخ أبو الحسن ﷺ: «بل وقف حمار الشّيخ في العقبة، فسبحان من لا يكون في ملكه إلّا ما أراد».

قوله: (ويسّر).

أي سهّل وهوّن على المؤمنين الطّاعات حتّى كانت في حقّهم أيسر الأمور، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ﴾ الآية [الحجرات: ٧]. وقيل في اليسرى: طريق الجنّة. وقيل: فعليه يكون معنى يسّر هيّأ.

قوله: (وشرح صدورهم للذكرى).

شرح: معناه فتح ووسّع.

والصّدور: المراد بها هنا القلوب من مجاز التّعبير عن الشيء بمحلّه أو بمجاوره.

= في مذهب المعتزلة. نسبته إلى جبى، قرية من قرى البصرة. له تفسير. توفي سنة ٣٠٣هـ. «الأعلام» (٦/ ٢٥٦).

(١) أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، القرافي، من علماء المالكية بمصر، له مصنفات هامة في الفقه والأصول والقواعد وعلم الكلام. توفي سنة ٦٨٤هـ بمصر «الديباج» (١/ ٢٣٦).

والذّكرى: مصدر الموعظة، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

قوله: (فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين) إلى آخره.

أي هؤلاء الذين نوّر الله قلوبهم لقبول ما جاء به النبيّ ﷺ، وقع منهم الإيمان الذي هو التّصديق بالقلب والنّطق باللسان، فصدّقوا بوجود الله تعالى ووحدانيته، وبما يجب الإيمان به، فحصل منهم الإيمان نطقاً واعتقاداً، وشهد لهم العمل الصّالح الموافق للكتاب والسنّة بكمال إيمانهم، لوقوفهم عند الأوامر والنّواهي، وقبولهم ذلك بالتّسليم والانقياد.

ولأجل ذلك وقفوا عندما حدّ لهم، واستغنوا بما أحلّ لهم عمّا حرّم عليهم، فمن علامات صدق الإيمان وكماله استغناء الإنسان بالحلال عن الحرام، ولهذا يروى عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه نظر إلى المصلّين فقال: «لا يغرّني كثرة رفع أحدكم رأسه وخفضه، ما الدّين إلّا الورع في دين الله، والكفّ عن محارم الله، والعمل بحلال الله عن حرامه».

قوله: (بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين).

قدّم النّطق على الإخلاص، ولا يصحّ إلّا به، من حيث إنّ اللسان ترجمان القلب، والمترجِم مقدّم بين يدي المترجَم عنه. وأيضاً فالنّطق ينتفع به في الدّنيا المتقدّمة وجوداً عن الآخرة.

قوله: (وتعلّموا ما علّمهم) إلى آخره.

إشارة إلى الثّناء على من لم يتعلّم من العلوم إلّا الشرعيّة المأذون في تعليمها، وباقي كلام الشّيخ ظاهر.

أصل: (أمّا بعد، أعاننا الله وإيّاك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الدّيانة، ممّا تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتّصل بالواجب من ذلك من السّنن من مؤكّدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته. مع ما

سهّل سبيلَ ما أشكل من ذلك، من تفسير الرّاسخين، وبيان المتفقّهين. لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلّمهم حروف القرآن؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته. فأجبتك إلى ذلك، لِمَا رجوته لنفسي ولك من ثواب من علّم دين الله أو دعا إليه).

[التعريف بابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة]:

شرح: كلمة **(أمّا بعد)** يراد بها التّنبيه على الفصل بين الكلام الأوّل والثّاني.

وقيل: هي فصل الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقوله: (أعاننا الله وإيّاك).

دعا لنفسه ولمن سأله التّأليف، وابتدأ بنفسه إذ هو الأدب الشرعي في الدّعاء. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ [الحشر: ١٠] إلى غير ذلك.

والمؤلّف: الشّيخ أبو محمد عبد الله بن عبد الرّحمٰن النّفزي القيرواني المشهور بالعلم والعمل، الشهير الذّكر، الكبير القدر.

ولد ﷺ عام ثلاثة عشر وثلاثمائة، وتوفي بمدينة القيروان عام ستّة وثمانين وثلاثمائة.

له تواليف عديدة كالنّوادر، ومختصر المدوّنة، وكتاب الاقتداء بأهل السنّة، والرّسالة، وغير ذلك.

أحد أشياخه أبو بكر بن اللبّاد[1]، وأجازه الشيخ أبو بكر الأبهري[2].

---

(١) أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح، يعرف بابن اللباد القيرواني. الحافظ المبرز الإمام الفقيه المالكي. توفي سنة ٣٣٣هـ «شجرة النور» (٨٤).

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري، الفقيه المالكي، المقرئ الحافظ النظار، إليه انتهت رئاسة المذهب ببغداد. له تصانيف في غاية الأهمية. توفي سنة ٣٧٥هـ «شجرة النور» (٩١).

وقد قدّمنا أنّ الرّسالة انتشرت وقبلت، يذكر أنّها بيعت منها نسخة في مجلس الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً.

وأوّل من شرحها القاضي عبد الوهاب، وكان رحمه الله ذا مال. فذكر أنّه بعث للقاضي عبد الوهاب حين بلغه إقلاله ألف دينار من الذّهب، وبعث لأبي القاسم بن شبلون[1] في مرضه خمسين ديناراً ذهباً، وجهّز ابنة الشيخ أبي الحسن بن القابسي[2] بأربعمائة دينار ذهباً، وفضائله رحمه الله كثيرة.

وذكر القاضي عياض أنّه أعقب ولدين أبا بكر وعمر. ولّي أبو بكر قضاء الجماعة بالقيروان. في أيّام قضائه كانت محنة التّونسي[3] على ما ذكره القاضي عياض في مداركه.

وأمّا سائل التّأليف فقيل: العابد محرز بن خلف[4] نفع الله به، وقيل: الشيخ أبو إسحاق السبائي[5]، والله أعلم.

---

(١) أبو القاسم عبد الخالق بن خلف بن سعيد بن شبلون، القيرواني. العالم الإمام الفقيه، وكان الاعتماد عليه بالقيروان في الفتوى بعد ابن أبي زيد. توفي سنة ٣٩١هـ. «شجرة النور» (٩٧).

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي القيرواني، فقيه أصولي محدّث متكلم. كان أعمى ومع ذلك كانت كتبه أصح كتب الحديث وأجودها ضبطاً. ولد سنة ٣٢٤هـ، وتوفي سنة ٤٠٣هـ بالقيروان «ترتيب المدارك» (٩٢).

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي، كان عالماً صالحاً متبتلاً، من علماء المذهب المالكي، من أهل الشورى بالقيروان، له شروح وتعاليق على المدونة وكتاب ابن المواز. توفي في حدود ٤٤٣هـ. «ترتيب المدارك» (٨/٥٨).

(٤) محرز بن خلف بن رزين البكري، من نسل أبي بكر الصديق، مؤدب تونسي، من كبار الزهاد. تهافت عليه الناس لسماع كلامه. كان في شبيبته يعلم القرآن بأريانة، وسكن مرسى الروم قرب القيروان، ثم استقر في مدينة تونس يقرئ القرآن والحديث والفقه. وإليه كتب ابن أبي زيد القيرواني رسالته الفقهية ليعتمدها في تعليم الأطفال. وهو الذي حرض على قتل العبيديين في تونس عام ٤٠٦هـ. توفي بتونس سنة ٤١٣هـ، وقد جاوز السبعين «الأعلام» (٥/ ٢٨٤).

(٥) في ١: (السبادي) وفي ٢: (العبادي) وما أثبتناه هو الصواب. أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي القيرواني، الإمام الفقيه، المشهور بالعلم والصلاح. توفي سنة ٣٥٦هـ «شجرة النور» (٩٤). وقد صحح ابن ناجي أن طالب تأليف الرسالة هو محرز بن =

قوله: (على رعاية ودائعه).

الرعاية: المراقبة والمحافظة، والمراد الاهتمام بالشّيء والقيام به.

والودائع: الجوارح التي أمرنا بحفظها من المحرّمات، كغضّ البصر وصون اللسان وحفظ الفروج؛ وما أودعنا من شرائعه الواجبات كالصّلاة. والزّكاة، فالأوّل للجوارح والثاني للفرائض. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٠] قال ابن عبّاس: «الفرائض».

والشرائع: جمع شريعة وهي الطّريقة، وشرائع الله تعالى أحكامه، وحفظها الإتيان بها على وجه الكمال، كحفظ الوضوء وما أشبه ذلك.

وقوله: (فإنّك سألتني) إلى آخره.

وهو بيان سبب التّأليف وفي البخاري في باب كتاب العلم وقال ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»[١].

والجملة: المسائل الكلّية. والاختصار: التعبير باللفظ القليل عن المعنى الكثير.

ويقال: إنّ الرسالة مشتملة على أربعة آلاف مسألة وأربعمائة حديث.

[أقسام الحكم الشرعي]:

و**(واجب أمور الديانة)** الفرائض.

والواجب اللزوم. وأفعال المكلّفين على خمسة أقسام: واجب، ومندوب، ومكروه، وحرام، ومباح.

فالواجب: ما ذمّ تاركه شرعاً.

والمندوب: ما رجح فعله على تركه شرعاً من غير ذمّ.

= خلف. انظر: «معالم الإيمان» (٣/ ١١١).

(١) في ١: (اكتبوا العلم ولو في كتف شاة) وهو تحريف. والحديث أخرجه البخاري في الديات: باب من قتل له قتيل، ومسلم في الحج: باب الحجّ.

والمكروه: ما رجح تركه على فعله شرعاً من غير ذمّ.

والحرام: ما ذمّ فاعله شرعاً.

والمباح: ما استوى طرفاه.

وهذه الأقسام الخمسة أقسام الحكم الشرعي الذي هو: «خطاب الله القديم المتعلّق بأفعال المكلّفين بالاقتضاء أو التّخيير».

واحترزنا بـ «القديم» عن نصوص أدلّة الحكم، فإنّها خطاب الله وليست حكماً، وهي محدثة بأفعال[1] المكلّفين من المتعلّق بالعباد.

وبـ «الاقتضاء» من الخبر.

والقيد الأخير ليندرج المباح.

والخطاب قسمان: خطاب تكليف وهي الخمسة؛ وخطاب وضع وهي نصب الأسباب والشّروط والموانع.

والسّبب: ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم، كوقت الصّلاة ونصاب الزّكاة.

والشّرط: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم من حيث هو شرط. وهو على أربعة:

- شرعي: كالطّهارة في الصّلاة والحول في الزّكاة.
- وعقلي: كالحياة مع العلم.
- وعادي: كالغذاء مع الحياة.
- ولغوي: وهو ما دخلت عليه «إن» أو ما تضمّن معنى «إن». وهو في الحقيقة سبب كقوله: إن دخلت الدّار فهي طالق، فيوجد الطّلاق بوجود الدّخول، وينتفي بانتفائه.

---

(١) سقط من ١: (بأفعال).

والمانع: ما يلزم من وجوده العدم، كالدّين في زكاة العين.

وقد يجتمع خطاب التّكليف وخطاب الوضع في الشّيء الواحد كالطّهارة؛ فمن حيث ورود الأمر بها هي خطاب تكليف، ومن حيث إنّها شرط في صحّة الصّلاة فهي خطاب وضع.

وخطاب التّكليف: يشترط فيه علم المكلّف وقدره كالصّلاة.

وخطاب الوضع: لا يشترط فيه ذلك كتضمين الصبيّ والمجنون، وهو معنى قول الفقهاء: العمد والخطأ في أموال النّاس سواء.

وقد يشترط في بعض الأسباب العلم، كإيجاب الزّنا للرجم، والقتل للقصاص.

والتّقديرات من خطاب الوضع، كإعطاء الموجود حكم المعدوم وبالعكس؛ كتقدير الماء للمسافر إذا احتاجه لعطشه معدوماً، وكذلك من معه نصاب وحال عليه الحول وعليه دين.

وأمّا الثّاني بتقدير ملك المقتول لديّته قبل موته، لقيام الدّليل أنّها تورث عنه.

وإنّما ذكرت هذا الفصل وإن كان من أصول الفقه لاحتياج الطّالب إليه.

والديانات: الطّاعات، من دان يدين إذا أطاع.

قوله: (ممّا تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح) إلى قوله: (وشيء من الآداب).

هذا بيان ما أراد أن يكتبه في الجملة.

ولمّا كان الصّادر على المكلّف لا يخلو إمّا أن يكون نطقاً بلسانه، أو اعتقاداً بقلبه، أو عملاً بجوارحه، ولا يخرج عنها؛ أراد أن تكون هذه الجملة مشتملة على حكم هذه الأقسام، ليأخذ المكلّف بحظّه من العلم في أحكام جميع أفعاله.

[أعمال القلوب]:

وقال بعضهم: أعمال القلوب ثمانية: العلم، والظنّ، والجهل، والشكّ، والفكر، والكلام النفسيّ، والنيّة، والاعتقاد وهو أعمّها.

قيل: وفيه تنبيه أنّ الأحكام إنّما هي متعلّقة بأفعال المكلّفين، وأنّ التّحليل والتّحريم ليس لمعنى في المحلّل أو المحرّم، ألا ترى أنّ الميتة محرّمة في زمان التوسعة، محلّلة في زمان المخمصة، فلو كان ذلك لمعنى فيها لاتحدّ الحكم وإلّا فلا.

والألسنة: تقدّمت.

والقلوب: جمع قلب، وهي الجارحة الصّنوبريّة الّتي في الجهة اليسرى من الصّدر. وسمّي قلباً لأنّ الله تعالى يقلبه إلى ما أراد بعد جزم العبد على خلاف ذلك، ولذلك كان ﷺ يقول: «لا ومقلّب القلوب»[1].

واعتقاد القلوب جزمها بالشّيء عند الذّاكر، فإن طابق ما في نفس الأمر فصحيح، وإلّا ففاسد.

والجوارح: الكواسب، أعضاء الإنسان الذي يكتسب بها.

[معنى السنّة والفضيلة والرغيبة والآداب]:

والاتّصال: اللحوق، وإنّما جعلت السنّة متّصلة بالواجب لاشتراكها في حقيقة الطلّب، وإن افترقا في أنّ الواجب لا خيرة للمكلّف في تركه بخلاف المندوب.

والسّنن: جمع سنّة وهي الطّريقة. وفي الاصطلاح المالكي: ما فعله النبيّ ﷺ وداوم عليه وأظهره في جماعة، ولم يدلّ دليل على وجوبه كالوتر والأضحية والجلسة الوسطى.

---

(١) أخرجه مالك في النذور والأيمان: باب جامع الأيمان، البخاري في القدر: باب يحول بين المرء وزوجه.

والفضيلة والرّغيبة: ما كان دون السنّة، إمّا لأنّه ﷺ لم يفعله في جماعة كركعتي الفجر على أحد القولين عندنا، أو لم يداوم عليه كصلاة الضّحى والنّوافل أتباع الفرائض.

والآداب: ما ذكره في «الجامع»[1] من أدب الأكل والشّرب واللباس وغير ذلك. قيل: الآداب على ثلاثة أقسام: طبيعي وكسبي وصوفي.

فالأوّل، ما يفطر عليه الإنسان في جبلّته من الخصال المحمودة، كالكرم وحسن الخلق والشّجاعة.

والثّاني، ما يكسبه بالحفظ والنّظر، وهو عبارة عن معرفة أربعة أشياء: النّحو واللغة والشّعر والخبر.

والثّالث، حفظ الحواس ومراعاة الأنفاس. ومراد المصنّف ما ذكره في «الجامع». والله أعلم.

قوله: (وَجُمل).

يروى بكسر اللام عطفاً على (من الآداب)، وبفتحها عطفاً على (جملة).

وأصول الفقه: هنا عبارة عن أمّهات المسائل.

وفنونه: ما يتفرّع منه ويتفنّن، جمع فنّ وهو الفرع.

والفقه في اللغة: الفهم، وفي الاصطلاح: «العلم بالأحكام الشّرعية الفرعيّة عن أدلّتها التفصيليّة بالاستدلال». وهذا مقرّر في كتب أصول الفقه.

[ترجمة الإمام مالك والكلام على مذهبه وطريقته]

قوله: (على مذهب مالك بن انس رحمه الله).

إنّما اختار مذهب الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر

---

(١) هو «كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك، لابن أبي زيد القيرواني».

الأصبحي ﷺ، لكونه إمام دار هجرة رسول الله ﷺ ومهبط الوحي، واعتماده على الكتاب والسنّة وعمل أهل المدينة، وهم أعلم النّاس بالنّاسخ والمنسوخ، إذ كانت الأحكام تتجدّد إلى وفاة الرّسول ﷺ؛ ولكونه ﷺ موصوفاً بكمال الإدراك[١] والفهم والإتقان، معروفاً بالعلم والدّيانة والاتباع، متّصفاً بالعقل والفضل والإصابة وتجنّب الابتداع. كان ﷺ عارفاً بطرق الأخبار وعلل الآثار، صحيح النقل والرّواية، مكين المعرفة والدّراية، فقيه عصره وعالم دهره ومصره.

لازم ابن هرمز[٢] خمس عشرة سنة من الغدو إلى الزّوال مع ملازمته لغيره. وفضائلة كثيرة، وهو المعني عند الأكثر بقوله ﷺ: «يوشك أن يضرب النّاس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة»[٣].

قال النووي[٤]: «أجمعت طوائف العلماء على إمامته وجلالته وعظيم سيادته، وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والتثبّت وتعظيم حديث رسول الله ﷺ». قال البخاري: «أصحّ الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ». قال بعضهم: «وتسمّى سلسلة الذّهب». وقال أبو منصور التّميمي[٥]: «أصحّها الشّافعي عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر عن

---

(١) في ١: (بالكمال والإدراك).

(٢) أبو داود عبد الرحمن بن هرمز، الأعرج، المدني. محدث، عالم بالأنساب والعربية. توفي ١١٧هـ. «تذكرة الحفاظ» (١/ ٨٥).

(٣) أخرجه بلفظ: «يُوشِكُ أنْ يَضرِبَ النَّاسُ أكْبَادَ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ» الترمذي في العلم: باب ما جاء في عالم المدينة، وقال: «حديث حسن».

(٤) أبو زكريا يحيى بن شرف الدين بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي، ثم الدمشقي، الشافعي، الحافظ، العلامة بالفقه والحديث. له مؤلفات مهمة في الفقه والحديث. توفي سنة ٦٧٦هـ بنوا قرية من قرى حوران بسورية. «الأعلام» (٨/ ١٤٩).

(٥) هو عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، أبو منصور. عالم من أئمة الأصول. كان صدر الإسلام في عصره، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان. كان يدرس سبعة =

رسول الله ﷺ». وقال أبو مصعب[1]: «كانوا يزدحمون على باب مالك بن أنس فيقتتلون على الباب من الزّحام، وكنّا نكون عند مالك فلا يكلّم هذا هذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا، والنّاس برؤوسهم هكذا من المهابة له». وفيه يقول القائل:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة ... والسّائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعزّ سلطان التّقى ... فهو المهاب وليس ذا سلطان

وممّا قال فيه ابن المبارك[2]:

صموت إذا ما الصّمت زيّن أهله ... وفتّاق أبكار الكلام المحتّم
وعى ما وعى القرآن من كلّ حكمة ... ونيطت له الآداب باللحم والدّم

ولأبي الفضل ابن النحويّ فيه:

إنّ الإمام الأصبحي من النّجوم الباهرات
حفظ الإله به الحديث وعدّه في الحافظات
وتصرّفت آراؤه في المبديات المبدعات
ومشى على الهدى الذي مشى عليه أخو الثّبات
طلب المعاني فاستوى فوق المعاني المشرفات
وتشرّقت أنواره نحو البلاد القاصيات

= عشر فنّاً. وكان ذا ثروة. له تصانيف هامّة، في علم الكلام وأصول الفقه والتفسير والفرق. توفي بأسفرايين سنة ٤٢٩هـ «الأعلام» (٤/ ٤٨).

(١) يوجد اثنان من أصحاب مالك بكنية أبي مصعب، أحدهما: مطرف بن عبد الله بن سليمان بن يسار الهلالي المدني، الثقة الأمين الفقيه المقدم الثبت، توفي سنة ٢٢٠هـ، والثاني: أحمد بن القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عوف الزهري، قاضي المدينة وعالمها الفقيه الثقة الثبت. توفي سنة ٢٤٢هـ. انظر: «شجرة النور» (٥٧).

(٢) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، الفقيه الإمام المتفق على جلالته علماً وعملاً وزهداً وثقة وأمانة، روى الموطأ عن مالك وبه تفقه، وعنه أخذ خلائق. ألف كتاب الرقائق. توفي سنة ١٨١هـ بمدينة على الفرات تعرف بهيت. «شجرة النور» (٥٨).

ومن كلام مالك رضي الله عنه: «العلم نفور لا يأنس إلّا بقلب تقيّ خاشع». وقال: «ليس العلم بكثرة الرّوايات، وإنّما العلم نور يضعه الله في القلوب»، وقال: «ينبغي للرّجل إذا خُوّلَ علماً وكان رأساً يشار إليه بالأصابع أن يضع التّراب على رأسه، ويعتب نفسه إذا خلا بها، ولا يفرح بالرّئاسة، فإنّه إذا اضطجع في قبره ووسّد التراب ساءه ذلك كلّه».

ومن قوله: «عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك إلى الآخرة فعله» وقال له رجل: «أوصني» فقال له: «إذا هممت بأمر من طاعة الله فلا تحبسه إن استطعت فواقاً حتّى تمضيه، فإنّك لا تأمن من الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك فإن استطعت ألّا تمضيه فواقاً فافعل لعلّ الله يحدث لك توبة، ولا تستحيي إذا دعيت لأمر ليس بحقّ[1] أن تقول قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وطهّر ثيابك وأنقها من معاصي الله، وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سفسف منها، فإنّ الله يحبّ معالي الأخلاق ويكره سفسافها، وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد أن لا تأتيك ساعة من ليل أو نهار إلّا ولسانك رطب من ذكر الله».

فَحِكَمُهُ كثيرة، وأحواله شريفة. أخذ عن أشياخ كثيرة. قال أبو القاسم الدولقي[2] في كتابه: «الرّسالة المصنّفة في سبيل السنّة المشرّقة»: «أخذ مالك عن تسعمائة شيخ، ثلاثمائة من التّابعين وستّمائة من تابعيهم، ممّن اختاره وارتضاه في دينه وفقهه وقيامه بحقّ الرّواية».

ولد رضي الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: أربع، وقيل: سنة سبع وتسعين.

وتوفّي صبيحة أربع عشرة من ربيع الأوّل سنة تسع وسبعين ومائة. وكانت وفاته يوم الأحد.

---

(١) في ١: (ليس محاورة).

(٢) هو الإمام أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولقي (ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات، في ترجمة الإمام مالك).

قال بكر بن عبد الله الصوّاف[١]: «دخلنا على مالك بن أنس في العشيّة التي قبض فيها، فقلنا: يا أبا عبد الله كيف تجدك؟ قال: «لا أدري كيف أقول لكم، إلا أنّكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن في حساب». ثمّ خرجنا حتّى أغمضناه. وقيل: «إنّه تشهّد، ثمّ قال: لله الأمر من قبل ومن بعد».

ورأى عمر بن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري، في الليلة التي مات فيها مالك قائلاً يقول:

لقد أصبح الإسلام زعزع ركنه ... غداة ثوى الهادي لدى ملحد القبر

إمام الهدى ما زال للعلم صائناً ... عليه سلام الله في آخر الدّهر

قال: «فانتبهت فكتبت البيتين عند السّراج، وإذا الصّارخة على مالك رَحِمَهُ اللهُ».

قال الشّافعي: «قالت لي عمتي ونحن بمكّة رأيت في هذه الليلة عجباً، قلت: وما هو؟ قالت: كأن قائلاً يقول: مات الليلة أعلم أهل الأرض، فحسبنا تلك الليلة فإذا هي ليلة وفاة مالك».

قال إبراهيم بن أبي يحيى: «نمت فرأيت الشّمس قد كسفت، وقد علت الأرض ظلمة حتّى إنّ النّاس لا ينظر بعضهم إلى بعض، فقلت لرجل في جنبي: أقامت القيامة؟» فقال: ولم لا تقوم وقد مات عالم الإسلام؟ قلت: «ومن هو؟» قال: مالك بن أنس. «فانتبهت وفزعت فإذا به قد مات رضي الله عنه».

قال ابن القاسم[٢]: «مات مالك رضي الله عنه عن مائة عمامة فضلاً عن سواها».

وقال ابن أبي أويس[٣]: «بيع ما في منزل مالك بعد وفاته: منصات

---

(١) الصحيح أنه: بكر بن سليم الصواف، ذكره الخطيب في الرواة عن مالك. انظر: «تهذيب التهذيب» (١/ ٣١٦).

(٢) عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي، المصري. الفقيه، صاحب الإمام مالك. كان عالماً زاهداً سخياً شجاعاً. توفي بمصر سنة ١٩١هـ. «الديباج» (١/ ٤٦٥).

(٣) هو إمّا إسماعيل بن أبي أويس، زوج ابنة الإمام مالك، الأمين الصدوق الفقيه =

وبسط ومخاد محشوّة بريش وغير ذلك، بنيف على خمسمائة دينار. وقيل: خلّف خمسمائة زوج نعل. وترك من النّاض ألفي دينار وثلاثمائة ونيف».

وكان ﷺ فيه من الزّهد والورع بالمكان، ولو كان يلبس الحسن من الثّياب ويأكل الطيّب من الطّعام، فليس ذلك بقادح في زهده ولا في ورعه. ولكلّ شيء وجه. وفضائله أكثر من أن تستقصى، وإنّما أشرنا إلى اليسير من أحواله وحكمه وسيرته على وجه التبرّك بذلك. نفعنا الله وإيّاكم به.

وكان القائم بمذهبه بعد وفاته جماعة من أصحابه، أشهرهم عبد الرحمٰن بن القاسم العتقي المصري رحمه الله، توفّي عام إحدى وتسعين ومائة، وعمره ستّون سنة. وأخذ عن ابن القاسم جماعة منهم مدوّن المدوّنة سحنون، واسمه عبد السّلام بن سعيد التنّوخي، توفّي رحمه الله عام أربعين ومائتين[1]، رحم الله الجميع ونفعنا ببركتهم.

قوله: (على مذهب مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته).

قيل: لفظان مترادفان. وقيل: مذهبه ما يفتي به، وطريقته ما يفعل في خاصّته، فقد يحمل على نفسه أشياء لا يفتي بها غيره.

ويحتمل أن يكون مراده بمذهبه ما صرّح به وأجاب فيه بنصّ محفوظ عنه، ومراده بطريقته ما لم يكن له فيه نصّ، لكن قواعد مذهبه تهدي إليه، أو أجاب فيه أتباعه على قواعده، والله أعلم.

= المحدث. توفي سنة ٢٢٦هـ. أو هو عبد الحميد بن أبي أويس، ابن أخت الإمام مالك، الفقيه الثقة الأمين الصدوق الثبت. توفي سنة ٢٠٢هـ. انظر: «شجرة النور» (٥٦).

(١) أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد التنوخي القيرواني. اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، الفقيه الحافظ العابد الورع الزاهد الإمام العالم. التقى ابن القاسم، وألف المدونة وراجعها عليه، وعليها المعقول في المذهب المالكي. توفي سنة ٢٣٤هـ. «شجرة النور» (٦٩).

[معنى التفسير والبيان]:

قوله: (مع ما سهل).

سهل الشّيء سهولة إذا تيسّر وقرب[1]. والسّبيل: الطّريق. والتّفسير: البيان والإيضاح، وقيل: إنّ التّفسير مغاير للبيان، وإنّه إنّما أضاف الشّيخ التّفسير للرّاسخين والبيان للمتفقّهين؛ لأنّ التّفسير أشرف من البيان، وذلك لأنّ التّفسير هو الكشف عن المراد من اللفظ؛ والبيان التّعبير[2] عن إظهار ذلك المعنى بعبارة بيّنة. والمزيّة للذي آثر المعنى دون المعبّر عنه.

والرّسوخ: الثّبوت. والرّاسخون الثّابتون في العلم، والمتفقّهون الفقهاء. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] ويريد ـ والله أعلم ـ بالمتفقّهين أصحاب مالك كابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم.

والفقه: إدراك الأشياء الخفيّة، والمراد به الفهم. يقال: فقِه ـ بكسر القاف ـ إذا فهِم ـ وبفتحها ـ إذا سبق غيره ـ وبضمّها ـ إذا صار الفقه له سجيّة، نقله ابن عطيّة في تفسيره[3].

[بيان سبب تأليف الرسالة]:

قوله: (لما رغبت).

هذا بيان للسّبب الحامل للسّائل على سؤاله تأليف الرّسالة، وهو رغبته في تعليمه للولدان، ولذلك كانت مختصرة تناسبهم.

والقرآن: اسم للكلام المنزّل على رسول الله ﷺ بأداء جبريل له عن الله تعالى.

---

(١) سقط من ٢: (وقرب).
(٢) في ١: (التفسير).
(٣) سقط من ٢: (في تفسيره) وابن عطية هو القاضي أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب، الفقيه، المحدث، المفسر، العالم. ألف كتاب «الوجيز في التفسير» أحسن فيه وأبدع. توفي سنة ٥٤٢هـ. «الأعلام» (١٢٩).

قوله: الـ (تعليم) في الحروف الدّالة على ذلك، وهو أحسن من قوله بعد هذا: (بالتكلّم بالقرآن).

قوله: (ما ترجى لهم بركته).

البركة[١]: كثرة الخير وزيادته، ومنه تبارك الله، فقيل: معناه تزايد خيره وتكاثر، وتزايد على كلّ شيء وتعالى في صفاته وأفعاله. وباقي كلام الشّيخ ظاهر.

أصل: (واعلم أنّ خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشرّ إليه. وأولى ما عُنِي به النّاصحون، ورغب في أجره الرّاغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الدّيانة وحدود الشّريعة، ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدّين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم؛ فإنّه روي أنّ تعليم الصّغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأنّ تعليم الشّيء في الصّغر كالنّقش في الحجر.

وقد مثّلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرّفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به).

[العناية بتعليم أولاد المسلمين معالم الديانة وحدود الشريعة]:

شرح: والمعنى أنّ خير القلوب وأفضلها وأكملها قلوب ملئت علماً وخيراً، فكانت للخير وعاء أي ظرفاً للخير. وشرّ القلوب ما كانت فيه النّفرة عن عبادة الله وطاعته، وامتلأت بالشّهوات.

والعلم مع العمل ينوّر القلب، والذنب[٢] يحدث الظّلمة فيه، ثمّ يصفو بالتّوبة الخالصة.

قوله: (وأرجى القلوب) إلى آخره.

لأنّه يقبل ما يرد عليه من الخير أحسن قبول إذ ليس في المحلّ مانع. قال الشّاعر:

---

(١) سقط من ٢: (والبركة).

(٢) في ١: (والظلم).

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

قوله: (وأولى ما عني به) إلى آخره.

أي أحق ما توجّهت إليه العناية وبذلت فيه النّصيحة والتمس منه الأجر، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين، وإيقاظهم إلى فهم قواعد الدّين، إذ لا مانع في قلوبهم يمنع من ذلك، فيرسخ فيها ما يجعل فيها، ويثبت فيتعوّدون الأعمال الصّالحات، وتسكن نفوسهم بالاعتقادات السّالمة، وتحيي قلوبهم بالعلوم النّافعة. وذلك من كمال النّصيحة لعباد الله تعالى. وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «الدّين النّصيحة» قالها ثلاثاً. قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولرسوله، ولأئمّة المسلمين، ولعامّتهم»[1]. فهذا من صحيح النّصح لعامّة المسلمين.

والرّياضة: الطّوع والانقياد.

قوله: (وما عليهم).

قيل: «ما» نافية، والمعنى يأباه ويحتمل أن تكون موصولة معطوفة على معالم وحدود، من عطف الخاصّ على العامّ.

وفي لفظ «عليهم» تجوّز باعتبار الحال، فإنّه لا تكليف عليهم قبل البلوغ، لكنّه باعتبار ما بعد البلوغ يصحّ. وقيل: جواب عن سؤال مقدّر، تقديره كيف يعلّم الصّغير مثل هذا ويؤمر به، وهو غير مكلّف؟ فتكون ما استفهاميّة أيْ: أيُّ شيء عليهم في ذلك؟ وأيّ مشقّة تلحقهم فيه، مع قيام فائدته وهو الرّسوخ في القلب والرّياضة وحصول شرف الدّنيا وعزّ الآخرة. ثمّ قد ورد في الشّرع ما يدلّ على صحّة تعليم الصّغار والحضّ على ذلك، لما ورد في تعليم الصّغار الحديث، وكذا إن تعليم الشّيء في الصّغر[2]، وكذا

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في الإيمان: باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»، ومسلم في الإيمان: باب إن الدين النصيحة، بدون لفظ: قالها ثلاثاً. وهي عند أحمد في مسند أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن الجعدي في مسنده: (١/١٦٢) بلفظ: «الحفظ في الصغر كالنقش =

أمرهم بالصّلاة لسبع سنين[1]، فكذا يعلموا المفروضات والمسنونات ليتمرّنوا عليها، لا أنّ ذلك على جهة التّكليف. والله أعلم.

[المراد بالغضب في حق الله تعالى وفي حق البشر]:

قوله: (يطفئ غضب الله).

اعلم أنّ الغضب في حقّ البشر عبارة عن غليان الدّم، واستشاطة في الطّبيعة، وهذه الحقيقة يلزمها في غالب العادة إمّا إرادة الانتقام من المغضوب عليه أو ذمّه؛ وإيقاع الانتقام به يرجع إلى صفة الفعل، فالغضب بمعنى غليان الدّم مستحيل على الله تعالى، فلا بدّ من صرف الغضب إلى لازم الحقيقة، إمّا إرادة الانتقام ممّن عصاه أو ذمّه، وهما راجعان إلى صفة الذّات، أَوْ بِمَعْنَى الانتقام منه، وهي صفة فعل فهو إمّا من صفات الذّات أو من صفات الفعل.

قال القاضي الباقلّاني[2]: «غضبه تعالى على من غضب عليه، ورضاه تعالى على من رضي عنه، هما إرادته لإثابة المرضيّ عنه وعقوبة المغضوب عليه، بمعنى يطفئ غضب الله أي النّار التي أعدّ الله لمن خالف أمره ونهيه؛ لأنّ من أراد الله تعذيبه أعدّ ناراً يعذّبه بها، فسميّ متعلق إرادته غضباً.

وإطفاء الغضب عنهم إمّا لأنّ تعليمهم يكون دليلاً على أنّهم لم يسبق لهم إلّا الخير، أو يطفئ الغضب المعدّ لهم فيما يستقبل بتقدير وجود المخالفة

= في الحجر»، وأخرجه الطبراني في الكبير بلفظ: «مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء» وفيه مروان بن سالم الشامي، ضعفه البخاري ومسلم. «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٥).

(١) حديث أمر الصبيان بالصلاة، أخرجه أبو داود في الصلاة: باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، والترمذي في الصلاة: باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، شيخ السنة ولسان الأمة، المتكلم على مذهب أهل السنة وأهل الحديث وطريقة الأشعري، انتهت إليه رئاسة المالكيين بالعراق. صنف التصانيف الكثيرة الشهيرة في علم الكلام وأصول الفقه. توفي سنة ٤٠٣هـ. «شجرة النور» (٩٢).

منهم أو عن آبائهم، وقد ورد أنّ الوالد ينتفع بتعليمه ولده كتاب الله تعالى، أو عن معلّميهم أو عن المجموع. وقد ورد: «لولا صبيان رضّع، وشيوخ ركّع، وبهائم رتّع، لصبّ عليكم العذاب صبّاً»[١].

قوله: (وقد مثّلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به).

قد قدّمنا أنّ الرّسالة يذكر أنّها مشتملة على أربعة آلاف مسألة، فالنّفع بها ظاهر؛ والعلم بذلك يحصّل الشّرف والدّيانة[٢]؛ لأنّ العلم أشرف ما يتزيّن به.

[فضل العلم والحضّ عليه]:

ولا بدّ من ذكر شيء في فضل العلم، والحضّ على تعلمه وتعليمه، على سبيل الاختصار. قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] فبدأ ﷻ بنفسه وثنّى بملائكته وثلّث بالعلماء. وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦]، قال ابن زيد: «بالعلم في الدنيا». قال مالك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] هو الفقه في الدين. وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين» والحديث في الموطّأ والصّحيحين[٣]؛ قال بعض العلماء هو غاية في بابه، ويدلّ على أنّ من لا

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسند أبي هريرة (١١/٥١١)، والبيهقي في «الاستسقاء»: باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان والعبيد، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مهلاً عن الله، مهلاً فإنه لولا شيوخ ركع، وشباب خشع، وأطفال رضع، وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً».

(٢) في ٢: (الزيادة).

(٣) أخرجه مالك في القدر: باب جامع ما جاء في أهل القدر، والبخاري في العلم: باب من يرد الله به خيراً يفقهه، ومسلم في الزكاة: باب النهي عن المسألة.

يتفقّه في الدّين لم يرد الله به خيراً، والدّين الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وفي حديث ابن عمر: «بني الإسلام على خمس» الحديث[١]. فالفقه في الدّين هو الفقه بهذه الخمس. وروي أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما جميع أعمال البرّ في الجهاد إلّا كنقطة في بحر؛ وما جميع أعمال البرّ والجهاد في طلب العلم إلّا كنقطة في بحر»[٢].

وعنه ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة. وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم. وإنّه ليستغفر للعالم من في السماوات ومن في الأرض، حتّى الحيتان في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإنّ العلماء ورثة الأنبياء. وإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظّ وافر»[٣]؛ قيل: معنى تضع أجنحتها تكفّها عن الطيران للاستماع، كما في الحديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلّا نزلت عليهم السّكينة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٤]؛ وقيل: تكفّ عن الطيران توقيراً لطالب العلم وتعظيماً له؛ وقيل: معناه تبسطها بالدّعاء له. فحسبك بمن توقّره الملائكة وتدعو له وتستغفر له، ولولا ما علمت الملائكة أنّ منزلته عظيمة عند الله تعالى ما وقّرته.

وفي التّرمذي: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»؛ ثمّ قال ﷺ: «إنّ الله

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان: باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس، ومسلم في الإيمان، عن عبد الله بن عمر.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أخرجه الترمذي، في العلم: باب ما جاء في فضل الفقه، وأبو داود في العلم: باب في فضل العلم، وابن ماجه في فضائل أصحاب الرسول ﷺ: باب في فضل العلماء.

(٤) أخرجه بلفظ: «وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

تبارك وتعالى وأهل السّماوات والأرضين حتّى النّملة في جحرها يصلّون على معلّمي النّاس الخير»[1]. وعنه ﷺ أنّه قال: «قليل من العلم خير من كثير من العبادة، ولكلّ شيء دعامة ودعامة الدّين الفقه»[2]. وقال سفيان: «ما أعلم عملاً أفضل من طلب العلم» وقال الشّافعي: «طلب العلم أفضل من صلاة النّافلة» وقال: «من أراد الدّنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، وإن لم يكن العلماء العاملون أولياء الله تعالى فليس لله وليّ». ومرّ رجل بابن حنبل رضي الله عنه، فقال: هذا العلم فمتى العمل؟ فقال له: «أليس نحن في عمل؟».

وجميع ما ذكرناه في فضل طلب العلم، إنّما هو في من أراد به وجه الله تعالى، لا لغرض الدّنيا ورياستها، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ١٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الآية [الشورى: ٢٠]. وقال ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3].

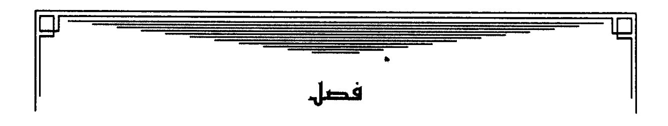
وكان السّلف الصّالح يستحبّون افتتاح الكتاب بهذا الحديث، تنبيهاً للطّالب على تصحيح النيّة وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله؛ وهو أحد قواعد الإيمان وأوّل دعائمه حتّى قيل: إنّه يدخل في سبعين باباً من الفقه. وقيل: هو ثلث العلم، ومن الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٢) أورده السيوطي بلفظ: «إن لكل شيء دعامة ودعامة هذا الدين الفقه. ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» «جامع الأحاديث والمراسيل» (٦/ ٧٧).

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، ومسلم في الإمارة بلفظ: «إنّما الأعمال بالنيّة وإنّما لامرئ».



فصل

في تحرير ما يجب من طلب العلم

وذلك على ثلاثة أقسام: فرض عين، وفرض كفاية، ونافلة.

ـ ففرض العين تعلّم المكلّف ما لا يتأتّى الواجب الذي تعيّن عليه فعله إلّا به، وذلك مثل كيفيّة الوضوء والصّلاة والصيّام والزّكاة إن كانت ممّن تجب عليه الزّكاة، والحجّ إن كان مستطيعاً له، وعلى هذا يحمل الحديث الوارد: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»[1] قال النووي: «هذا الحديث إن لم يكن ثابتاً فمعناه صحيح، وحمله آخرون على فرض الكفاية.

وأمّا علم القلب، وهو معرفة أمراض القلوب؛ كالكفر، والحسد، والغلّ، والحقد، والبغي، والغضب لغير الله تعالى، والغشّ، والسّمعة، والبخل، والإعراض عن الحقّ استكباراً، والخوض فيما لا يعني، ومثل الطّمع، وخوف الفقر، وسخط المقدور، والبطر، وتعظيم الأغنياء لغناهم، والاستهزاء بالفقراء لفقرهم، والفخر، والخيلاء، والتّنافس في الدّنيا، والمباهاة، والتزيّن للمخلوقين، والمداهنة، وحبّ المدح بما يفعل، والاشتغال بعيوب الخلق عن عيوب النّفس، ونسيان النّعمة والحميّة، والرّغبة[2] والرّهبة لغير الله، والرّياء، والعجب، وكلّها حرام إجماعاً.

قال الغزالي رحمه الله: «معرفة حدودها وأسبابها وعلاجها فرض عين». وقال غيره: إن رُزق الإنسان قلباً سليماً من هذه الأمراض المحرّمة كفاه، ولا يلزمه تعلّم دوائها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في فضائل أصحاب الرسول ﷺ: باب في فضل العلماء.
(٢) سقط من ٢: (وحب... والرغبة).

وأمّا ما يتعلّق بالمعتقدات فهل يكفي فيه التّقليد أو لا؟ فيه خلاف شهير. وممّن يتعيّن[1] عليه طلب العلم من كان فيه موضع الإمامة والاجتهاد؛ قاله مالك رحمه الله. وقد سئل عن طلب العلم أواجب هو؟ قال: «أمّا على كلّ النّاس فلا».

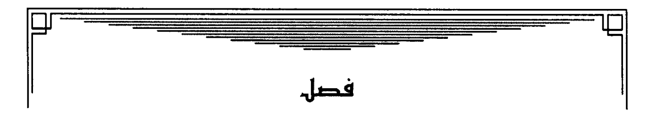
ـ وأمّا فرض الكفاية منه، وهو تحصيل ما لا بدّ للنّاس منه في إقامة دينهم؛ من العلوم الشرعيّة، كحفظ القرآن والحديث وعلومهما، والأصول، والفقه، والنّحو، واللغة، والتّصريف، ومعرفة روّاة الحديث، والإجماع، والخلاف، كذا عيّن هذه العلوم النووي، ولا يعرف للمالكيّة فيه تعيين. فهو على سبيل فروض الكفاية يسقط بفعل البعض، ومع التّرك يأثم كلّ من أمكنه ذلك. ولا يأثم من لم يتمكّن لكونه غير أهل أو لعذر.

ـ وأمّا النّفل فما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية؛ كالتبحّر[2] في أصول الأدلّة، وعويص الفرائض، والتدقيق في العربيّة والتّصريف وشواذ اللغة.



(١) في ١: (يجب).

(٢) في ١: (كالتحري).



فصل

وللعلم آداب

أهمّها:

- أن يقصد بتعلمه وتعليمه وجه الله تعالى كما قدّمناه.

- وأن يتخلّق حامل العلم بالمحاسن التي ورد الشّرع بها وحثّ عليها؛ من الزّهد، والورع، والخشوع، والسّكينة، والوقار، والتّواضع، والخضوع لأهل الدّيانة من العلماء العاملين والفقراء الصّالحين.

- ويتّصف بالحلم، والصّبر، والتّنزه عن دنيّ الاكتساب، وبطلاقة الوجه، وبحسن البشْر.

ولا ينال العلم إلّا بالصّبر والعناية التامّة والملازمة مع التّقوى. قال ابن رشد[1]: «من أفضل ما يستعان به على طلب العلم تقوى الله لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]».

جعلنا الله من أهل العلم العاملين به، ونوّر بصائرنا بنور الحقّ، ووفّقنا لما يحبّه ويرضاه.

أصل: (وقد جاء أن يؤمروا بالصّلاة لسبع سنين ويضربوا عليها لعشر، ويفرّق بينهم في المضاجع. فكذلك ينبغي أن يعلّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم، ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكّن ذلك من قلوبهم، وسكنت

---

(١) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجدّ، القرطبي، قاضي الجماعة وصاحب الصلاة بجامع قرطبة، وزعيم فقهاء المالكية بالأندلس. كان عالماً بالأصول والفروع، مع الفضل والدين. له مصنفات تدل على إمامته، منها البيان والتحصيل، والمقدمات. توفي سنة ٥٢٠هـ «الديباج» (٢/ ٢٤٨).

إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم. وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظّاهرة عملاً من الطّاعات. وسأفصّل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً، ليقرب من فهم متعليمه إن شاء الله تعالى. وإيّاه نستخير وبه نستعين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً).

شرح: الحديث في المدوّنة من رواية ابن وهب[1]. والتفريق بينهم في المضاجع، قال ابن القاسم: «عند السّبع»، وابن حبيب: «عند العشر».

[أقسام التكاليف الشرعية من حيث تعلقها بالقلوب والجوارح]:

وقوله: (وقد فرض الله سبحانه على القلب) إلى آخره.

التّكاليف الشرعيّة ثلاثة أقسام: قسم يتعلّق بأعمال القلوب، وقسم يتعلّق بالجوارح، والثّالث يتعلق بهما جميعاً:

فالأوّل: كالإيمان بالله تعالى ووحدانيّته، وأنّه هو على ما هو عليه من صفته الواجبة لذاته، وعلمه وقدرته وسائر صفاته، والتّصديق بأنبيائه ورسله[2] وكتبه وشرائعه؛ واعتقاد وجوب أوامره ولزوم طاعته، وما جرى على هذا المجرى من أعمال القلوب وفرائضها.

و[الثاني]: المتعلّق بالجوارح خاصّة؛ كردّ الودائع والغصوب، وإزالة النّجاسة، وما أشبه ذلك.

و[الثالث]: المتعلق بالقلوب والجوارح؛ العبادات، كالصلاة والصيام والحج والجهاد، وما أشبهه[3].

---

(١) أي حديث الأمر بالصلاة. عن عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ عن أبِيهِ عن جَدِّهِ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُم بالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ»، أخرجه أبو داود في الصلاة: باب متى يؤمر الغلام بالصلاة.

(٢) سقط من ١: (ورسله).

(٣) من (والمتعلق بالقلوب والجوارح) انفردت به نسخة ٣.

[أقسام التكاليف الشرعية من حيث تعقل معانيها وعدمه]:

والتّكاليف أيضاً على ثلاثة أقسام:

أحدها: المتعبّد به، وهو ما لا يظهر المعنى المقصود من شرعيته كالتيمّم.

الثاني: مقابله، وهو ما يظهر ذلك فيه كردّ الودائع، ويسمّى المعقول المعنى.

والثالث: ما اشتمل على الوجهين كالطّهارة والزّكاة، فإنّ الطّهارة فيها معنى النّظافة، لكنّها بماء مخصوص عند إرادة فعل مخصوص في أعضاء مخصوصة. وكذلك الزّكاة يعقل فيها معنى إرفاق المساكين، لكنّها في قدر من المال مخصوص لا يعقل معناه، وفي زمان خاص كذلك.

فالقسم الأوّل يجب فيه النيّة ولا يصحّ العمل إلّا بها، فهو من قبيل ما توجّه إلى القلوب والجوارح.

والثاني لا تجب فيه النيّة، وهو من أعمال الجوارح خاصّة.

والثالث اختلف فيه على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله: (باباً باباً).

منصوب على الحال، وإن لم يكن مشتقاً لكنّه في معنى المشتق، وهو بمعنى مفصّلاً، وهو مشتقّ من التّفصيل، وفعل ذلك لأنّه أعون على الحفظ.

وقوله: (وإيّاه نستخير وبه نستعين).

قدّم المفعول لإفادة الحصر، أي أستخيره في جميع أموري؛ لأنّه العالم بعواقب الأمور، والقادر على جلب المنافع ودفع المضار لا غيره.

[حكمة دعاء الاستخارة]:

ودعاء الاستخارة معلوم في الصّحيح[1]. وفي الاستخارة تسليم

---

(١) عن جابر ﷺ قال: «كان النبيُّ ﷺ يُعلِّمنا الاستِخارَةَ في الأمور كلِّها كالسُّورةِ مِنَ =

الأمر لله تعالى، وخروج عن التدبير[1].

ونستعين: نطلب الإعانة.

[معنى: لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وفضلها]:

قوله: (ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم).

قال ابن مسعود: سمعني رسول الله ﷺ أقولها فقال: «ألا أخبرك بتفسيرها؟» فقال: بلى، فقال: «لا حول عن معصية الله إلّا بعصمته، ولا قوّة على طاعة الله إلّا بعونه»[2]. وفي البخاري قال ﷺ لأبي موسى الأشعري: «ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنّة؟» قال: بلى، قال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»[3].

والحول: قيل من التحوّل وقيل من الحيلة، وإنّما كانت من كنوز الجنّة لاشتمالها على ما يجب لله سبحانه من الانفراد بالاختراع، والغنى المطلق، وما يجب على العبد من الإقرار بذلك والتزام العبوديّة. وعن النبي ﷺ أنّه قال: «أكثروا من ذكر لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، فإنّه يدفع تسعة وتسعين باباً من الضرّ أدناها الهمّ»[4]. ويقال: اللمم بدل الهمّ، وهو الطّرق

= القرآن: إذا همَّ أحدُكم بالأمر فلْيَركعْ ركعتين من غير الفريضة ثم يقول: اللهمَّ إني أستَخيرُكَ بعلمك، وأستَقدِرك بقدرتك، وأسألكَ من فضلكَ العظيم، فإنكَ تَقدِرُ ولا أقدِر، وتعلمُ ولا أعلم، وأنتَ علامُ الغيوب. اللهمَّ إن كنت تعلم أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومَعاشي وعاقبةِ أمرِي ـ أو قال: في عاجلِ أمرِي وآجله ـ فاقدُرْه لي. وإن كنتَ تعلم أنَّ هذا الأمرَ شرٌ لي في دِيني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجلِ أمري وآجله ـ فاصرِفْه عني واصرفْني عنه، واقدُر لي الخير حيثُ كان ثمَّ رضِّني به. ويُسمي حاجَته»، أخرجه البخاري في الدعوات: باب الدعاء عند الاستخارة.

(١) سقط من ١: (تعالى... التدبير).

(٢) أخرجه الديلمي عن ابن مسعود. «البيان والتعريف في بيان أسباب ورود الحديث» (١/ ٣١١).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات: باب الدعاء إذا علا عقبة، ومسلم في الذكر والدعاء: باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٤) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة، الحاكم في التوبة والإنابة: باب جددوا إيمانكم.

من الجنون، وهو داء. وعن مكحول: «من قال لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم كشف الله عنه سبعين باباً من الضرّ أدناها الفقر»[١]

وقرنها بهذين الاسمين العظيمين الدّالين على التّنزيه والتّقديس عن الافتقار.

والصّلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن العباد تضرّع ودعاء.

وسمّي ﷺ محمداً لكثرة خصاله المحمودة. وفي الحديث: «من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً»[٢]. قال سحنون في الرّجل يقول عند العجب من الشيء صلّى الله على النبي محمّد: «ذلك مكروه، ولا ينبغي أن يصلّى على النبي ﷺ إلّا عند الاحتساب ورجاء الثّواب». ونقله في النّوادر. وهذا آخر الكلام على الخطبة والحمد لله ربّ العالمين.

أصل: (باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الدّيانات).

شرح: الباب هو الطّريق إلى الشيء والموصل إليه، وهو حقيقة في الأجسام كباب الدّار، مجاز في المعاني كباب الوضوء[٣]. وهذا الباب يشتمل على بيان ما يجب النّطق به[٤]، وبيان ما يجب أن يعتقد. فكأنّه يقول باب بيان الواجبات نطقاً واعتقاداً.

أصل: (من ذلك الإيمان بالقلب والنّطق باللسان: أنّ الله إله واحد، لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له).

---

(١) لفظه عَن أبي هُرَيْرَةَ قال: قالَ لِي رَسُولُ الله: «أَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلّا بالله فإِنَّهَا كنز مِنْ كنوز الجَنَّةِ ـ قالَ مَكْحُولٌ ـ فَمَنْ قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلّا بالله وَلَا مَنْجَا مِنَ الله إلّا إِلَيْهِ كَشَفَ عَنْهُ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الضُّرِّ أَدْنَاهُنَّ الفَقْرُ»، أخرجه الترمذي في الدعوات: باب فضل «لا حول ولا قوة إلّا بالله» قال الترمذي: «إِسْنَادُهُ لَيْسَ بِمُتَّصِلٍ. مَكْحُولٌ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ».

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد.

(٣) سقط من ٢: (والموصل... الوضوء). (٤) سقط من ٢: (بيان... به).

[معنى الإيمان لغة وشرعاً ـ وحكم المقلد في العقائد]:

شرح: الإيمان لغة[1]: التّصديق. وفي الشّرع:

ـ التّصديق بالقلب بوجود الربّ تعالى، وبصفات كماله وجلاله، وصحّة الرّسالة، وما جاءت به الرّسل من عنده، مع الجزم بذلك كلّه.

ـ والإقرار باللسان مع القدرة والتمكّن من النّطق.

وزاد بعضهم: والانقياد بالأعمال[2]. فأدخل في حقيقة الإيمان حقيقة الإسلام، فاشترط في ذلك الأركان الخمسة. ومنهم من اشترط من ذلك الصّلاة والزّكاة. ومنهم من اشترط الصّلاة.

والصّحيح أنّ الانقياد بالأعمال ليس من ماهية الإيمان؛ وكذلك النّطق باللسان على مذهب القاضي[3]؛ وخالفه الجمهور وعدّوه شرطاً مع القدرة.

إذا تقرّر هذا، فمن صدّق بقلبه ونطق بلسانه وعمل بجوارحه واستصحب ذلك إلى وفاته؛ فكامل الإيمان إجماعاً، إن كان تصديقه عن علم ويقين. وإن كان عن تقليد موافقاً لأهل الحق في عقائدهم، فجمهور أهل الحقّ على خلاصه، ويكون عاصياً بتركه النّظر المؤدي إلى العلم بالله.

الغزالي: «يكون عاصياً بالتّرك إن كان أهلاً».

وقال القاضي أبو بكر: «التقليد في العقائد حرام»، واستدلّ عليه بما يطول جلبه.

قيل: والحقّ أنّ العلم يخرجه من العصيان؛ والتّقليد الموافق لأهل الحق يخرجه عن الكفر بشرط[4] الجزم.

وأمّا من صدّق بقلبه ولم يعمل فسيأتي الكلام عليه.

ومن صدّق ولم ينطق[5] فإن كان لعذر فهو مؤمن. وفي «الشّفاء»

---

(١) سقط من ١: (لغة).
(٢) سقط من ١: (بالأعمال).
(٣) أي القاضي أبو بكر الباقلاني، وتقدمت ترجمته.
(٤) في ١: (الكفران شرط).
(٥) في ٢: (ينظر).

لعياض[1]: الصّحيح فيمن تخترمه المنيّة قبل النطق إنّه مؤمن. وإن كان لغير عذر فالجمهور أنّه غير مؤمن.

وأمّا التّصديق باللسان دون القلب، فهو نفاق ولا يجزي بإجماع.

[معنى وحدانية الله تعالى والدليل عليها]:

قوله: (أنّ الله واحد لا إله غيره ولا شبيه).

قال أبو المعالي[2]: «الواحد معناه المتوحّد المتعالي عن الانقسام. وقيل: معناه الذي لا مثل له». وقال ابن فورك[3]: الواحد في وصفه تعالى له ثلاثة معان، ولفظ الواحد حقيقة في جميعها:

أحدها: أنّه لا قسيم لذاته، وأنّه غير متبعّض، ولا متحيّز[4].

الثّاني: أنّه لا شبيه له. تقول العرب: فلان واحد عصره، أي لا شبيه له.

الثّالث: أنّه لا شريك له في أفعاله. قالوا: فلان متوحّد بهذا الأمر، أي لا يشاركه فيه أحد، ولا يعاونه فيه أحد.

والأوّلون قالوا: هذه الثّلاثة مستحقّة له تعالى، ولكن لفظ التوحيد فيه حقيقة في نفي القسمة مجاز في الباقي.

---

(١) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، الفقيه، القاضي، المحدث، المؤرّخ، من كتبه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، و«ترتيب المدارك». ولد سنة ٤٧٦هـ، وتوفي سنة ٥٤٤هـ. «الديباج» (٢/٤٦).

(٢) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين؛ أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي، له مصنفات كثيرة في علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه الشافعي. توفي سنة ٤٧٨هـ. «الأعلام» (٤/١٦٠).

(٣) محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر، واعظ، عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. له تصانيف في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن والحديث. توفي سنة ٤٠٦هـ. «الأعلام» (٦/٨٣).

(٤) في ١: (متجزئ).

والدّليل على وحدانية الله تعالى العقل والنّقل والإجماع:

- فأمّا دليل العقل، فقد أرشد إليه القرآن: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فنبّه تعالى على أنّ هذه الموجودات تشهد وتنادي بلسان حالها بوجوب[1] انفراد خالقها بالوحدانيّة وصفات الألوهيّة. ولو قدّر عدد[2]:

* لزم منه تلاشيها وفسادها وعدم استمرار وجودها.

* وأنّه لا عدد بأولى من عدد فيلزم التّخصيص، وعدد غير متناه محال.

فالقول بالعدد باطل على كلّ تقدير. وبسط الأدلّة فيه طول، ولنذكر منها واحداً يستدلّ به على غيره. قال أبو المعالي: لو قدّرنا اثنين وفرضنا جسماً أراد أحدهما تحريكه والآخر تسكينه، فإمّا أن ينفذ ما أرادا معاً، أو لا ينفذ مرادهما، أو ينفذ مراد أحدهما دون الآخر:

ونفوذ مرادهما معاً يؤدي إلى اجتماع النّقيضين، وهو محال.

وعدم نفوذ ذلك يودّي إلى ارتفاع النّقيضين، وفيه عجزهما.

ونفوذ مراد أحدهما يلزم منه تعجيز الثّاني. وإله عاجز محال؛ فالإله واحد ضرورة.

ويلزم من تقدير الموافقة ما يلزم من تقدير المنازعة؛ لأنّ الموافقة[3] إمّا اختياريّة أو اضطراريّة. والاختياريّة حكم جائز؛ فكما جاز أن يختار جاز ألّا يختار. وتقدير ألّا يختار محال، فيضطرّ إلى الاختيار فيلزم العجز قطعاً؛ ويلزم من ذلك عموم[4] تعلّق قدرة الواحد الحقّ بجميع المقدورات لتساويها في معقوليّة الإمكان؛ فالعجز عن مقدور واحد عجز عن الكلّ، والقدرة على واحد قدرة على الكلّ، للزوم الاستغناء المطلق له تعالى، إذ هو منتهى الحاجات ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢] فثبت بذلك وجوب انفراده بالخلق وثبوت وحدانيّته تعالى.

---

(١) في ١ و٢: (بوجود) والتصحيح من ٣.

(٢) في ١: (عدم).

(٣) في ١: (المنازعة).

(٤) في ٢: (عدم).

ـ وأمّا أدلة النّقل فكثيرة.

ـ والإجماع على وحدانيّته تعالى معلوم من الدين ضرورة.

[نفي المماثلة في ذات الله تعالى وصفاته ـ ونفي المشاركة له في أفعاله]:

قوله: (لا إله غيره).

تأكيد ومبالغة في ثبوت الوحدانيّة ونفي إله آخر. واختلف هل الأفضل للمكلّف المدّ في «لا» النّافية ليستشعر المتلفّظ بها نفي الألوهية عن كلّ موجود سوى الله تعالى أو القصر لِئلا تخترمه المنيّة قبل التلفّظ بذكر الله.

وفرّق الفخر(١) بين أن تكون كلمته فيقصر، أو لا فيمدّ.

قوله: (ولا شبيه له) أي في ذاته.

(ولا نظير له) أي في صفاته.

(ولا شريك له) في أفعاله.

قوله: (ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له).

قال علي بن أبي طالب ﷺ: الغلط الواقع في العالم، يعني فيما يجب لله تعالى ويستحيل عليه ويجوز من أحكامه في خلقه من أربع جهات: في الكثرة، والعدد، والنّقص، والعلّة، والمعلول، والأشكال، والأضداد؛ قال: فنفى الله ذلك كلّه بسورة الإخلاص:

ـ فـ **(أحد)** تنفي العدد.

ـ و**(صمد)** تنفي النقص.

---

(١) فخر الدين الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، *الإمام المفسر، أوحد زمانه في المنقول والمعقول وعلوم الأوائل. أصله من طبرستان،* ومولده في الري، ويقال له: ابن خطيب الري. له مصنفات عديدة في التفسير وعلم الكلام وأصول الدين والفرق والبلاغة. توفي سنة ٦٠٦هـ «الأعلام» (٦/ ٣١٣).

- و(**لم يلد ولم يولد**) تنفي العلّة والمعلول.

- (**ولم يكن له كفواً أحد**) تنفي الأشكال والأضداد.

فتضمّنت السّورة الكريمة أحديّة الذّات والصّفات، وقطع النّسب والعلائق بينه سبحانه وبين سائر الموجودات المزدوجات ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، وأنّ الواحد حقيقة هو الله تعالى.

وإن أطلق الواحد على غيره فمجاز؛ لأنّ الموجود الحادث إمّا جوهر وإمّا عرض. ولا يوجد أحدهما دون الآخر، فالله تعالى واحد في ذاته[1]، واحد في صفاته، واحد في أفعاله.

أصل: (ليس لأوليَّتِه ابتداء، ولا لآخريّته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بامره المتفكّرون، يعتبر المتفكّرون بآياته، ولا يتفكّرون في ماهيّة ذاته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]).

[صفتا القدم والبقاء]:

شرح: يريد أنّ الربّ تعالى يجب أن يكون قديماً باقياً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] معناه أوّل بلا ابتداء، وآخر بلا انقضاء؛ فالأوّلية غير مسبوقة بعدم، والآخريّة غير مختومة بعدم. والدّليل على ما قلناه أنّه لو كان له أوّل مفتتح لكان جائزاً، ولافتقر إلى مرجّح، ولتسلسل القول. ويلزم منه نفينا مع وجودنا وهو محال. فهو تعالى واجب الوجود، لا يقبل العدم السّابق ولا اللاحق. ولا تناقض في كلام الشّيخ كما توهّمه بعض النّاس.

واختلف لماذا يرجع معنى القدم والبقاء، فللمقترح[2] في «شرح

---

(١) سقط من ٢: (وإن أطلق... ذاته).

(٢) هو مظفر بن عبد الله بن علي بن الحسين، أبو الفتح، تقي الدين، المعروف بالمقترح: فقيه شافعي مصري، برع في أصول الدين والخلاف. ولد سنة ٥٦٠هـ وتوفي سنة ٦١٢هـ. من كتبه: شرح الإرشاد في أصول الدين «الأعلام» (٧/٢٥٦).

الإرشاد» هما صفتا سلب، أي نفي العدم السابق واللاحق. وخالف في عقيدته فقال: هما صفتا نفس، على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر وغيره من المحققين. وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنّ[1] القدم صفة نفس، والبقاء صفة معنى. واعترض بأنّ البقاء لو كان صفة معنى[2] لكانت الذّات باقية ببقاء، والصّفات بقاؤها إمّا أن يكون هو ببقاء الذّات أو بقاء قائم بها. ويلزم على الأوّل إيجاب الحكم لما لا يقوم به الموجب، ويلزم على الثّاني قيام الصّفة بالصّفة، وكلّ ذلك مستحيل.

[نفي العلم بحقيقة صفاته تعالى]:

قوله: (لا يبلغ كنه صفته الواصفون).

كنه الشيء غايته، وقيل: حقيقته.

فعلى الأوّل معناه: لا كنه لصفته، كما قال امرئ القيس: «على لا حب لا يهتدي بمنارة»، أي لا حبّ له فيهتدي بمناره[3].

وعلى الثاني وهو تفسيره بالحقيقة، فلا يجوز أن يقال لا كنه له.

والصّفة والوصف بمعنى عند أهل العربيّة. وأمّا عند المتكلّمين فالوصف قول الواصف، والصّفة المعنى القائم بالموصوف.

قال بعض الشرّاح: يفهم من كلام المصنّف نفي العلم بالحقيقة. واختاره جماعة من المتقدّمين.

وقال الجنيد[4]: لا يعرف الله إلّا الله، واختاره أكثر المتأخرين، وإليه

---

(١) سقط من ١ و٢: (هما صفتا نفس... أنّ) وأثبتناه من ٣ ومن «النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة».

(٢) سقط من ١: (واعترض... معنى).

(٣) سقط من ٢: (أي... بمناره) وانظر ديوان امرئ القيس (٩٥).

(٤) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم. صوفي من العلماء بالدين، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنّة، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة. له رسائل. توفي سنة ٢٩٧هـ «الأعلام» (١٤١/٢).

ذهب الضرير[1]، وكان من المحقّقين. وأنكر القاضي أبو بكر هذا القول وردّه، وتبعه الإمام أبو المعالي في طائفة، وقال: «الباري تعالى يعلم، والعلم يتعلّق بالمعلوم على ما هو به، فلو تعلّق العلم به على خلاف ما هو به لكان العلم جهلاً. وقد اجتمعت الأمّة على وجوب معرفة الله تعالى، ولو كانت مستحيلة لما اجتمعت عليه».

قيل: وهو خلاف في حال، فإنّ من أثبت العلم بالحقيقة مقرّ بأنّه تعالى لا يحاط به، ومن نفى مقرّ بأنّه تعالى عرفه العارفون بدلالة الآيات، وتحقّقوا اتّصافه بواجب الصّفات، وتيقّنوا تنزيهه عن التّشبيه بالمحدثات وتقديسه عن الحدود والكيفيّات.

قال الأستاذ أبو الحجاج الضرير مقرّراً لنفي العلم بالحقيقة مثبتاً للعلم به تعالى من هذه الطّريقة:

ولا يحيط عارف بذاته ... علماً كما قال ولا صفاته
ولو رآه خلقه تعالى ... لأكثروا الإعظام والإجلال
معناه قد روي عن النبي ... عن ربه بالسنن القوي[2]
فدلّ ذلك أنّه على صفة ... من الجلال لم تنلها معرفة

قوله: (ولا يحيط بامره المتفكّرون).

يقال: حاط وأحاط بمعنيين؛ حاطه كلأه ورعاه، وأحاط به علمه.

وأمره: شأنه.

والمتفكّرون: اسم فاعل من تفكّر. والتفكّر التأمّل. وقيل: هو تصرّف

---

(١) يوسف بن موسى الكلبي السرقسطي المراكشي، أبو الحجاج الضرير. عالم بالنحو والتوحيد، من أهل سرقسطة، وتوفي بغرناطة سنة ٥٢٠هـ. قال ابن بشكوال: «له تصانيف حسان وأراجيز مشهورة»، منها أرجوزته التي ذكر الشارح منها مقاطع المسماة «التنبيه والأرشاد في علم الاعتقاد» «الأعلام» (٨/ ٢٥٤)، «الصلة» (٦٢١)، «بغية الوعاة» (٤٢٤)، «الغنية» (٢٢٦).

(٢) سقط من ١: (معناه... القوي).

العقل في الأمور السابقة في العلم والظنّ. وقيل: تصرّف القلب بنظره في الدّليل. وقيل: تردّد القلب في طلب المعنى. وهي متقاربة.

[لا طريق للعلم بالله تعالى إلّا بالنظر]:

قوله: (يعتبر المتفكّرون) إلى قوله: (ذاته).

أي لا طريق للعلم بالخالق تعالى إلّا بالنّظر في هذه الموجودات، وما اشتملت عليه من عجائب الصفات؛ فتعلم بذلك ما يجب لخالقها وما يستحيل عليه. وعنه ﷺ: «تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق»[1]. فحسب المتفكّر[2]، إذاً التفكّر في آياته ومخلوقاته، والهرب عن التفكّر في ذاته وصفاته. وقال الضّرير:

والفكر في عجائب الخليقة	من أفضل الطاعات في الحقيقة
لأنّه به تكون المعرفة	وإنّما يخافه من عرفه
والعلم بالمهيمن القهّار	بحسب الفكر والاعتبار
والفكر في بديع مصنوعاته	لا في صفاته ولا في ذاته
إذ ليس ينتهى لكنه العظمة	جلّ الإله ربّنا ما أعظمه
وقد أتى عن النبي الصادق	تفكروا في الخلق لا في الخالق[3]

فلا تصحّ المعرفة إلّا لمن علم وجود الله تعالى على ما هو عليه، وعلم عجز نفسه عن الإحاطة بما ذكرناه. وعليه يحمل قول الصدّيق حين قال: «العجز عن الإدراك إدراك». ولبعضهم: جمع أهل الحقّ جميع ما قيل في التّوحيد في حرفين:

* **أحدهما**: الاعتقاد بأنّ ما تصور في الأوهام فالله بخلافه؛ لأنّ ما صور في الأوهام مخلوق والله تعالى خالقه.

---

(١) الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشعب»، من حديث ابن عمر مرفوعاً، وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح. «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص٢٦٠).

(٢) سقط من ٢: (فحسب المتفكر).

(٣) سقط من ١: (وقد... الخالق).

* **والثاني**: أن ذاته غير مشبهة بالذوات، ولا معطلة عن الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

[منع التفكر في ماهية ذات الله تعالى]:

والمائية الماهية بمعنى الحقيقة، وإن كان إطلاق المائيّة عليه يمتنع، لعدم الإذن، ففيه مسامحة لضيق العبارة، ولأنها غير مقصودة الإطلاق، وإنّما المراد منها إفهام المعاني خاصة.

قيل: ويجوز أن يكون من باب «على لا حب لا يهتدي بمناره» أي لا مائية له تعالى فيتفكّر فيها، ويسقط الاعتراض من أصله على المصنّف.

قوله: (ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء) إلى آخره.

العلم المراد به المعلوم، ومنه «اللهم اغفر لنا علمك فينا» أي معلومك. وفي قصّة الخضر: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله» أي من معلوم الله.

[معنى الكرسي والعرش]:

قوله: (وسع كرسيّه السماوات والأرض).

[كرسيّه]: قال ابن عبّاس: «علمه». وقيل: ملكه. وقيل: كرسيّه عرشه. وقيل: سرير دون العرش، ابن المنير[1]. وقيل: اسم ملك أضافه إليه تخصيصاً وتنبيهاً للعباد على عظمته وقدرته. السدي[2]: «الكرسي بعينه[3] لؤلؤ، وما السماوات فيه إلّا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

---

(١) ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم الجذامي الأسكندري الأبياري، المعروف بابن المنير الفقيه الإمام الخطيب المتبحر في علوم الشريعة واللغة، له تآليف حسنة منها «الانتصاف من الكشاف». توفي سنة ٦٨٣هـ «شجرة النور» (١٨٨).

(٢) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدّي، أبو محمد، الإمام المفسر. تابعي من الطبقة الرابعة. «تهذيب التهذيب» (١/٢٠٣).

(٣) أي بذاته.

والمعتقد أن الكرسيّ مخلوق عظيم من مخلوقات الله تعالى، والعرش أعظم منه، والسماوات والأرضين في جنبه كحلقات ملقاة في فلاة من الأرض. وهو بالنّسبة إلى العرش أيضاً كحلقة في فلاة.

ابن المنير: «في بعض الأخبار بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعون حجاب من ظلمة، وسبعون من نور، غلظ كلّ حجاب خمسمائة عام، لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسي من نور حملة العرش، والله أعلم».

والمراد بذكر الكرسي وذكر العرش الذي هو أعظم منه، استشعار النفوس عند سماعها عظمة الخالق سبحانه، وكبرياؤه وعزّة اقتداره، لا أنّهما محلّان للاستقرار، تنزّه الخالق تعالى عن التحيّز والافتقار إلى المحالّ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي [لا] يثقل[ه] حفظهما، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فختم الآية الكريمة بهذين الاسمين العظيمين، الدّالين على التنزيه والتقديس عن المكان والجهة، وعلى ثبوت العُلْيا والعظمة، فهو العليّ بذاته، القاهر فوق عباده، ويكون «العليّ» من علاء المجد والشرف.

العظيم: ذو العظمة والجلال والمراد عظم الشأن وجلالة القدر.

تتميم: قد تقدمت الإشارة إلى حديث أبيّ بن كعب الدّال على أنّ آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله تعالى، وقد نقلت آثار في فضلها، فمنها ما يؤثر عن علي رضي الله عنه قال: سمعت نبيّكم على أعواد المنبر يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كلّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة إلّا الموت، ولا يواظب عليها إلّا صدّيق أو عابد»[(١)]. و«من قرأها إذا أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله»[(٢)]. ابن المنير: روي عن

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن أبي أمامة، والنسائي في «اليوم والليلة»، وابن حبان في «صحيحه»، قال ابن كثير: «إسناده على شرط البخاري، وقد زعم أبو الفرج ابن الجوزي أنه حديث موضوع، والله أعلم». «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤٠٢).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ: «ومن قرأها حين يأخذ مضجعه آمنه الله على داره ودار جاره وأهل دويرات حوله». وقال البيهقي: إسناده ضعيف. «مشكاة المصابيح» (٢/ ٥٩).

عبد الله بن العاص: «من قرأ آية الكرسي دبر كلّ صلاة مكتوبة كان الذي يتولّى قبض نفسه ذو الجلال والإكرام، وكان كمن قاتل مع أنبياء الله تعالى حتّى استشهد»[1]. واشتملت على جمل:

الأولى: بيان لقيامه بمصالح السماوات والأرض وما بينهما.

الثانية: للثناء بعظيم سلطانه.

الثالثة: للثناء بكبير شأنه.

الرابعة: للثناء بالعلم الشامل للملك والملكوت، سرّه وجهره ومنازل أهله، ومن يصلح لأن يشفع أو لا يشفع فيه.

الخامسة: للثناء بعظمة القدر والجلال.

قيل: ومن فضلها اشتمالها على سبعة عشر اسماً لله تعالى ظاهراً ومضمراً. وتقدّمت الإشارة إليه.

أصل: (العالم، الخبير، المدبّر، القدير، السميع، البصير، العلي، الكبير، وانّه فوق عرشه المجيدُ بذاته، وهو في كلّ مكان بعلمه. خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد. وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين).

[معنى: العالم، الخبير، المدبّر، القدير، السميع، البصير، العلي، الكبير]:

شرح: (العالم الخبير) اسمان لله تعالى، يدلّان صريحاً على صفتين لله تعالى: العلم والإخبار، إن فسّرنا الخبير بمعنى المخبر، وفعيل بمعنى مفعل كثير. وإن فسّرنا الخبير بمعنى العليم فيكون أفاد مبالغة؛ إمّا في تعلق العلم بالخفيّات لأنّ الخبرة علم الخفي، أو في كثرة المعلومات لأنّ فعيلاً أبلغ من فاعل، فلا ترادف.

(١) رواه الحكيم الترمذي معضلاً، فهو ضعيف. «جامع الأحاديث والمراسيل» (٧/ ٣٢٣).

[حكم تسمية الله تعالى بغير ما ورد في الشرع]:

قوله: (المدبّر).

لم يرد في الأسماء الحسنى. وورد فعلاً ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرعد: ٢]، والأصل أن لا يسمّى إلّا بما ورد به القرآن أو السنّة وانعقد عليه الإجماع.

واختلف في الوارد بطريق الآحاد؛ فمنع الأشعري محتجاً بقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] وخبر الواحد لا يفيد العلم؛ وأجازه الجمهور وقالوا: إنّه من باب العمل، ويكتفى فيه بالخبر الواحد.

وإذا تقرّر هذا فمن أطلق عليه ما لم يرد فيه إذن، أو اشتقّ له من أفعاله اسماً، فما كان موهماً فممنوع إجماعاً؛ وما لا يكون موهماً، وكان يدلّ على كمال أحد أوصافه، فأجازه القاضي ومنعه غيره طرداً للقاعدة.

والمدبّر إمّا العالم بحال[1] الأمور وعواقبها وما خفي منها؛ وإمّا بمعنى المريد المنفذ لما أراد على غاية الإحكام والإتقان، فيفيد معنى إبرام الأمور وإحكامها، فخرج الاسم على هذا مخرج الوصف من غير قصد تسمية له تعالى بذلك.

قوله: (القدير، السميع، البصير، العلي، الكبير).

أسماء ثابتة بالقرآن والسنّة والإجماع. وقدير: مبالغة في القدرة وتعلّقها بجميع المقدورات. قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]. وشهدت الأفعال بوجوب اتّصافه تعالى بالقدرة.

قوله: (السميع البصير).

فقد ورد بهما النصّ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهما من صفات الكمال، فوجب اتصافه تعالى بهما على ما يليق بكماله وجلاله، وكما أنّ ذاته تعالى لا تشبه الذوات، فكذلك صفته لا تشبه الصّفات، إذ الموصوف بالقدم يستحيل اتّصافه بما يدلّ على حدوثه.

---

(١) في ب (بمآل).

قوله: (العلي الكبير).

العليّ: هو العالي القاهر، فعيل بمعنى فاعل، وقد يكون من علاء المجد والشّرف؛ ويكون أيضاً بمعنى علا وجلّ أن تلحقه صفات الخلق أو تكيفه أوهامهم.

الكبير: هو الموصوف[1] بالجلال وكبر الشّأن، يصغر عند جلاله كلّ كبير.

[معنى قول المصنف: وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته]:

قوله: (وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته) إلى آخره.

في عبارته ﷺ في هذا المكان قلق. وقد استشكلت قديماً وحديثاً، ومحلّ الاعتراض منها قوله: **(فوق)** وقوله: **(بذاته)** إذ لم يرد بهما السمع. قيل: يتّضح كلامه رحمة الله تعالى ويزول إشكاله، بما يتبيّن من معنى الفوقية، والعرش، والمجيد، والذات.

- ومعنى فوقية الله تعالى على عرشه؛ فالفوقية عبارة عن كون الشيء أعلى من غيره في المحسوسات بالمماسّة كزيد على السطح، وفي المعنويات كالسّيد فوق عبده، المراد في الشرف. وكذا قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فالفوقية هنا معنوية[2] بمعنى القهر والغلبة والظهور، وكذا «فوقهم» [في قوله]: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] الفوقية فيها معنوية؛ فمن جاز عليه المكان جاز أن تكون فوقيته بالمكان أو بالمعنى؛ ومن يستحيل عليه الجهة[3] والمكان لا تكون فوقيته إلا معنوية والله أعلم.

- وأمّا «العرش» فهو لغة: عبارة عمّا علا وارتفع، ومنه: المرخ والعفار[4] جنات معروشات؛ وهو هنا المراد به مخلوق عظيم محيط بالكرسي والسماوات والأرض، وتقدم الكلام عليه.

---

(١) سقط من ٢: (المجد... الموصوف). (٢) سقط من ١: (معنوية).
(٣) في ١: (الجسمية). (٤) سقط من ٢: (المرخ والعفار).

- و«المجيد» فيقال بالخفض صفة للعرش، وبالرفع صفة لله تعالى. والمجد: الشرف والرفعة. ويطلق لغة على اجتماع أوصاف مع الاتساع والكثرة. ومنه قول العرب: «في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار»[١] أي استكثر. وقولهم مجدت الماشية إذا صادفت روضة خصيبة. فإذا كان صفة للعرش فمعناه: الحسن الجميل الشريف العظيم؛ وإذا كان صفة لله تعالى فمعناه: الحسن الفعال، الجواد الكثير الأفضال. والله أعلم.

- وأما «الذات» فذات الشيء حقيقته وماهيته ونفسه وعينه وثبوته؛ إن جعلنا الوجود هو نفس الماهية.

وأمّا فوقية الله تعالى على عرشه، فالمراد بها فوقية معنوية بمعنى الشرف والجلال والكمال والمكانة؛ لا فوقية أحياز وأمكنة، فإنه تعالى يستحيل عليه المكان والجهات ومشابهة المخلوقات؛ وهو بمعنى الحكم والملك، فيرجع إلى معنى القهر.

والضمير في «بذاته» يجوز عوده على العرش، و«الباء» بمعنى «في» أي: المجيد في ذاته، في المعاني المتقدّمة. ويجوز عوده على الله تعالى فيكون المعنى: أنّ هذه الفوقية المعنوية له تعالى بالذات، لا بالغير؛ وهذا على أن تكون الدال من المجد مرفوعة على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو المجيد بذاته، أي لا بكثرة أموال وضخامة أجناد وغير ذلك.

وقد صح استعمال الفوقية بمعنى العظمة والشرف والمكانة والملك؛ فالفوقية هنا تتأول بهذا المعنى.

ثم الفوقية المعنوية من حيث هي فوقية، إما أن تكون واجبة بالذات[٢]، أو مستفادة من حكم الغير لا ترجع لمعنى في الذات.

وفوقية كلّ من سوى الله تعالى لا ترجع لمعنى في الذات[٣]، وإنما ذلك

---

(١) انظر: المعجم الوسيط (١/ ٨٦١).
(٢) في ١: (في الذات).
(٣) سقط من ١: (وفوقية... الذات).

بحكم الله تعالى وتشريفه، فهو تعالى وصف العرش بالمجد والعظم، وجعله أعظم المخلوقات؛ وعلوّ الله تعالى ومجده ليس كعلوّ غيره، بل هو مخالف لكلّ المخلوقات، مخالفة مطلقة؛ فمجده وعظمته وعلياؤه حكم واجب له بذاته لا يشارك فيه.

وخص العرش بالذكر دون غيره؛ لأنه الذي ورد به الإطلاق الشرعي، ولأنه من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى. ونقل ابن سلامة[1] في شرح العقيدة عن ابن مجاهد[2]، أنه نقل عن السلف الصالح إطلاقهم مثل هذا الذي أطلقه الشيخ هنا، بل أصعب، ونصه: «وممّا أجمعوا على إطلاقه أنه تعالى فوق سماواته على عرشه، دون أرضه، يريد إطلاقاً شرعياً؛ لأنه لم يرد في الشرع أنه في الأرض، فلهذا قال: دون أرضه. وهذا مع ثبوت علمهم باستحالة الجهة في حق الله تعالى، ومعرفتهم بفصاحة العرب، واتساعهم في الاستعارات. ونقل هذا الكلام بعينه الشيخ أبو محمد[3] في مختصره[4]، وغيّر لفظه هنا قصد التقريب على المبتدي»[5].

فإذا ثبت هذا أنه منقول عن السلف الصالح زال الاعتراض عن الشيخ، ولا بد من تأويله وحمله على وجه صحيح، باعتبار ما يجب للباري تعالى من التنزيه والتقديس عن الجهة وما لا يليق بجلاله سبحانه.

---

(١) هو محمد بن سلامة الأنصاري التونسي. واسم شرحه على الرسالة «النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة».

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي البغدادي، الإمام الفقيه الأصولي العالم النظار المتكلم، صاحب الإمام الأشعري. له كتب حسان في أصول الفقه والعقيدة. توفي سنة ٣٧٠هـ. «شجرة النور» (٩٢).

(٣) هو ابن أبي زيد القيرواني.

(٤) عنون ابن أبي زيد هذا المختصر بـ «كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك» وألحقه بعنوان آخر هو «مختصر من السماعات عن مالك ومن الموطأ وغيره مضاف إلى مختصر المدونة» أمّا الكلام الذي أورده ابن أبي زيد في المختصر فهي كالآتي: «وأنّه فوق سماواته على عرشه دون أرضه، وأنّه في كل مكان بعلمه» «كتاب الجامع» (ص١٤١). فقد أسقط في الرسالة لفظ «بذاته».

(٥) المراد بـ «هنا» الرسالة.

[علم الله تعالى وتعلقاته]:

قوله: (وهو في كلّ مكان بعلمه).

قال ابن رشد: «إنما يقال علمه محيط بكل شيء، وإنما أراد أن يبين قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] والمراد أن الله تعالى عالم بكل شيء».

قوله: (خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه).

الخلق يكون بمعنى التقدير وبمعنى الإيجاد.

والإنسان يقع على الرجل والمرأة في اللغة المشهورة. قيل: المراد هنا آدم عليه السلام. وقيل: هو لفظ عام أريد بهم الأنبياء عليهم السلام؛ لأنهم معصومون من وسواس النفوس.

والوسوسة: ما يختلج في النفس، واستعمالها غالباً في غير الخير، ولهذا أضيفت إلى النفس الأمارة بالسوء، وهي أمارة بالسوء للجاهل، ولوّامة للتائب، ومطمئنّة للعارف.

وتطلق النفس ويراد بها حقيقة الشيء وذاته؛ ويراد بها الروح؛ وقد يسمى القلب نفساً، وبمعنى الدم، ومنه قول الفقهاء: ما له نفس سائلة.

قوله: (وهو أقرب إليه من حبل الوريد).

المراد قرب علمه تعالى، وأنه مطّلع على سرائر العباد، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ظاهرها وباطنها.

والوريد قيل: عرق في العنق يسمّى الوريد. قيل: إنّ الروح ترده وهو متّصل بالقلب، إذا انقطع مات الإنسان. وإضافة الحبل إلى الوريد من باب إضافة الجنس[١] إلى نوعه نحو: بقلة الحمقاء[٢].

---

(١) في ١: (الشيء).

(٢) والبَقْلَة الحَمْقاء: هي الفَرْفَخةُ؛ قال ابن سيده: «البَقْلَةُ الحمقاء التي تسميها العامة الرِّجْلة لأنها مُلْعِبةٌ، فشُبِّهت بالأحمق الذي يَسيل لُعابُه، وقيل: لأنها تَنْبُت في مَجْرَى السُّيول». (لسان العرب: حرف الحاء).

قوله: (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها).

تنبيه على عموم تعلّق علمه تعالى بالخفيات. وأنشد الزمخشري[1] لبعضهم:

يا من يرى مدّ البعوض جناحها	في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها	والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب عن فرطاته	ما كان منه في الزمان الأول

فسبحان من أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كلّ شيء عدداً.

والورقة قيل: أيّ ورقة كانت. وقيل: ورقة شجرة تشبه الرمان تحت ساق العرش، فيها أوراق على عدد أرواح الخلائق، مكتوب في كلّ ورقة اسم صاحبها. وملك الموت عليه السلام ينظر إليها، فإذا اصفرت منها ورقة علم أن صاحبها قرب أجله، فيوجّه إليه أعوانه، فإذا سقطت قبض روحه. قيل: إنّ سقوطها على ظهرها علامة على حسن العاقبة، وعلى بطنها بالعكس، والعياذ بالله تعالى.

والحبّة: أقلّ قليل. قيل[2]: والرطب قلب المؤمن، واليابس قلب الكافر. وقيل: الحاضرة والبادية. وقيل: كلّ رطب ويابس.

والكتاب المبين: اللوح المحفوظ، وعلمه تعالى متعلق بجميع المعلومات على التفصيل. وانظر قول موسى عليه السلام: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] بعد قوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ [طه: ٥٢] فإنه نفى ما يستحيل من ذلك من توقع نسيان وضلال.

أصل: (على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنى، والصفات العلى. لم يزل بجميع صفاته وأسمائه. تعالى أن تكون صفاته مخلوقة،

---

(١) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم. من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، وهو في العقيدة على مذهب المعتزلة. توفي سنة ٥٣٨هـ. «الأعلام» (٧/ ١٧٨).

(٢) سقط من ١: (والحبة أقل قليل وقيل).

وأسماؤه محدثة. كلّم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه. وتجلّى للجبل فصار دكّاً من جلاله. وأنّ القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد).

[معنى استواء الله تعالى على العرش]:

شرح: قيل: استوى بمعنى استولى. أبو المعالي: «هو بمعنى القهر والغلبة». وقيل: فعل فعلاً في العرش سمّاه استواء. الشعبي[1]: «هو من متشابه القرآن، يؤمن به ولا يتعرض لمعناه».

قال مالك لرجل سأله عن هذا الاستواء، فقال له مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنّك رجل سوء، أخرجوه». فأدبر الرجل وهو يقول: يا أبا عبد الله لقد سألت عنها أهل العراق وأهل الشام فما وفّق فيها أحد توفيقك. قال ابن رشد: من قال الاستواء بمعنى الاستيلاء فقد أخطأ، لأن الاستيلاء لا يكون إلا بعد المغالبة».

وقيل: الاستواء بمعنى التمام والكمال، ومنه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: ٢٢] أي كمل. والله أعلم بمراده.

واتفق أهل السنة على صرف اللفظ عن ظاهره لكنهم انقسموا قسمين:

- قسم تأوّل على ما تقدم.
- وقسم قالها بنفي المحتمل المحال، ونمرُّ بها كما جاءت، ونقول: الله أعلم بالمراد.

قوله: (وعلى الملك احتوى).

أي كل شيء هو مملوك له، وفي قبضته، وتحت قهره، فلا ملك ولا مالك إلا الله تعالى.

---

(١) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، أبو عمرو. تابعي، يضرب المثل بحفظه. ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة. وهو من رجال الحديث الثقات. توفي سنة ١٠٣هـ. «الأعلام» (٣/ ٢٥١).

والاحتواء: الإحاطة.

[أسماء الله الحسنى وأقسامها من حيث مدلولاتها]:

قوله: (وله الأسماء الحسنى).

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] قيل: سبب نزولها أن رجلاً من المشركين سمع رسول الله ﷺ والمسلمين يدعون مرة ويذكرون: الرحمن الرحيم، فقالوا: ما باله ينهى عن عبادة الأصنام، وهو يدعو إلهين اثنين يقول مرة «الله» ومرة «الرحمن» فنزلت الآية(١). وقد تقدم أن أسماء الله تعالى توقيفية. والاسم يطلق تارة ويراد به المسمى ويطلق(٢) ويراد به التسمية.

واختلف هل هو حقيقة في المسمّى، مجاز في التسمية، أو العكس. أو حقيقة فيهما. فبالأول قال الجمهور، وبالثاني قال المعتزلة، والثالث للأستاذ أبي منصور من أئمّتنا. وممّا يدلّ على أن الاسم يراد به المسمّى قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف: ٤٠]. ومما يدل على أنّ الاسم يراد به التسمية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] «إنّ لله تعالى تسعة وتسعين اسماً»(٣) فإنه تعالى واحد والأسماء جمع بمعنى التسميات.

قال بعضهم: ينبغي أن يحمل اختلافهم هل الاسم هو المسمّى أو غيره على مثل ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] و﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] فهل المراد تعظيم هذا الاسم، فلا ينطق به إلا بالتعظيم والتوقير؛

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ١٢١) عن ابن عباس. قال: كان النبيّ ﷺ ساجداً يدعو: «يا رَحْمَنُ يا رَحِيمُ»، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، هو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ الآية.

(٢) سقط من ٢: (ويراد به المسمى ويطلق).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب إنّ لله مائة اسم إلا واحدة، ومسلم في الذكر: باب في أسماء الله تعالى.

أو تعظيم هذا المسمّى بتنزيه الله تعالى عن الأضداد والأنداد والشركاء. والله أعلم.

وإذا تقرر هذا فالأسماء في دلالتها على مدلولاتها على أقسام:

- فمنها ما يدل على الذات كالأول والآخر.

- ومنها ما يدل على صفات إثبات للذات كالعالم القادر.

- ومنها ما يدل على نفي النقائص كالقدوس السلام.

- ومنها ما يحتمل في دلالته الصفة الثابتة والأفعال، كـ «مؤمن» يكون بمعنى مصدّق، وهو خبره، وخبره[1] كلامه، وكلامه صفته؛ ويكون بمعنى خالق الأمن، وهو فعله.

والقول الجامع في ذلك أن يقال:

كل ما دلّ من هذه الأسماء على الذات، فالاسم هو المسمى. ثم التسمية إن كانت بكلام الله تعالى فلا هي المسمّى ولا غيره[2]؛ وإن كانت بكلامنا فهي غير المسمّى.

وكلّ ما دلّ على الصفات، فالاسم لا هو المسمّى ولا هو غيره. ثمّ التّسمية إن كانت بكلام الله تعالى فلا هي المسمّى، ولا هي الاسم، ولا هي غيرهما. وإن كانت بكلامنا، فهي غير الاسم وغير المسمّى.

وما كان دلّ على الأفعال، فالاسم غير المسمّى. ثمّ التسمية إن كانت بكلام الله تعالى فلا هي المسمّى ولا غيره، وهي غير الاسم، وإن كانت بكلامنا فهي غير المسمّى.

قال الأستاذ أبو الحسن[3]: وقد يكون الاسم والمسمّى والتسمية

---

(١) في ١: (مصدق وخبره كلامه) وفي ٢: (وهو خبرة كلامه) والتصحيح من ٣.

(٢) سقط من ١: (ولا غيره).

(٣) كذا في النسخ، والصواب: أبو إسحاق، كما في شرح الأنصاري. وأبو إسحاق هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الأسفرائيني. عالم بالفقه وأصوله، وبأصول الدين. كان يلقب بركن الدين. بنيت له مدرسة عظيمة بنيسابور كان يدرس فيها. له =

واحداً، كإخباره تعالى عن كلامه بالصدق. والتسمية والمسمى هو الكلام[1] لا غيره. ومن أصحابنا من قال إن المراد بالاسم المسمّى على كل حال، وسواء دلت التسمية على الذات أو أشعرت بصفة الذات أو فعل، قال: فالخالق اسم للذات لا للخلق، والعالم اسم للذات لا للعلم[2]. وعلى التقسيم الأول درج الجمهور.

وأما المعتزلة فالاسم غير المسمى عندهم على كل حال، قالوا: والمراد به التسمية حيث وقع.

وسبب الخلاف بيننا وبينهم، أنّا نقول بإثبات الكلام القديم وهم نافوه، وكذلك سائر الصفات، فلم يثبت لله تعالى على زعمهم أسماء في أزله ولا صفات. وقد شهدت قضايا العقول ودلائل الشرع المنقول بوجوب اتصاف الحق تعالى بصفات الكمال، وقضت باستحالة النقص وكل ما ينافي الجلال. ولهذا أكّد المصنّف رحمه الله تعالى هذا الفصل بـ:

قوله: (تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة).

أي إنّ صفة الله تعالى يجب أن تكون قديمة، لاستحالة قيام الحوادث به تعالى وكذلك أسماؤه؛ ولأنها ثابتة في الأزل بكلامه القديم.

قال بعضهم: انظر كيف[3] عطف المصنف الصفات على الأسماء.

وبالجملة، فمعتقد أهل الحق إثبات صفات الله تعالى، من العلم، والقدرة، والإرادة، وغير ذلك من الصفات التي وصف بها نفسه، وأجمع عليها أهل السنة.

= كتب في أصول الدين وأصول الفقه. وكان ثقة في رواية الحديث. وله مناظرات مع المعتزلة. توفي سنة ٤١٨هـ «الأعلام» (١/ ٦١).

(١) في ٢: (هو الاسم). (٢) في ١: (للعالم).

(٣) أضيف (كيف) من نسخة عدد ٦٢٢٢.

[صفة الكلام]:

قوله: (كلّم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه).

قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] قال بعضهم: أجمعت الأمة سنّيها وبدعيّها على أنّ الله تعالى كلّم موسى. واختلفوا في الكيفية:

قال أهل الظاهر: نؤمن بالكلام ولا نقول بالكيفية، إذ هو المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

وقالت الباطنية: خلق الله لموسى فهماً في قلبه أدرك به[1]، ولم يخلق سمعاً ولا صوتاً ولا غيره.

وقال أهل السنة: خلق الله تعالى لموسى فهماً في قلبه وسمعاً في أذنه سمع به كلاماً ليس بصوت ولا حرف، سمعه بأذنه وفهمه بقلبه وعلم بضرورته أن الله تعالى كلّمه من غير واسطة. قال ابن فورك: «وعلى هذا أجمع المسلمون». وما ذكر عن عبد الله بن سعيد[2] هنا فمتأوّل عنه.

وقالت المعتزلة: خلق الله فهماً وصوتاً في الشجرة، سمعه موسى بأذنه، بناء على مذهبهم في إنكار الكلام النفسي، وإنّ المتكلم حقيقة فاعل الكلام. ومذهبهم باطل لما يلزم عليه من نفي خصوصية الكليم ﷺ بالتكليم. وذلك أنّ الكلام كلّه لله تعالى؛ لأنّه إن كان قديماً فهو صفته، وإن كان حادثاً فهو فعله وخلقه؛ فيضاف إلى الله تعالى على الأوّل إضاف صفة، وعلى الثاني إضافة ملك. فلو كان موسى ﷺ إنّما سمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة أو في غيرها، لم تكن له خصوصية، ولبطل معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى

---

(١) أضيف (أدرك به) من ٣.

(٢) هو الإمام أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، إمام متكلمي أهل السنة في عهد أحمد بن حنبل. وكان ممن يرافق الحارث بن أسد. وهو أخو يحيى بن سعيد القطان إمام الجرح والتعديل. وانظر ما ذكره في صفة الكلام حتى قال الشارح: فمتأوّل عنه، فيما كتبه محمد زاهد الكوثري في تعليقاته على كتاب تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٨).

ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] إذ كلّ من سمع كلاماً فقد سمع كلام الله تعالى الذي يضاف إليه إضافة ملك وخلق، فأيّ مزية لموسى ﷺ، فلا بد وأن يكون اختص بسماع الكلام الذي هو صفة الحق تعالى، المنزه عن الحرف والصوت.

والكلام عند أهل الحق صفة تقوم بنفس المتكلم تدلّ عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات. فهو حقيقة في النفسي، مجاز في اللساني. هذا مذهب الأشعري؛ واحتج على ذلك بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللّسان على الفؤاد دليلاً

وذهب جمهور المتأخرين أنه حقيقة فيهما. وذهب أبو المعالي إلى أنه حقيقة في اللساني، مجاز في النفسي.

والدليل على ثبوت المعنى الذي في النفس؛ الشرع واللغة والعقل:

فالشرع: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨].

واللغة قول الأخطل: إن الكلام، إلى آخره؛ ويقول عمر ﷺ: «زوّرت في نفسي كلاماً».

والعقل: إجماع العقلاء أنّ الآمر إذا أمر عبده بشيء، فإنه يجد من نفسه اقتضاء وطلباً حالة التعبير، فهو كلام النفس الذي ندّعيه.

تنبيه: اختلف الناس في سماع نبينا محمّد ﷺ كلام الله تعالى ليلة الإسراء، وفي سماع جبريل لكلام الله تعالى. وفيه من الكلام ما هو معلوم في «الشفا»[١] وغيره.

قوله: (بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه).

لما انقسم الكلام إلى صفة ذاته وإلى غيره، بيّن المصنف رحمه الله تعالى أن الله تعالى كلّم موسى ﷺ بكلامه الذي هو صفة ذاته، تنبيهاً على بطلان مذهب المعتزلة.

---

(١) هو كتاب «الشفا» للقاضي عياض.

وقوله: (لا خلق من خلقه) يحتمل أن يريد أنّ موسى عليه السلام ما كلّمه مخلوق، أو أنّ الكلام الّذي كلّم الله به[1] موسى قديم؛ إذ هو متكلّم بكلام قديم هو صفته لا مفتتح لوجوده، ولا غاية لمتعلّقاته، وهو واحد لا يتعدّد بتعدّد المتعلّقات، كما أنّ العلم واحد لا يتعدد بتعدّد المعلومات، وكذلك القول في سائر الصفات.

[معنى تجلّي الله تعالى للجبل]:

قوله: (وتجلّى للجبل فصار دكّا من جلاله).

معنى تجلّى ظهر وبان. ومعنى ظهوره خلق الرّؤية في محلّ من تجلّى له فرآه بها. وقيل: أظهر من أمره وقدرته ما صار الجبل به دكّاً. وقيل: أظهر له آية من ملكوت السّماء.

وقال الأشعري: معناه فعل فعلاً سمّاه تجلياً. قيل: وفي الكلام دليل على أنّ الله تعالى خلق للجبل الرؤية والحياة والعلم؛ أمّا الرؤية فبدليل (تجلّى)؛ وأمّا العلم فبصيرورته دكّاً إذ هو من الخشية ولا يخشى إلّا عالم؛ وأمّا الحياة فلأنّها شرط في العلم والرؤية، والمشروط لا يوجد بدون شرطه.

ودكّاً: قال المبرد: «معناه جعله أرضاً، وناقة دكّاء لا سنام لها». بعض المفسّرين: ساخ الجبل في الأرض، فهو يذهب حتّى الآن.

واستدل بسؤال موسى الرّؤية على جوازها، وسيأتي الكلام على مسألة الرؤية إن شاء الله تعالى.

وجلاله: عظمته، وهو الجليل الّذي يصغر دونه كلّ جليل، ويتّصنع معه كلّ رفيع، سبحانه.

[معنى القرآن لغة وشرعاً، وأنّه كلام الله تعالى، وأنّه غير مخلوق]:

قوله: (وأنّ القرآن كلام الله) إلى آخره.

---

(١) أضيف (به) من ٣.

القرآن: لغة هو المجموع، قرأت الماء في الحوض إذا جمعته. ويطلق شرعاً ويراد به الكلام القديم، ويراد به العبارة عنه الّتي هي قراءة الخلق، ويراد به المكتوب. ولشهرته في الكلام القديم لا يفهم عند الإطلاق إلّا هو، فلهذا امتنع إطلاق القول بأنّ القرآن مخلوق.

واختلف إذا كان الإطلاق مقيّداً كقول القائل: كلامي بالقرآن مخلوق، أو تعلّمي ونحوه، ممّا ينفي الإيهام؛ فذهب البخاري وابن سعيد[1] إلى جواز ذلك، وعليه أكثر المتأخّرين. وذهب الإمام ابن حنبل والأشعري إلى المنع حسماً للذريعة.

قوله: (ليس) إلى آخره.

لما كان الموجود الحوادث إمّا جوهراً أو عرضاً، وكلّ جوهر فهو فان، أو بصدد الفناء؛ فعبّر عن ذلك بقوله: **(فيبيد)**. وكلّ عرض فهو مستحيل البقاء أكثر من زمان واحد عبّر عنه بقوله: **(ينفد)** وكلّ مخلوق لا يخرج عن الوصفين، وقد خرج القرآن عنهما، فليس بمخلوق. وعنه ﷺ: «القرآن كلام الله ليس بمخلوق»[2]. وقال الضرير:

قراءة الخلق صفات لهم	فواجب حدوثها مثلهم
وقوله المقروء من صفاته	فواجب قدمه كذاته
وهو الّذي سمعه الكليم	وهو كلام ربّنا القديم
ليس له شبه ولا مثال	ولا له عن ذاته انتقال
وهذه الرسوم والأصوات	دلائل عليه موضوعات
كما يدلّ الذكر والكتاب	عليه جلّ الملك الوهّاب
ثم القراآت ذوات غاية	وليس للمقروء من نهاية
فنوعت القرآن بالكتاب	وليس للمقروء من إيعاب

(١) في ٢: (ابن سعيد الكلامي) وفي ٣: (أبو سعيد الكلابي) وهو الصواب. وورد اسمه في شرح الأنصاري: عبد الله بن سعيد.

(٢) لا يعرف مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولا إلى أحد من أصحابه.

كما أتى في محكم القرآن في آخر الكهف وفي لقمان

يريد قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] الآيتين والكلام في هذه المسألة فيه طول وفيما ذكرناه كفاية.

أصل: (والإيمان بالقدر خيره وشرّه، حلوه ومرّه، وكلّ ذلك قد قدّره الله ربنا. ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه. علم كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره. لا يكون من عباده قول ولا عمل إلّا وقد قضاه وسبق علمه به، ألا يعلم من خلق وهو اللّطيف الخبير).

[الإيمان بالقدر]:

شرح: القدر قيل: هو الإرادة وإنّه لا فرق بين قدّر وأراد. والقضاء قيل: الإرادة، وقيل: الفعل المقدّر. والإيمان بالقدر واجب، وفي حديث عمر: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثّياب، شديد سواد الشّعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منّا أحد. حتى جلس إلى النّبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبته، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: «يا محمد أخبرني عن الإسلام». قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: «صدقت». فعجبنا له يسأله ويصدّقه. ثمّ قال: «أخبرني عن الإيمان». قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه». قال: «صدقت». قال: «أخبرني عن الإحسان». قال: «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» قال: «أخبرني عن السّاعة». قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السّائل». قال: «فأخبرني عن أمارتها». قال: «أن تلد الأمة ربّتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان». قال: «صدقت». فلبث مليّاً ثمّ انصرف. فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون من السّائل؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّه جبريل أتاكم ليعلّمكم

دينكم». الحديث في مسلم[1]. وهو صريح الدّلالة على أنّ الإيمان بالقدر من حقيقة الإيمان.

قد تبرّأ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ممّن أنكر القدر. وعنه عليه السلام قال: «لعنت القدريّة على لسان سبعين نبيّاً آخرهم أنا»[2]. وقال: «القدريّة مجوس هذه الأمّة»[3] والقدري مدّعي القدر لنفسه.

وقد ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال لقدري: «أتقدر بالله، أم مع الله، أم دون الله؟ فإن قلت بالأوّل فأنت مؤمن، وإلّا ضربت عنقك». وقال لآخر: «أخلقك كما شاء أو كما شئت»؟ فقال: كما شاء. قال: «ويصرفك[4] فيما شاء أو فيما شئت»؟ قال: فيما شاء. قال: «ويصيّرك إلى ما شاء أو إلى ما شئت؟» قال: إلى ما شاء. قال: «إذن ليس لك من الأمر شيء».

فتبّاً لطائفة يقولون: إنّ الله تعالى يخلق الخير ولا يخلق الشرّ، ولا يقع بإرادته؛ فيجعلون لله شريكاً في ملكه، وتعالى الله تعالى في ملكه علوّاً كبيراً.

وقال عليه السلام: «كلّ شيء بقضاء وقدر حتّى العجز والكيس»[5]. وعنه عليه السلام: «إنّ الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض»[6].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان: باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان، ومسلم في الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

(٢) أخرجه الدّارقطني في العلل عن علي، بدون جملة «آخرهم أنا» «جامع الأحاديث والمراسيل» (٦/ ٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود في السنّة: باب القدر، والحاكم في الإيمان: باب القدرية مجوس هذه الأمة، وقال: حديث صحيح عل شرط الشيخين، إن صحّ سماع أبي حازم من ابن عمر، ووافقه الذهبي.

(٤) في ٢: (ويسيرك).

(٥) أخرجه مالك في القدر: باب النهي عن القول بالقدر، ومسلم في القدر: باب كل شيء بقدر، عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى العَجْزِ والكَيْسِ، أَوِ الكَيْسِ والعَجْزِ».

(٦) أخرجه مسلم في القدر: باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، بلفظ: «كتب الله مقادير =

والقدر في جميع هذه الأحاديث المراد به الإرادة؛ قاله القاضي أبو بكر وغيره من أئمّة الدين.

[صفة الإرادة وقدم اتصافه تعالى بها]:

إذا تقرّر هذا، فالله تعالى مريد بإرادة موجودة قائمة بذاته، لا مفتتح لها؛ لاستحالة قيام الحادث بذاته تعالى. وهي متعلّقة بجميع الكائنات كلّها خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، عرفانها ونكرانها، إيمانها[1] وكفرانها؛ خَلْقٌ لله تعالى مرادة له، لا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه.

قيل لبعضهم: ما حكم الله تعالى أزلاً؟ وما حكمه الآن؟ وما حكمه في المستقبل؟ فقال: أمّا حكمه أزلاً فقدّر مقادير الأشياء، فلا يقع الآن شيء إلّا وقد قدّر وقوعه في الأزل، في وقته الخاص، وصفته الخاصّة، لا يتقدّم شيء عن ذلك ولا يتأخر، ولا يتبدّل ولا يتغيّر. وأمّا حكمه الآن فيقضي ما قدّره في أزله شيئاً بعد شيء ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي كلّ زمان، هو ينفذ تعالى ما سبق به قدره، من عزّ وذل، وحياة وموت، وإعطاء ومنع، لا إله إلّا الله العزيز الحكيم. وأمّا حكمه في المستقبل، فهو قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

قوله: (وكلّ ذلك قد قدّره الله ربّنا) وكلّ ذلك تأكيد للجملة الأولى.

قوله: (ومقادير الأمور) إلى آخره. أي إنّ سائر الموجودات مقدّرة بمقادير مخصوصة.

قوله: (بيده) أي بقدرته. واليد إذا أضيفت إلى الله تعالى فإنّما هي القدرة، سواء وردت مفردة أو مثنّاة أو مجموعة: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١].

= الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء».

(١) سقط من ٢: (ونكرانها إيمانها).

[قدم علم الله تعالى وجريان إرادته على وفق علمه]:

قوله: (علم كلّ شيء) إلى آخره.

أي ما من شيء يكون ويقع في هذا العالم، إلا وقد سبق علمه تعالى [به]، وأراد وقوعه، فجرى ذلك الواقع على حسب ما أراده وعلمه. وذكر الشيخ هنا مسألتين يعتنى بهما:

الأولى: أنه تعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون.

الثانية: أنّه ما علم أن سيكون فإنّما يقع على قدره ومشيئته.

فأما الأولى: فنقول قد ثبت بالدلائل اليقينية، وجوب اتصاف الحق تعالى بالعلم المتعلق بجميع المعلومات؛ ووجوب قدمه لاستحالة قيام الحوادث بذاته؛ ووجوب بقائه لاستحالة عدم القديم.

إذا تقرّر هذا، فيستحيل أن يتحقق حقيقة ولم يتعلق بها علمه؛ لأن تعلقه بما يتعلق به هو حقيقته؛ فلو قدّرت معلوماً واحداً لم يتعلق به علمه للزم منه إبطال حقيقة علمه؛ لأنه عام في تعلقه، فالمعلوم بالعلم تختلف أحواله، والعلم يكشفه في جميع أحواله، فتارة يكون عدماً، وتارة يكون وجوداً، وتارة يستمر وجوده، وتارة ينقطع؛ فإذا كان المعلوم عدماً يسمى نفياً ومعدوماً، وإذا كان وجوداً سمي ذاتاً وحدثاً، وإذا استمر وجوده سمي باقياً، والعلم تعلق به في جميع أحواله، ولا يلزم من اختلافها اختلاف العلم ولا تجدّد. والذي يقرب للذهن في ذلك أنّا لو فرضنا قيام العلم مثلاً بزيد أنّ عمراً يموت عند غروب الشمس، وقدّرنا استمرار ذلك العلم حتى غربت الشمس، فمات عمرو، لقطعنا أنه لم يحدث في زيد حادث، ولم يتجدّد عليه أمر[1] آخر؛ لأن علمه كشف له حالتين من أحوال عمرو. حالة هو فيهما حي وحالة هو فيها ميت، وكلّ حالة مختصة بوقتها، فيتعلق العلم بوجود حياته قبل الغروب، وبوجود موته عند الغروب وتنتفي حياته، فإذا وجد موته عند الغروب وانتفت

---

(١) سقط من ٢: (أمر).

حياته، فقد وقع الشيء على وفق العلم، ولم يحدث للعالم بذلك أمر لم يكن فيه؛ فالاختلاف معقول متصور في المعلوم وهو منتف في العلم. والأمثلة تقريب للأفهام وتشحيذ للأذهان. وإذا جاز هذا في العلم الحادث مع تقدير بقائه، وإن كان مستحيل البقاء، فأحرى ثبوته في حق القديم الواجب البقاء؛ فالباري تعالى عالم ما سيكون، قبل أن يكون، وعالم بما لا يكون أن لو كان كيف يكون. والمعلومات مقيّدة بالزمان فيقدر فيها اختلاف أحوالها وتجدّد ألقابها[1] وأسمائها، وما لا يتقيد بالزمان فلا تتجدّد عليه الأحوال ولا تحدث له الأسماء.

أما المسألة الثّانية ممّا علم تعالى وقوعه، فلا بدّ أن يقع لاستحالة انقلاب العلم جهلاً؛ وحينئذٍ إمّا أن يقع مراداً له أوْ لا، وتقدير وقوعه غير مراد له يلزم منه أن لا يكون فعله، وقد قام الدليل أن لا فاعل إلا الله؛ فإذا كان فعله فلا بد أن يكون مقصوداً له، والقصد والتخصيص حقيقة الإرادة، فعلى هذا عقيدة أهل السنّة أنّ الله[2] تعالى علم كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره.

قوله: (لا يكون من عباده) إلى آخره.

تنبيه على مذهب المعتزلة في أقوال العباد وأعمالهم.

قوله: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) [الملك: ١٤].

هذا نصّ التنزيل، أي ألا يعلم الخالق خلقه؟ أيصدر مخلوق من غير أن يعلمه خالقه؟ فـ «من» مرفوع على الفاعلية، والمفعول محذوف، ولا يصح أن يكون في موضع نصب، لما يلزم عليه من الاعتزال فتأمله.

و(**اللطيف**) اسم من أسمائه تعالى الحسنى، وهو إما بمعنى ملطف فيكون من أسماء الأفعال؛ أو بمعنى الباطن، وهو الذي لا يتصور في الأوهام ولا

---

(١) في ٢: (بقائها).

(٢) أضيف من ٣: (فعلى هذا عقيدة أهل السنة أن الله).

يتخيل[1] في الضمائر والأفهام، فيكون من أسماء التنزيه.

ويحتمل أن يكون بمعنى العليم، أي أنّه تعالى يعلم الخفيات، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] فيكون مبالغة في تعلق العلم، فيكون من أسماء الصفات.

الخطابي: اللطيف هو البرّ بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩].

ابن العربي[2]: «اللطيف الذي يوصل إليك أربك برفق، ومنه قولهم: لطف الله بك، أي أوصل إليك ما تحب برفق».

ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية، وهو راجع لما تقدم.

أصل: (يضلّ من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفّقه بفضله، فكلّ ميسّر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد. تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون خالق لشيء إلا هو ربّ العباد، وربّ أعمالهم، والمقدّر لحركاتهم وآجالهم).

[خلق أفعال العباد]:

شرح: تقدم في الخطبة شيء من الكلام على الهدى والضلال. وضابط هذا أن لا خالق إلا الله، فكلّ مخلوق فعن قدرته حدث، وعن إرادته تخصّص. والهدى والضلال من ذلك، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، إلى غير ذلك.

وممّا يدلّ على ما قرّرناه من جهة العقل، أنّ المقدور الواقع في الوجود

---

(١) في ٢: (يستحيل).

(٢) في ٢: (ابن الأعرابي).

إمّا أن يقع بقدرة الله أو بقدرة غيره، أو بقدرة الله وقدرة غيره، أو لا بقدرة الله ولا بقدرة غيره. والأقسام الثالثة الأخيرة باطلة، فوقوعها إذاً إنما هو بقدرة الله تعالى.

فإن قيل: فقد ورد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ﴿تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] إلى غير ذلك مما يدل على أن أفعال العباد مضافة إليهم.

الجواب: أنه لما قام[1] البرهان على أن لا خالق إلا الله، تعيّن حمل ما ظاهره مخالف لذلك على المجاز، بإضافة الفعل إلى العبد إضافة مجازية؛ لأنه لما كان من كسبه وفي محلّه وهو موصوف بالاستطاعة عليه، فأضيف إليه.

فإن قيل: هذا غير معقول؛ لأنه إذا انتفى الخلق عن العبد لم يبق إلا أنه مجبور، إذ لا واسطة، ولذا قال الفخر: «والحقّ الجبر».

قيل: الأمر ليس كذلك، فإن الجبر حقيقة خلق المقدور في محلّ العبد من غير خلق قدرة عليه؛ والكسب خلق القدرة والمقدور معاً، وبالضرورة تجد الفرق بين حركة المرتعش وغيره، فهو منزلة بين منزلتين وهو معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥].

وسئل الحسن[2] فقيل له: أجبر الله عباده؟ فقال: «الله أعدل من ذلك». فقيل له: فهل فوّض إليهم؟ فقال: «الله أعزّ من ذلك؛ لو جبرهم لما عذبهم، ولو فوضهم لما كان للأمر معنى، ولكنها منزلة بين منزلتين أبعد ما بين السماء والأرض، ولله فيه سرّ لا تعلمونه».

وقد صرّح القرآن العزيز بحقيقة هذه المنزلة قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

---

(١) في ٢: (قدم).

(٢) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب، من علماء التابعين بالقرآن والفقه والأدب، ومن عباد البصرة وزهادها. توفي سنة ١١٠هـ (٢/٢٢٦).

رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفي للخلق والإيجاد، ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للكسب والاستطاعة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إثبات للخلق والاختراع له سبحانه.

قوله: (فكلّ ميسّر بتيسيره) إلى قوله: **(أو سعيد)**.

أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى اعتقاد حقيقة كلّية لا يجوز خلافها، وهو أنّ كلّ مخلوق مهيّأ بتهيئة الله تعالى إلى ما سبق من علمه وإرادته، من جميع الحركات والسكنات، من طاعة أو معصية أو مباح، حتى اللحظات واللفظات والأنفاس؛ كلّ ذلك مراد مقدور لله تعالى معلوم له في أزله، وهو كائن على ما علمه وأراده. ولله درّ القائل:

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يمضي الفتى والمسنّ

فهذا هديت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن

فهذا شقي وهذا سعيد ... وهذا قبيح وهذا حسن

اللهم وفقنا، واهدنا، ويسرنا لطاعتك، واغفر لنا ما قصرنا فيه من حقوقك، أو خالفنا فيه أمرك، بمشيئتك السّابقة وإرادتك. اللهم احفظنا بحفظك، واسترنا بجميل سترك، والطف بنا في الدنيا والآخرة، يا أرحم الراحمين.

قوله: (تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد).

وهذا مذهب أهل الحق من الأئمة وسلف الأمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهو أنّ الله تعالى مريد لجميع ما وقع في سلطانه، وكل فعل من أفعال عبيده على اختلاف أحكامها وتباين أقسامها.

وروي أنّ رجلاً جاء إلى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال له: أنت الّذي تزعم أنّ الله تعالى أراد أن يعصى، قال: «نعم»؛ قال الرّجل: ما أراد الله تعالى أن يعصى؛ فقال ابن عبّاس: «ويحك فما أراد؟» قال: أراد الله أن يطاع ولا يعصى؛ قال ابن عباس: «ويحك فمن حال بين الله وبين ما أراد؟».

ويذكر أنّه اجتمع عبد الجبار الهمذاني[1] يوماً مع الأستاذ أبي إسحاق الأسفرائيني، فقال عبد الجبار: سبحان من تنزّه عن الفحشاء. ففهم عنه الأستاذ أنّه يريد عن خلقها، فهي كلمة حق أريد بها باطل. فقال الأستاذ: «سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما شاء». فالتفت إليه عبد الجبار وعرف أنه فهم عنه، فقال له: أيريد ربنا أن يعصى؟ فقال له الأستاذ: «أفيعصى ربنا قهراً؟» فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علينا بالردى أأحسن إلي أم أساء؟ فقال له الأستاذ: «إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء». فانصرف الحاضرون وهم يقولون: ليس عن هذا والله جواب.

ويذكر أنّ هذه المباحثة وقعت بين رجل والحسن[2] بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وأنّ الحسن لما كمّل جوابه انصرف الرجل وهو يقول: الله يعلم حيث يجعل رسالاته.

وفيما يذكر عن الحسن من هذا نص يريد، وجوابها والله أعلم بصحة ذلك.

واختلف العلماء هل يجوز إطلاق القول بأن الله تعالى أراد الكفر والمعصية أم لا؟ فقال ابن سعيد القلانسي[3]: «لا يجوز إطلاق ذلك وإن صح في الاعتقاد؛ لأن الإطلاق يلزم فيه الأدب مع الله تعالى، ولأنّ ذلك يوهم أن المعصية حسنة مأمور بها».

وقيل: بالجواز، قال ابن العربي[4]: قال شيخنا: «والصحيح الجواز

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسدابادي، أبو الحسن. المتكلم. كان شيخ المعتزلة في عصره. له تصانيف كثيرة. توفي سنة ٤١٥هـ. «الأعلام» (٣/ ٢٧٣).

(٢) القصة في ٢ وقعت مع الحسين عليه السلام.

(٣) ورد اسمه في شرح الأنصاري: عبد الملك بن سعيد القلانسي.

(٤) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن العربي المعارفي الإشبيلي، المالكي، من أعلام الأندلس وقضاتهم، تأدب ببلده، ثم رحل إلى المشرق، وعاد =

حيث لا إيهام ومنعه حيث الإيهام». قلت: والأظهر الأول مع اعتقاد ألا خالق إلا الله، وأنّ جميع الكائنات بمراده. وانظر قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾ [الجن: ١٠].

قوله: (أو يكون لأحد عنه غنى).

لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥].

والعالم كله علويه وسفليه محتاج إلى الحق سبحانه الغني على الإطلاق، وأن يمدّه بصفاته وشروط بقائه في كل زمان فرد. ولو استغنى مخلوق واحد عنه للزم استغناء جميع المخلوقات، ولانقلب الجائز واجباً وصار المحتاج غنياً، إلى غير ذلك من المحالات. قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤١﴾ [فاطر: ٤١].

قوله: (أو يكون خالق لشيء إلّا هو رب العباد وربّ أعمالهم).

لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

قوله: (ربّ العباد وربّ أعمالهم).

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]. والربّ هو الخالق، وهو المصلح للمربوب، القائم بأموره، الخالق له منافعه، الدافع عنه مضارّه.

وإذا أطلق وأضيف إلى مشرّف من العالم فالمراد به الحقّ تعالى؛ كربّ العالمين وربّ الملائكة. وقد يطلق على غير الله تعالى كربّ العبد أو الثّوب، بالإضافة إلى بعض المخلوقين التي ملّكها الله تعالى لعباده.

= بعلم كثير. له مؤلفات هامة في التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والتصوف. ولد سنة ٤٦٨هـ، وتوفي سنة ٥٤٣هـ. «الأعلام» (١٠٦/٧).

قوله: (والمقدّر لحركاتهم وآجالهم).

الحركة: ضدّ السكون وهي الكون الثّاني في الحيز[1] الثاني.

والآجال: جمع أجل، وهو مدّة الشّيء ووقته، وهو وقت حدوث الموت. ومذهب أهل الحقّ أنّ كلّ مقتول فإنّه مات عند أجله المقدّر، خلافاً للقدريّة في قولهم إنّ المقتول قُطع عليه أجله، وهو باطل لأنّه تعالى علم كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره. فوقت القتل هو الأجل المقدّر له أن لا يتأخّر عنه طرفة عين. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فإن قيل: فما ذنب القاتل إن كان المقتول مات لأجله كما قلتم؟

قيل: ذنبه أنّه تعدّى على قتله له على وجه أُمِر بخلافه. والموت الحادث بعد القتل اتفقنا على أنّه مخلوق لله تعالى، وأن لا صنع للقاتل فيه؛ فيقال له: إذا لم يفعل القاتل موته فما ذنبه؟[2].

فإن قيل: فما بال القاتل يقتصّ منه وقد قلتم أنّ المقتول مات بأجله ومراد ربّه؟ ولأيّ شيء يحكمون بضمان من ذبح شاة لغيره بغير إذنه، مع أنّه قد أحسن في تذكيتها، لو لم يذكّها لماتت حتف أنفها فيحرم أكلها[3]؟.

قلنا: القصاص والضّمان حكم شرعي دار مع التعدّي بما ذكر وعدمه وجوداً وعدماً، فليس للعقل فيه مجال.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقد دلّت كلّ واحدة من الآيتين على تعدّد الأجل ونقصه وتمامه، وأنتم تقولون باتّحاده وعدم زيادته ونقصانه، فما جوابكم عن ذلك؟.

قلنا: أمّا الآية الأولى من الآيتين فقد اختلف السّلف في تفسيرها فقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة والضحّاك (أجلا) أجل الإنسان من لدن ولادته

---

(١) في : (من الخير) وفي ٢: (من الجبر) وفي ٣: (الحين) والصواب ما أثبتناه.

(٢) سقط من ١: (فيقال... فما ذنبه).

(٣) سقط من ٢: (فيحرم أكلها).

إلى موته. والأجل المسمّى عنده، من وقت موته إلى وقت حشره. ووصفه بمسمّى عنده من وقت موته[1]؛ لأنه استأثر بعلم وقت القيامة.

وقال ابن عبّاس: «أجل الدنيا، وأجل مسمّى عنده الآخرة». وقال مجاهد بعكس هذا. وقيل: الأول وفاة النّوم، والثاني وفاة الموت. وقيل: الأول ما عرف النّاس من أجل الأهلّة والسّنين، والثاني قيام الساعة. وقال ابن زيد: الأول وقت أخذ الميثاق من بني آدم حين استخرجهم من ظهر آدم، وبقي أجل واحد مسمّى[2] في هذه الحياة الدنيا. والله أعلم بمراده.

وأمّا الآية الثانية فالمراد والله أعلم: ولا ينقص من عمره في صحائف الملائكة، وهو في علم الله واحد لا يزيد ولا ينقص، أو من عمر أقرانه وأمثاله. كذا قيل والله أعلم.

فإذا تقرّر هذا كان تمسّكهم بالآيتين في إثبات ما ادّعوه من القول بالأجلين باطلاً. والله أعلم.

أصل: (الباعث الرسل إليهم، لإقامة الحجّة عليهم. ثمّ ختم الرّسالة والنّذارة والنّبوّة بمحمّد ﷺ، فجعله آخر المرسلين بشيراً. ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدى به الصّراط المستقيم).

شرح: الباعث: من أسمائه تعالى، ومعناه هنا بعث الرّسل إلى العباد بالأمر والنهي، وهما يرجعان إلى كلامه ﷻ، فيكون الاسم على هذا من أسماء الصّفات.

[تعريف الرسول والنبي]:

والرسول هو المبلّغ عن الله تعالى أمره ونهيه بإذن الله. والنّبوءة مشتقّة من النبأ، وهو الخبر لأنّه مخبر عن الله. وقيل: من النّبوة وهو الارتفاع.

(١) سقط من ٢: (من وقت موته).
(٢) في ٢: (بغير أجل وأجل مسمى).

[بعث الرسل للعباد وكونه من أحكام الله تعالى الجائزة لا الواجبة]:

وبعث الرّسل من أحكام الله تعالى الجائزة. فكلّ من أظهر الله تعالى على يديه آية دالة على صدقه فهو رسول الله حقاً.

[شرط المعجزة للنبي]:

ومن شرط الآية أن تكون فعلاً خارقاً للعادة، مقرونة بالتحدّي، مع عدم المعارضة، موافقة لدعوى التحدّي. زاد القاضي أبو بكر: «في زمن تصحّ فيه».

فإذا اجتمعت هذه الشروط فيضطر المشاهدون لها إلى أنّ الله صدّق بها من ظهرت على يديه، فتنزّلت منزلة «صدق عبدي أنا أرسلته».

ثمّ ينقل ذلك الجمّ الغفير الذي يستحيل عليه الكذب لمن بعدهم فيحصل لهم العلم بصحّة الرّسالة، فيجب عليهم السّمع والطّاعة، وامتثال ما أمروا به، واجتناب ما نهوا عنه، وتصديقهم في كلّ ما أخبروا به من أحوال المعاد، والجنّة والنّار، وسائر مخبراتهم، لوجوب عصمتهم من الخُلف في أقوالهم وأفعالهم.

[حكمة بعثة الرسل]:

قوله: (لإقامة الحجّة عليهم).

تنبيه على فائدة البعث، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وقالت المعتزلة: ابتعاث الرسل ﷺ حكم واجب بالعقل، بناء منهم على مذهبهم في التّحسين والتّقبيح والإصلاح، وهو باطل[1]. وقالت البراهمة[2]: ابتعاث الرسل محال، ولا فائدة في ذلك.

---

(١) سقط من ١: (وهو باطل).

(٢) البراهمة: فرقة ضالّة كافرة لا يجوّزون على الله تعالى بعثة الرسل. وهم قبيلة بالهند، نسبتهم إلى رجل منهم يقال له: برهام، قد مهّد لهم نفي النبوات وقرر استحالة ذلك =

فالمعتزلة أفرطوا وتحكّموا على العزيز. وهو تعالى الحليم الذي لا يعجل. والبراهمة أفرطوا فجهلوا أمر ربّهم، وجحدوا ما علم وقوعه بضرائر العقول، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فقالوا: الباري تعالى متفضّل بإرسال الرسل منّة منه تعالى على عباده ونعمة.

[ختم النبوة بمحمد ﷺ وحكمة إرساله]:

قوله: (ثمّ ختم الرّسالة) إلى آخره.

الختم في اللغة: الطبع. والخاتم الطّابع. وختام الشيء آخره. ختامه مسك، قال الجوهري: «آخر ما يجدونه رائحة المسك».

ولمّا كانت رسالته ﷺ مانعة من ظهور رسالة ونبوءة بعده، شبّه بالخاتم المانع من ظهور ما ختم عليه، فكان خاتمهم ﷺ.

نكتة: تقدّم أنّ عدد المرسلين ثلاثمائة وثلاثة عشر. أشار بعضهم إلى أنّ اسمه ﷺ «محمّد» تضمّن هذا العدد الخاص، إذ تركّب من: ميم، حاء، ميم، ميم، دال. وإنّما كرّرت ميم في الوسط لأن الحرف مشدّد، فهو بميمين. ثم تقول: ميم بتسعين، إذ هو في الهجاء ثلاثة أحرف، والميم الواحدة بأربعين، والياء بعشرة، والميم بأربعين؛ وحاء بتسعة، وميم وميم بمائة وثمانين؛ ودال بخمسة وثلاثين؛ فكان المجموع ما ذكر ثلاثمائة وأربعة عشر. فالواحد الزائد على عدد الرسل بزيادته ﷺ على سائر الرّسل بالمقام المحمود، الذي تظهر به مزيّته، ويكون سائر الخلق تحت لوائه، آدم فمن سواه من ذريته ﷺ. وهذا العدد هو عدد أصحاب بدر، والله أعلم[1].

= في العقول. ومن الناس من يظنّ أنّهم سمّوا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام، وهذا خطأ فادح، فإنّ هذه الفرقة هي المخصوصة بنفي النبوات أصلاً فكيف يقولون بإبراهيم. انظر: «الملل والنحل» (٣/٧٠٦ ـ ٧٠٩).

(١) هذه الفقرة وردت في ١ و٢ مضطربة وبها سقط، وقد أوردناها من النسختين ٦٢٢٢ و١٨٣٩٣. وهذا.

قوله: (النذارة) معناه التحذير من السوء والتّخويف من عقاب الله.

والبشير من البشارة، بكسر الباء وضمّها، الإخبار بالخير. وبفتح الباء الجمال.

وإذا كانت مطلقة فلا تكون إلّا بالخير، فإذا قيّدت جاز أن تكون بالشر، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وسمّيت بشارة لأنّ بشارة الإنسان تحسن عندها. والبشرة ظاهر الجلد، والأدمة باطنه.

فائدة: المعتبر في البشارة الأول خاصّة، بخلاف النذارة فإنّها معتبرة في الجميع.

قال الفقهاء: لو قال: من بشّرني من عبيدي بكذا فهو حرّ، فبشره واحد بعد واحد[1]، لم يعتق عليه إلّا الأوّل. وفي النّذارة يعتقون جميعاً. والفرق أنّ مقصود البشارة حصل بالأوّل، بخلاف النذارة فإنّه يزيد الخوف.

قوله: (وداعياً إلى الله بإذنه) إلى **قوله: (منيراً)**.

الدّعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأحديّة ومكافحة الكفر.

وبإذنه: معناه هنا بأمره.

وسراجاً منيراً: استعارة للنّور الذي يتضمّنه شرعه، فكأنّ المهتدين به المؤمنين يخرجون به من ظلمة الكفر. قيل: وجه الشّبه أنّ نور السّراج يزيل الظّلمة الحسّيّة، ويظهر الأشياء الخفيّة للأبصار؛ ونوره ﷺ يزيل ظلمة الجهل، ويظهر المعاني الخفيّة للبصائر.

ووصفه بمنير لأنّ من السّراج ما لا يضيء إذا أكل سليطه ودقت فتيلته.

وقيل: سراجاً منيراً، أي حجّة قاطعة ظاهرة بيّنة. وقيل: أي ذا سراج منير[2] وهو القرآن.

---

(١) سقط من ١: (واحد).

(٢) سقط من ١: (منير).

وإنّما شبّهه بالسّراج المنير دون الشمس والقمر؛ لأنّ نور السراج يقتبس منه، وإذا غاب بقي نور فروعه، بخلاف الشمس والقمر، فإنّه لا يقتبس منهما، فإذا غابا غاب نورهما.

وقد أخذت عنه الأنوار في حياته واستمرت إلى ما بعد وفاته ﷺ. ولمّا كان نوره ﷺ معقولاً ونور السّراج محسوساً، والمحسوس من حيث هو محسوس، ولعلّه أدنى من المعقول[1]، شبّه نوره ﷺ الذي هو أعلى، بنور السراج الذي هو أدنى. والأصل تشبيه الأدنى بالأعلى، وإنّما عدل عن ذلك لما ذكرناه. والله أعلم.

[القرآن الكريم معجزة محمد ﷺ، ووجوه إعجازه]:

قوله: (وأنزل عليه كتابه الحكيم).

وصفه بالحكيم إمّا لأنّه أحكمت آياته، فلا يقع فيها نسخ بعد إحكامها؛ أو لأنّه أحكمت فيه علوم الأوّلين والآخرين؛ أو لأنّه أحكم على وجه لا يقع فيه اختلاف، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أنزله تعالى كتاباً ذا معجزات باهرات، وآيات ظاهرة، وحجج صادقة، ودلالة قاطعة، دحض بها حجج المبطلين، وقوّى به الإسلام والدّين. فيه نبأ الأوّلين والآخرين. لا تنقضي عجائبه ولا تنفد غرائبه. وهو آية من آياته ﷺ العظمى، تحدّى بجميعه العرب فانقطعوا، فتحدّاهم بعشر سور فانقطعوا، فتحدّاهم بسورة فانقطعوا، فتحدّاهم بأقصر سورة في القرآن هي ثلاث آيات. فكلّ ثلاث آيات منه معجزة.

قال الأستاذ أبو إسحاق: القرآن ستّة آلاف آية ومائتا آية ونيف، فهو ألفا معجزة ونيف.

وجعله الله معجزة باقية مستمرّة إلى يوم القيامة، بخلاف غيرها من المعجزات، فإنّها تنقضي بانقضاء وقتها تشريفاً منه لسيّدنا ومولانا محمد ﷺ،

---

(١) في ٢: (أجلى).

ودليلاً على مكانته وعلى منزلته، فمعجزته ﷺ ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء عليهم السلام ذهبت للحين ولم يشاهدها إلّا الحاضر لها. ومعجزات القرآن يقف عليها قرناً بعد قرن عياناً لا خبراً إلى يوم القيامة.

وقد اشتمل على وجوه كثيرة من الإعجاز:

- منها حسن تأليفه، والتئام كلمه، وجودة إيجازه، وفصاحته، وبلاغته. فبلاغته بهرت العقول، وفصاحته ظهرت على كلّ مقول[١].

- ومنها صورة نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب، الذي حارت فيه عقولهم حتّى كانوا يقولون والله ما هو بكهانة، ما هو بزمزمته ولا سجعه؛ ولا هو بمجنون، ما هو بخنقه ولا وسوسته؛ ولا بشعر ما هو برجزه ولا قريضه، ولا هجره ولا مبسوطه؛ ولا بسحر، ما هو بنفثه ولا عقده؛ والله ما نقول من هذا شيئاً إلّا ونحن عالمون ببطلانه.

فهذان نوعان من إعجاز القرآن العظيم، كلّ واحد منهما إعجاز على التّحقيق، لم تقدر العرب الإتيان بواحد منهما. إمّا لأنّه ليس[٢] من جنس مقدورهم على قول الجمهور؛ وإمّا لأنّه لم يخلق لهم القدرة عليه على أحد قولي الأشعري، فلم يكن ذلك ولا يكون، قال وهو أبلغ في التّعجيز وأحرى بالتّقريع.

- ومن وجوه إعجازه، وهو لم يدخل تحت مقدور البشر إجماعاً؛ ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، ممّا لم يقع فوقع على النحو الذي أخبر به سواء بسواء.

- ومنها كونه آية مستمرّة فلا يزال غضّاً طريّاً.

- ومنها الروعة التي تدرك سامعه والهيبة إلى غير ذلك من الوجوه التي لا تحصى. فهذا بعض ما اشتمل عليه وصف القرآن بالحكيم.

---

(١) في ١: (معقول).

(٢) سقط من ٢: (ليس).

قوله: **(وشرح به دينه القويم)**.

شرح: أي وسّع. والضمير في «به» عائد على النبي ﷺ، أو على الكتاب.

قوله: **(وهدى به)**.

الهدى: بمعنى الإرشاد وهو أحد محامله.

والصّراط: والطّريق والسّبيل بمعنى. والمراد به هنا طريق الحقّ.

قال القاضي أبو بكر بن الطيّب: «الصّراط صراطان حسّي ومعنوي. فالمعنوي في الدنيا والحسّي يوم القيامة. فمن مشى على المعنوي هنا وفّق للحسي هناك».

أصل: **(وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من يموت، كما بدأهم يعودون)**.

[الإيمان بيوم القيامة وعلامات الساعة]:

شرح: ممّا يجب اعتقاده ولا يتمّ الإيمان إلّا بالقطع بصحّته أنّ الساعة آتية. صرح بذلك كتاب الله العزيز، وأجمعت عليه الأمّة، وعلم من الدّين ضرورة.

والساعة: القيامة. سمّيت ساعة لأنّها بالنسبة إلى كمال قدرته تعالى كساعة، أو من باب تسمية الكلّ بلفظ البعض. وقيل: آخر ساعة من الدّنيا. وقيل: أوّل ساعة من الآخرة.

والريب: الشكّ، وحقيقته قلق النفس واضطرابها. و«لا ريب فيها»، وإن كان قد ارتيب فيها، أي لا ريب فيها عند الله تعالى وعند ملائكته ورسله وأنبيائه[1] والمؤمنين. أو ما حقّها أن يرتاب فيها لوضوح الدّلالة عقلاً ونقلاً على إتيانها. أو يكون المراد نفي الريب عن القلب بوجود التّصديق فيه بإتيانها حتّى تسكن النّفس. ويتنزّل ذلك منزلة رأي العين من قوّة الإيمان بها، وثلج

---

(١) سقط من ٢: (وأنبيائه).

الباطن، ولهذا قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾ [الشورى: ١٨].

ويروى عن عبد الله بن هذيل أنّه قال: «لقد رأيت أقواماً إذا بال أحدهم أسرع إلى التيمّم، مخافة قيام الساعة قبل وجود الماء. وهذا لكمال تصديقهم».

ولا يعلم وقت إتيانها على الحقيقة إلّا الله ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ [فصلت: ٤٧]، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي ثقل علمها؛ لكن لها علامات وشروط:

- منها بعثة رسول الله ﷺ. قال: «بعثت أنا والسّاعة كهاتين» وأشار إلى السبّابة والوسطى[١].

- ومنه موته وموت أصحابه رضي الله عنهم وأهل بيته، في الحديث: «أنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت جاءهم ما يوعدون، وأصحابي أمنة لما بعدهم، وفي قبضهم قبض كثير من الخير»[٢].

- ومنها فساد الزمان والبلدان[٣] وانتقال العمارة من مكان إلى مكان، وانقلاب السير المحمودة والأمور المعهودة، وظهور الفتن، وكثرة المحن، وغلبة المناكر والعداوات بين الأمّة. وفي حديث سلمان: «إذا فعلت أمّتي خمس عشر خصلة حلّ بها البلاء: إذا كان المغنم دولاً، والأمانة مغنماً،

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق: باب اللعان، ومسلم في الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وقرن بين السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَىٰ.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة: باب بيان أنّ بقاء النبي أمان لأصحابه، بلفظ: «أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنة لأمّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ما يوعدون». ولم نقف على ما ذكره الشارح.

(٣) سقط من ٢: (والبلدان).

والزّكاة مغرماً، وأطاع الرّجل زوجته، وعقّ أمّه، وبرّ صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرّجل مخافة شرّه، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القيان والمعازف، ولعن آخر هذه الأمّة أوّلها؛ فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً»[1].

وقد ظهرت هذه الأشراط أو أكثرها، ولم يبق إلّا الآية التي هي متّصلة بقيام السّاعة، فعند آخر آية تقوم الساعة، والله أعلم، وهي:

- طلوع الشّمس من مغربها.
- وخروج الدجّال.
- ونزول عيسى عليه السلام.
- ورفع القرآن من الصّدور.
- والدخان.
- ويأجوج ومأجوج.
- وخسف بالمشرق.
- وخسف بالمغرب.
- وخسف بجزيرة العرب.
- وآخر ذلك نار تخرج من أرض اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن: باب ما جاء في علامة حلول المسخ والفسخ. ولفظه: «إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشَرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلَاءُ. قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: إِذَا كَانَ المَغْنَمُ دُوَلاً، وَالأَمَانَةُ مَغْنَماً، وَالزكَاةُ مَغْرَماً، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهُ، وَبَرَّ صَدِيقَهُ وَجَفَا أَبَاهُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ، وكانَ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ وَلُبِسَ الْحَرِير، وَاتُّخِذَتْ القِيانُ وَالمَعَازِفُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحاً حَمْرَاءَ، أَوْ خَسْفاً أو مَسْخاً» قال أبو عِيسَى: «هذا حديثٌ غريبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بن أبي طالبٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ».

واختلف العلماء فقيل: قربها من الساعة وبعدها مجهول غير معقول، ولا يعلمها إلّا الله تعالى. وقيل: هي متّصلة، أو بعضها قريب من بعض حتّى تتّصل بالساعة، وهو الذي قدّمناه. ومثّلث بالحامل تدخل في شهر ولادتها، فإنّها تعلم بالعادة والقرائن قرب وضعها، ولا تدري في أوّل الشهر أو[1] وسطه أو آخره. ومثّلها بعضهم بالعقد ينقطع، فتنسلّ منه خرزة ثمّ أخرى في أثرها إلى آخره؛ كذلك أشراط الساعة مترادفة. وروي في الحديث ما يؤيّد هذا.

واختلف في السّابق منها، فقيل فساد معظم البلدان. وقيل الدجّال. وقيل الدّخان. وروى ابن حبيب[2]: أوّلها الفتن في البلاد بين المسلمين؛ ثمّ في المسلمين من العدو؛ ثمّ قحط؛ ثمّ الدجّال؛ ثمّ عيسى عليه السلام؛ ثمّ يأجوج ومأجوج؛ ثمّ طلوع الشمس من المغرب في استكمال أربع سنين؛ ويكثر الشرّ لغلبة الأشرار على الأخيار؛ فتخرج الدابّة؛ ثمّ الدّخان؛ ثمّ ريح تلقي أكثر النّاس في البحر كرهاً، أو طلباً للسّلامة فيه؛ ثمّ نار عظيمة تخرج من أرض اليمن من عدن، تسوق الناس إلى المحشر.

ويروى أنّ الدابّة تكون في زمن عيسى عليه السلام، وأنّ الناس يقيمون بعد عيسى عليه السلام أربعين عاماً، وقيل: ثمانين عاماً. وفي صحيح مسلم: «أوّل الآيات طلوع الشمس من مغربها، ويغلق عند ذلك باب التوبة على المؤمنين والكافرين»[3] قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

---

(١) سقط من ١: (في أول الشهر أو).

(٢) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الإلبيري القرطبي، أبو مروان. عالم الأندلس وفقيهها في عصره. أصله من طليطلة، وسكن قرطبة، وزار مصر. كان عالماً بالتاريخ والأدب، رأساً في فقه المالكية، له تصانيف كثيرة. توفي سنة ٢٣٨هـ. «الأعلام» (٤/ ١٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير: باب لا ينفع نفساً إيمانها، ومسلم في الإيمان: باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان؛ ولفظه عندهما: عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ: لا تقوم الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغرِبها، فإذا طَلَعَت ورآها الناسُ آمَنوا أجمعون، وذلك حينَ لا يَنفعُ نفساً إيمانُها. ثمَّ قرأَ الآية».

ومن غيره: يقيم الناس كذا ما شاء الله؛ ثمّ تسير الجبال؛ وتنشقّ السماء بالسقوط كسفاً؛ ويحشر الوحش؛ وتعطّل العشار؛ ثمّ ينفخ في الصور، فيموت من في السماوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، فلا يبقى حيّ إلّا الله. ثمّ اختلف، فمن قائل: يعدم السماوات والأرض والعرش والكرسي والجنة والنار، ثم يعيدها الله تعالى لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ ومن قائل: العرش والكرسي والجنة والنار لا تهلك، وأنها مستثناة في ذلك[1]. وقال ابن عبّاس: «المخلوقات التي لا تفنى سبعة: اللوح، والقلم، والعرش، والكرسي، والجنّة، والنار، والأرواح». والله أعلم.

قوله: (وأنّ الله يبعث من يموت) إلى آخره.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وقال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] إلى غير ذلك من الآي. فالله تعالى يعيد الخلق بعد دثور صفاتهم، وتبدّد أجزائهم، يوم الفصل بين عباده، فيوجدهم بعد العدم، ويجمعهم بعد التفرق، ويحييهم بعد الممات. قال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: ٤١] قيل ينادي إسرافيل وقيل جبريل عليه السلام: أيّتها العظام البالية، والأصول المتقطّعة، واللحوم المتمزّقة، والشعور المتفرّقة؛ إنّ الله يأمركم أن تجتمعن لفصل القضاء؛ فيعيدهم كما بدأهم. قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وفي الحديث: «إذا صاروا رميماً ولم يبق إلّا عظم الذّنب، وهو آخر سلسلة صلبة، يأمر الله سبحانه بماء ينزل من تحت العرش كمني الرّجال، يحيي الله الخلائق من ذلك كما كانوا أوّل مرّة. ويجمع الله الأرواح في قرن من نور، فيه ثقب على عدد الخلائق، ثمّ يأمر الله إسرافيل بالنفخ في الصّور، فتخرج الأرواح فتصعد أجسادها، ويلهمها الله

---

(١) سقط من ١: (فلا يبقى.. في ذلك).

معرفة أجسادها فيحييهم الله»[1]. قال مالك: بلغني أنّه إذا كان قبل السّاعة، تمطر الأرض أربعين ليلة، حتّى تنفلق الأرض عن الهام كما تنفلق عن الكماة. والهام رؤوس الناس، فتنشق الأرض عنهم ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ويقول الكافر: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ويقول المؤمن[2] ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ [يس: ٥٣].

قوله: (من يموت).

تنبيه على من أكلته السّباع أو مات غريقاً أو حريقاً. وقد خالف في ذلك بعضهم. وخلافهم في ذلك باطل. ولنذكر الحديث الذي هو في البخاري[3] في الرجل الذي أوصى أن يسحق ويذرى نصفه في البحر ونصفه في البرّ؛ وأنّهم فعلوا، وأنّ الله تعالى أمر البحر فجمع ما فيه، والبرّ فجمع ما فيه، ثمّ قال: «كن بشراً سوياً فقام»، فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: «خشيتك يا ربّ، فغفر له» فإنّه يدلّ على المذهب الصّحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] خرج مخرج الغالب. وأجمع أهل الحقّ على القول بردّ الجواهر بأعيانها. وإنّما اختلفوا في الأعراض. والجمهور على إعادتها بأعيانها لتساوي حقيقة الابتداء والإعادة.

واختلف هل كانت الجواهر أعدمت ثمّ أعيدت يوم القيامة، أو كانت متفرّقة فجمعت؟ قال الإمام أبو المعالي: «لم يقم دليل على تعيين[4] هذين

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وانظر الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦٤١)، والطبراني. وهو موقوف على ابن مسعود «مجمع الزوائد» (١٠/ ٥٩٣).

(٢) سقط من ١: (ويقول المؤمن).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا﴾، ومسلم في التوبة: باب في سعة رحمة الله.

(٤) سقط من ١: (تعيين).

الجائزين. والظواهر تقتضي بالإعدام لا بالتفريق، فإذا قلنا بالإعدام فتردّ بأعيانها كما سبق. قال الأستاذ أبو الحجاج الضرير في هذا المعنى:

وردّه بعد صريح العدم ... إلى وجود جائز في الحكم

فخلق الشيء كما ميّزه ... بالعلم أو لا فلن يعجزه

وكون الابتداء والإعادة ... بالعلم والقدرة والإرادة

فإذا قلنا بالتفريق فتجمع الجواهر وتخلق فيها الصفات بأعيانها، كما كانت أوّل مرّة وكلّ ما هو في مادّة الإمكان فالقدرة صالحة لإيقاعها». والله أعلم.

أصل: (وانّ الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيّئات، وغفر لهم الصّغائر باجتناب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]).

[مضاعفة الحسنات للمؤمنين]:

الشرح: التضعيف التكثير والزيادة. ودليل على ما قاله الشيخ قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وفي آيات عديدة تقتضي التضعيف. وفي الحديث: «من هم بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة إلى تسعين»[(١)].

فمن نعمته تعالى على عباده المؤمنين أن ضاعف جزاء الحسنات دون السيئات، إذ السيئة بمثلها. قال بعضهم: ويل لمن غلبت آحاده عشراته. قال ابن العربي: «للتضعيف خمس مراتب:

- الحسنة بعشرة للآية.

---

(١) لم نقف عليه بلفظ: إلى تسعين. وأخرجه بلفظ: «من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبع مائة ضعف» مسلم في الإيمان: باب إذا هم العبد بحسنة، عن أبي هريرة.

ـ وبخمسة عشر، لقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «صم يومين ولك ما بقي»[1] يريد من الشهر.

ـ وبثلاثين في الحديث نفسه: «صم يوماً ولك ما بقي»[2]، فالحسنة بثلاثين.

ـ الرابعة: بخمسين، في الحديث أنّه ﷺ قال: «من قرأ القرآن فأعربه، فله بكلّ حرف خمسون حسنة، لا أقول: ألم حرف، ولكنّ الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف»[3].

ـ والخامسة: بسبعمائة للآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فهذه خمس مراتب التضعيف فيها مقدّر.

ـ والسادسة غير مقدرة؛ أجر الصابر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وكذلك أجر الصائم: «الصوم لي وأنا أجزي به»[4].

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «صُمْ يَوْماً. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ يَوْمَيْنِ. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: «صُمْ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصِّيَامِ عِنْدَ اللهِ. صَوْمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً».
أخرجه مسلم في الصيام: باب النهي عن صيام الدهر.

(٢) التخريج السابق.

(٣) أخرجه بلفظ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ» الترمذي في فضائل القرآن: باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر. ورواه الطبراني في «الأوسط»، بلفظ: «أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَكَفَّارَةُ عَشْرِ سَيِّئَاتٍ وَرَفْعُ عَشْرِ دَرَجَاتٍ». وفيه: نهشل، وهو متروك. «مجمع الزوائد» للهيثمي.

(٤) أخرجه البخاري في «التوحيد»: باب ذكر النبي وروايته عن ربه، ومسلم في «الصّيام»: باب فضل الصيام.

وهذا كلّه مع الإتيان بالعبادة كاملة. ولا يحصل على بعضها إذا لم يكمل شيئاً، كما إذا أتى ببعض صلاته. ويظهر أثر التضعيف مع الموازنة».

قوله: (الحسنات) أي جزاء الحسنات.

[حقيقة التوبة وشروط قبولها]:

قوله: (وصفح لهم بالتوبة) إلى **(الكبائر)**.

الصفح: التجاوز والإعراض. صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه.

والعفو: المحو والإزالة وسببه التوبة.

قال الجوهري: والتوبة الرجوع، فمعناها رجوع العبد عن زلّاته. ومن أسمائه تعالى «التواب» وهو الّذي يتوب على عبده ويقبل توبته. كلّما تكرّرت التوبة تكرّر القبول[1].

والتوبة واجبة على جميع المذنبين بإجماع المسلمين. ويندب إليها كلّ عاقل. والنظر في التوبة في مسائل:

الأولى: في حقيقتها. أبو المعالي: «حقيقتها[2] الندم على المعصية، لرعاية حقّ الله تعالى. وفي الحديث: «الندم توبة»[3]. فعلى هذا من تركها من غير ندم فلا يكون تائباً».

وقيل: حقيقتها نفرة النفوس عن المعاصي، بحيث يحصل منها النّدم على الماضي، والعزم على الترك في المستقبل، والإقلاع في الحال، فيرد المظالم، ويتحلل من الأعراض، ويسلّم نفسه لِلقِصَاص إن أمكن ذلك؛ قال: ومعنى الحديث: «الندم توبة» أي معظمها الندم، كما قال ﷺ: «الحج عرفة»[4] أي معظم أركانه عرفة[5].

---

(١) سقط من ٢: (كلما... القبول).
(٢) سقط من ١: (أبو المعالي حقيقتها).
(٣) أخرجه ابن ماجه في «الزهد»: باب ذكر التوبة.
(٤) أخرجه الترمذي في «تفسير القرآن»: باب ومن سورة البقرة، والنسائي في «مناسك الحج»: باب فرض الوقوف بعرفة، وأبي داود في «المناسك»: باب من لم يدرك عرفة.
(٥) سقط من ٢: (أي معظم أركانه عرفة).

المسألة الثانية: إذا وقعت التوبة بشروطها مكمّلة[1] فهل يقطع بها أوْ لا؟ فمذهب القاضي أنّه لا يقطع بها، ومذهب الشيخ أبو الحسن القطع بها. فقيل للقاضي: ظواهر الآي والأحاديث مع الشيخ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال ﷺ: «التوبة تجبُّ ما قبلها»[2].

فأجاب بأنّ الآيات الواردة في ذلك إنّما هي ظواهر، وليست بنصوص فتفيد غلبة الظنّ وقوّة الرجاء؛ وما كان من الأحاديث نصّاً فليس بمتواتر، فلا يفيد القطع.

فقيل له: إنّ الكافر يقطع بتوبته إجماعاً، فما بال المؤمن على شرف منزلته لا يقطع بتوبته إجماعاً[3]؟.

فقال: لوجود النص المتواتر: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ولأنه إذا قطع بتوبة الكافر كان ذلك فتحاً[4] لباب الإيمان، وسوقاً[5] إليه؛ وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن ويبقى في الرجاء، كان ذلك سدّاً لباب العصيان ومنعاً منه، فافترقا.

المسألة الثالثة: هل تصح التوبة من بعض الذنوب أم لا؟ ولا خلاف بين أهل السنة في صحتها، وهي طاعة من الطاعات مكملة، ويطلب بالتوبة فيما بقي. وعلى هذا يسلم الكافر ويتوب من معصية الكفر، فيصح إسلامه وتوبته، وإن كان يزني ويسرق، يكون حكمه حكم المؤمن العاصي، فأما التوبة من كل الذنوب فهي التوبة النصوح.

---

(١) في ١: (فشروطها محكمة).

(٢) لم نقف عليه. وقريب من في المعنى: «الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» أخرجه الطبراني «مجمع الزوائد» في التوبة: باب التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

(٣) سقط من ٢: (لا يقطع بتوبته إجماعاً).

(٤) في ١: (ملتجأ).

(٥) في ٢: (شوقاً).

المسألة الرابعة: إذا تذكّر المذنب ذنبه، فهل يجب عليه تجديد الندم أم لا؟ قولان للقاضي وإمام الحرمين قائلاً: يكفيه[1] ألّا يبتهج ولا يفرح عند تذكره.

المسألة الخامسة: من تاب ثم عاود فهل تكون معاودته نقضاً[2] أو لا؟ قولان للقاضي مع ابن العربي، وإمام الحرمين قائلاً: توبته الأولى صحيحة، وهذه معصية أخرى. واختاره المتأخرون.

المسألة السادسة: هل توبة الكافر نفس إسلامه أم لا، ولا بدّ من الندم على الكفر؟ فأوجبه الإمام؛ وقال غيره: يكفيه إيمانه لأنّ كفره ممحوّ بإيمانه وإقلاعه عنه. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

المسألة السابعة: ما يتاب منه؛ إن كان حقاً لله فيكفي فيه الندم والإقلاع، ويشرع في قضاء الفوائت كالصلاة والصيام وشبه ذلك؛ وإن كان حقاً لآدمي كان عليه ردّه إن كان مالاً، أو التحلل منه إن كان عرضاً، فإن لم يجده ولا أحد من ورثته يعطيه، فإنّه يستغفر له ويتصدق عليه؛ وإن كان نفساً وجب عليه تسليم نفسه للأولياء إن أمكن ذلك، فإن لم يفعل مع الإمكان فهل توبته صحيحة أم لا؟ فصححها الإمام وقال: «هذه معصية أخرى يجب عليه أن يتوب منها»، وهو مذهب الجمهور؛ وقال غيره: لا تصح، وهو مرجوح.

المسألة الثامنة: في وقتها. ولها وقتان:

ـ **الأول**: مهلة العمر، فهي مقبولة ما لم يغرغر، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

ـ **الوقت الثاني**: ما لم تطلع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] قالوا: المراد بها طلوع الشمس من مغربها.

---

(١) في ١: (قائلاً توبته يكفيه).

(٢) في ١: (توبته نقصاً).

ولمّا كان هذا الجنس[1] على قسمين، مؤمن وكافر؛ والمؤمن على قسمين طائع وعاص؛ أخبر تعالى عن من كان كافراً، أنه لا ينفعه إيمانه عند ظهور هذه الآية؛ ومن كان مؤمناً عاصياً لا ينفعه رجوعه وتوبته واكتسابه الخير عند ظهور هذه الآية؛ فحال كلّ واحد من الفريقين على ما كان عليه قبل ظهورها، من طاعة أو عصيان، أو نكر أو عرفان. تاب الله علينا أجمعين بفضله ورحمته، وردّنا إليه ردّاً جميلاً بعونه ومنّته.

[غفران الصغائر باجتناب الكبائر]:

قوله: (وغفر الصغائر باجتناب الكبائر)

المغفرة: الستر. غفر الله ذنوبك أي سترها. ومنه المغفر؛ لأنّه يستر الرأس. ودليل ما ذكره قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وهل تكفير الصغائر باجتناب الكبائر قطعي أو ظني؟ قولان لجماعة الفقهاء مع[2] المحدثين والأصوليين قائلان: لو قطعنا بتكفير الصغائر باجتناب الكبائر، لكانت لهم في حكم المباح الذي لا تَبِعَة فيه، وذلك نقض لمراد[3] الشريعة، فإنّما يحمل ذلك على غلبة الظنّ وقوّة الرّجاء وتحمل الكبائر في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النّساء: ٣١] على كبائر الكفر، والآية الّتي قيّدت الحكم يرجع إليها؛ لأنّ الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، نقله ابن عطيّة.

قولهم[4]: لو قطعنا لهم، إلى قولهم: وذلك نقض؛ يظهر أنّه غير صحيح واللازم الّذي ألزموه باطل. وبيانه أنّ الصغائر إنّما تكون كالمباحات أن لو سقطت المؤاخذة بها على كل تقدير. أما إذا قلنا بما دلّت عليه الآية

---

(١) في ١: (القسم).
(٢) في ١: (و).
(٣) في ١: (لهم).
(٤) في ١: (قلت لهم).

الكريمة من أنّ الصغائر يؤاخذ بها مرتكب الكبائر، ويعاقب على الصغائر والكبائر معاً، فإن اجتنب الكبائر أثابه الله تعالى بمجاهدته نفسه في ترك الكبائر، فإن أسقطت عنه التّباعة بالصّغائر، فهو في فعله إياها قد وقع في ورطة الذنب، إلا أن الله تعالى غفر له بمجاهدته في ترك الكبائر؛ وفاعل المباح لا تبعة عليه بوجه، ولا يؤاخذ به على حال، فكيف يدّعى[1] أنّ الصغائر إذا قطعنا بتكفيرها عن مجتنب الكبائر تصير كالمباحات في حقهم؟ هذا ممّا لا يصح، والله أعلم.

[تعريف الكبائر والصغائر]:

والكبيرة والصغيرة نسبة وإضافة، وإلّا فكلّ ذنب فهو كبير بالنّظر إلى مخالفة ذي الجلال والإكرام. وقال ابن عباس: «كلّ ما يعصى الله به فهو كبيرة». فتسمية بعض الذنوب بالصغائر إنّما هو لأنّها تكفّر باجتناب الكبائر. وإن كانت كلّها كبائر فبعضها أكبر من بعض، ولهذا لم يأت في الشرع لفظ يحصرها في عدد معين، وإنّما ذلك ليكون النّاس من اجتناب جميع المنهيات على حذر لئلا يواقعوها.

وما ورد في الأحاديث من تسميتها بالسبع الموبقات، لا يدلّ على حصرها في سبع، ولهذا قال ابن عباس: «هي إلى السبعين أقرب». ويروى: إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع. فقد ورد في حديث: «الموبقات: الشرك، وقتل النفس، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات»[2]. وورد في آخر: «عقوق الوالدين، واستحلال بيت الله

---

(١) سقط من ٢: (يدلّ).

(٢) أخرجه بلفظ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» البخاري في «الوصايا»: باب الشرك والسحر من الموبقات، ومسلم في «الإيمان»: باب الكبائر وأكبرها.

الحرام»[1]. وفي آخر: «شهادة الزور»[2]. وفي آخر: «شتم الرجل والديه»[3].

فكان ﷺ يجيب بحسب المقام. ومسمّى كبائر تدلّ على أمثالها، فكأنّها أمهات يقاس عليها.

وقيل: كلّ ذنب ختمه الله بلعنة أو غضب أو عذاب أو نحوه فهو كبيرة.

وقال بعضهم: استقريت من مجموع الأحاديث أنّها ثمان عشر كبيرة:

- أربع في القلب: الشرك بالله، والأمن من مكر الله، واليأس من رحمته، والإصرار على الذّنب.

- وخمس في اللسان: الكذب، وشهادة الزّور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والغيبة.

- وثلاثة في البطن: أكل مال اليتيم، وأكل الرّبا، وشرب الخمر.

- واثنان في الفرج: الزّنا، واللواط.

- وواحد في الرجلين: الفرار من الزّحف.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب»: باب عقوق الوالدين، ومسلم في «الإيمان»: باب الكبائر وأكبرها؛ عن أنسَ بن مالك رضي الله عنه قال: «ذكرَ رسول الله ﷺ الكبائرَ ـ أو سُئلَ عن الكبائر ـ فقال: الشركُ بالله، وقتل النفس، وعُقوق الوالدَين. فقال: ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور». أو قال: شهادة الزور. قال شُعبة: «فأكثر ظنّي أنه قال: شهادة الزور». وأخرج أبو داود في «الوصايا»: باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم؛ عن عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ، عن أبِيه، أَنَّهُ حَدَّثَهُ ـ وَكَانَ لَهُ صُحْبَةٌ ـ أنَّ رَجُلاً سَأَلَهُ فقال: «يَا رَسُولَ الله مَا الْكَبَائِرُ؟ قال: هُنَّ تِسْعٌ فَذَكَرَ مَعْنَاهُ. زَادَ: وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً».

(٢) التخريج السابق.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب»: باب لا يسبّ الرجل والديه، ومسلم في «الإيمان»: باب في الكبائر وأكبرها؛ ولفظه عندهما: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: إن من أكبرِ الكبائر أن يَلعنَ الرجلُ والِدَيه». قيل يا رسول الله، وكيف يَلعَنُ الرجل والِدَيه؟ قال: «يسُبُ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسب أمّه فيسب أمّه».

- وواحدة في جميع البدن عقوق الوالدين.

وزاد بعضهم: السّحر، ونقض العهد، وقطع الرّحم، وترك الصّلاة، ومنع الزكاة، والغلول، والحيف في الوصيّة.

وقال ابن مسعود وغيره: «هي من أوّل سورة النّساء إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١]».

وقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[1] في شرح العمدة: «سلك بعض المتأخّرين طريقاً فقال: إذا أردت أن تعرف الفرق بين الصّغائر والكبائر، فاعرض مفسدة الذّنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها؛ فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر، فهي من الصغائر؛ وإن ساوت أدنى مفاسد[2] الكبائر أو أربت عليها فهي من الكبائر؛ وذكر مثل إلقاء المصحف في القاذورات، أو تلطيخ الكعبة بالعذرة، فهذا من الكبائر، ولم ينصّ الشارع عليها» قال بعد كلام: «ولا بدّ مع هذا من[3] أمرين:

أحدهما: أنّ المفسدة لا تؤخذ مجرّدة عمّا يقترن بها من أمر آخر، فإنه قد يقع الغلط في ذلك، ألا ترى أنّ السابق إلى الذهن أنّ مفسدات الخمر السكر وتشويش العقل، فإن أخذنا هذا بمجرّده لزم منه ألا يكون شرب لقطرة واحدة كبيرة، لخلائها عن المفسدة المذكورة، لكنّها كبيرة وإن خلت عن المفسدة المذكورة[4]؛ إلا أنه تقترن بها مفسدة التجرّؤ على شرب الخمر الكثير الموقع في المفسدة. فهذا الاقتران يصيّره كبيرة.

الثاني: إنّا إذا سلكنا هذا المسلك، فقد تكون مفسدة بعض الوسائل إلى

---

(١) أبو الفتح محمد بن الإمام أبي الحسن علي بن أبي العطاء، المعروف بتقي الدين بن دقيق العيد، المالكي الشافعي، الإمام المفتي في المذهبين، الفقيه الأصولي. له مصنفات عديدة. توفي سنة ٦٦٧هـ. «شجرة النور» (١٨٩).

(٢) في ٢: (مراتب).

(٣) سقط من ١: (من الكبائر... هذا من).

(٤) سقط من ١: (لكنها... المذكورة).

بعض الكبائر مساوياً لبعض الكبائر أو زائداً عليها. فإنّ من أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها، أو مسلماً معصوماً لمن يقتله، فهو كبيرة أعظم مفسدة من أكل مال اليتيم؛ وأكل مال اليتيم منصوص عليه. وكذا لو دلّ على عورة من عورات المسلمين تفضي إلى قتلهم وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم، كان ذلك أعظم من الفرار من الزحف؛ والفِرَارْ من الزحف منصوص عليه دون هذه. وكذلك نفعل في القول بأن ما رتب عليه لعن أو حدّ أو وعيد فهو كبيرة، فتعتبر المفاسد بالنسبة إلى ما رتب عليه شيء من ذلك، فما ساوى أقلّها فهو كبيرة، وما نقص فليس بكبيرة». انتهى.

واعلم أن لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار، قاله العلماء.
فإن قيل: لم عبّر عن المؤاخذة بالكبائر بالصفح، وعن ترك المؤاخذة بالصغائر بالمغفرة؟ الجواب قال بعضهم: لما فيه من عظيم الامتنان وسعة الجود والإحسان؛ لأنّ محو الكبيرة أبلغ من سترها وتغطيتها. أسأل الله تعالى أن يعفو عنا بجوده وكرمه.

[حكم مرتكب الكبيرة]:

قوله: (وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته) إلى آخره.

الناس يوم القيامة على قسمين: مؤمن وكافر. فالكافر في النار إجماعاً.

والمؤمن محسن وغيره؛ والمحسن الذي لم يذنب ومات عل ذلك ففي الجنة بإجماع. وغير المحسن إمّا صاحب كبائر أو لا؛ فالمجتنب للكبائر مغفور له.

ومرتكبها إما تائب أو لا؛ فالتائب عند جمهور أهل السنّة وفقهاء الأمّة كالمحسن، وتقدّم قول من قال بأنّه في المشيئة في مسائل التوبة.

وغير التائب إما مستحلّ أو لا؛ فالمستحلّ كافر، وغير المستحلّ في مشيئة الله على مذهب أهل السنّة.

وقالت المعتزلة: إذا كان صاحب كبيرة فهو في النّار ولا بدّ.

وقالت الخوارج: إذا كان صاحب صغيرة أو كبيرة فهو في النار مخلّد، ولا إيمان له. كأنّهم يرون كلّ الذّنوب كبائر. وجعلوا آية الوعد كلّها مخصّصة بالمؤمنين، المحسن الذي لم يعص قطّ والمؤمن التائب؛ وجعلوا آية الوعيد عامّة في العصاة كفّاراً ومؤمنين.

وقالت المرجئة[1]: لا تضرّ معصية مع الإيمان، وهو في الجنّة. وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آية الوعيد كلّها خاصّة بالكفّار؛ وآية الوعد عامة في المؤمنين تقيّهم وعاصيهم.

وقال أهل السنّة: آية الوعد عامّة، وكذلك آية الوعيد مثل ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥ ـ ١٦] فيقتضي خصوص الوعيد بالمكذّبين الكفّار، وإنّ المؤمنين طائعهم وعاصيهم لا يصلونها؛ وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجنّ: ٢٣] وظاهرها عموم كلّ معصية، فتعارض مفهوم الآية السّابقة؛ فلا بدّ من التّأويل الذي يوفّق بين الآية بأن تقول: آية الوعيد لفظها عموم، والمراد الخصوص فيمن مات كافراً أو[2] فيمن سبق في علم الله تعالى أن يعذّبه من العصاة؛ وآية الوعد لفظها عموم، والمراد به الخصوص في المؤمن وفي التائب وفيمن سبق في علم الله العفو عنه دون تعذيب من العصاة؛ والدليل الواضح لأهل السنّة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وهذا الطرف مجمع عليه.

قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] يبطل مذهب المعتزلة[3] والخوارج، ويتمسّك به المرجئة؛ ويبطل تمسكهم قوله تعالى:

---

(١) المرجئة: هي فرقة من الفرق الإسلامية لا يحكمون على أحد من المسلمين بشيء، بل يرجئون الحكم إلى يوم القيامة، ومن قولهم: إنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة. انظر: «الفرق بين الفرق» (٣٣، ٣٤).

(٢) في ٢: (و).

(٣) المعتزلة: ـ ويسمّون أيضاً أهل العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية ـ هم طائفة من الطوائف الدينية التي نشأت بالبصرة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، =

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] لأنّه يقتضي أنّ غفران ما دون الشرك إنّما هو لقوم دون قوم، وهذا خلاف قولهم إنّه مغفور لكلّ مؤمن؛ ويؤيد قول أهل السنة إنّ العاصي في مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ثم يخرجه من النّار بإيمانه، على ما يأتي.

قيل: وأهل المشيئة على خمسة:

- العاصي المعتقد تحريم المعصية، الذي يموت غير تائب.
- وأهل الفترة.
- ومن لم تبلغه الدعوة.
- ومن بلغ مطبقاً.
- وأولاد المشركين[1]. وفي أولاد المشركين أحاديث مطلقة ومقيّدة.

فإن صحّت المقيّدة صير إليها مثل ما ورد أنه تؤجّج لهم نار يوم القيامة ويؤمرون باقتحامها، فمن اقتحمها كان علامة أنه لو بلغ إلى زمان التكليف لكان طائعاً؛ ومن امتنع دلّ على العكس[2]. والمراد بذلك مشاهدة أهل المحشر لهذا الحكم، وإلّا فهو تعالى علم ما كان وما لم يكن[3] أن لو كان

= على يد واصل بن عطاء، وقيل غير ذلك. وقد افترقت إلى عشرين فرقة، كلّ فرقة تكفّر الأخرى. وهي التي تقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يرى يوم القيامة، وأنّ المؤمن إذا ارتكب الكبيرة كان في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، وغير ذلك من الأقوال التي خالفوا فيها أهل السنة. انظر: «الفرق بين الفرق» (٣٢، ١١٢ ـ ٢١٠).

(١) سقط من ١: (وأولاد المشركين).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، عن أبي هريرة والأسود بن سري، قال النَّبِيُّ: «أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئاً، وَرَجُلٌ أَحْمَقٌ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَب لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئاً، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَب جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئاً وَالصِبْيَانُ يَحْذِفُونَنِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَب لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئاً، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَب مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لِيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدَاً وَسَلَاماً، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا سُحِبَ إِلَيْهَا».

(٣) في ٢: (ما يكون وما لا يكون).

كيف كان يكون. وفي مسلم لمّا سئل ﷺ عنهم قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

وفيه: أن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النّار وخلق لها أهلاً[2]. وظاهر الآي والأحاديث تقتضي عدم تعذيبهم، لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] والأطفال لم يبلغوا سنّ ذلك. ويذكر عن ابن عباس أنّه استدل لعدم التعذيب بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] والله أعلم.

أصل: (ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنّته، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ويخرج منها بشفاعة نبيه محمد ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمّته).

[الخروج من النار يكون بالإيمان]:

شرح: صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يخرجون منها بعد أن يصيّروا حمماً»[3]. وفي أحاديث الشفاعة يقول الله تعالى: «أخرجوا من كان في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان»[4] فدلّ ذلك على خروج العصاة الذين

---

(١) أخرجه البخاري في «الجنائز»: باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم في «القدر»: باب كل مولود يولد على الفطرة، عن أبي هريرةَ ﷺ يقول: «سُئل النبيُّ ﷺ عن ذَرارِيِّ المشركينَ فقال: الله أعلمُ بما كانوا عامِلين».

(٢) أخرجه أبو داود في «السنة»: باب في ذراري المشركين، عن عَائِشَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ، قالَتْ: «أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ بِصَبِيٍّ مِنَ الأنْصارِ يُصَلِّي عَلَيْهِ، قالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله طُوبَى لِهَذَا، لَمْ يَعْمَلْ شرّاً وَلَمْ يَدْرِ بِهِ فقال: أَوَ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إنَّ الله خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَها أَهْلاً وَخَلَقَها لَهُمْ وَهُمْ في أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً وَخَلَقَها لَهُمْ وَهُمْ في أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ».

(٣) أخرجه بلفظ: «فيخرجون قد استحشوا وعادوا حمماً» البخاري في «الرقائق»: باب صفة النار، ومسلم في «الإيمان»: باب إثبات الشفاعة؛ عن أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه البخاري في «التوحيد»: باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة، ومسلم في «الإيمان»: باب أدنى أهل الجنة منزلة؛ وفيه: «فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ =

نفذ فيهم الوعيد. وممّا يدلّ على ذلك من كتاب الله تعالى قوله عز من قائل: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ومن آمن فقد أحسن العمل، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] أي يرى جزاء عمله، والجزاء له داران، إمّا الجنّة وإمّا النار؛ فإذا عوقب هذا المؤمن على شرّ عمله بقي له ثواب خير عمله، فلو لم نقل بما دلّت عليه الأحاديث من إخراجه من النار، لأدّى ذلك إلى أنّه لا يثاب، وهو خلاف الآية.

ولا يقال: إنّه يثاب أوّلاً بالجنة ثم يخرج منها فيدخل إلى النار؛ لأنّه تعالى قال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. ولا يعارض هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فإنّه محمول على معصية الكفر جمعاً بين الآي وإعمالاً لجميعها. ولو حملناه على غير معصية الكفر، وقلنا بعدم خروجه، لأدّى ذلك إلى إهمال قوله: (**خيراً يره**)، ولا سبيل إلى ذلك، ولبطل معنى قوله: «أخرجوا من كان في قلبه» إلى غير ذلك.

ولا خلاف بين السلف الصالح ومن تبعهم من الخلف في ذلك كله.

وقالت المعتزلة: من دخل النار فلا يخرج منها، بناء منهم على التحسين العقلي والتقبيح. وقد تبين أن العقل لا يحسن شيئاً ولا يقبحه، ولا يجب على الله تعالى شيء، بل هو الفعال لما يريد سبحانه.

وأضاف النار إلى ضمير الرب تعالى إضافة ملك إلى مالك، مع ما في ذلك من التهويل والتعظيم لشأنها.

قوله: (ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره).

ساقها مساق الدّليل لما قرّره من خروج العصاة من النّار. ووجه الدليل ما قدّمناه.

= أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

والمثقال، ثقل الشيء أي وزنه.

واختلف في الذرّة؛ النملة الحمراء الصّغيرة. وقيل: البيضاء. وقيل: ما يرى من الهباء في شعاع الشمس. وقيل: جزء من مائة وسبع وعشرين جزءاً من حبّة الشّعير. وهذه أقوال نقلت والله أعلم بصحّتها.

والأعمال معان لا توزن، وإنّما توزن البطائق، كما في الصّحيح: «تخرج له بطاقة فيها لا إله إلّا الله» الحديث[1].

قال الزّمخشري: «فإن قلت حسنات الكفّار محبطة بالكفر، وسيّئات المؤمن مغفورة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذّرّ من الخير والشرّ؟ قلت: المعنى، فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره من فريق السعداء، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره من فريق الأشقياء؛ لأنّه جاء بعد قوله: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦]»، انتهى كلامه.

قال صاحب الانتصاف: «السؤال مبني على قاعدتين:

إحداهما: أنّ حسنات الكافر محبطة بالكفر، أي لا يثاب عليها ولا ينعّم. وأمّا تخفيف العذاب بسببها فغير منكر. وقد وردت فيه الأحاديث الصحيحة؛ وقد ورد أن حاتماً يخفف عنه لجوده ومعروفه؛ وورد ذلك في حق غيره كأبي طالب[2] أيضاً؛ فحينئذٍ لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، فيحتمل أن يكون ذلك المروي هو ذلك الأثر، والله أعلم.

---

(١) أخرجه بلفظ: «فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله» الترمذي في «الإيمان»: باب ما جاء فيم يموت وهو يشهد، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في «الزهد»: باب ما يرجى من رحمة الله، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه البخاري في «المناقب»: باب قصة أبي طالب، ومسلم في «الإيمان»: باب شفاعة النبي لأبي طالب؛ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ: أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكرَ عندَهُ عمهُ فقال: «لَعلهُ تنفعُهُ شفاعتي يومَ القيامةِ فيجعَلَ في ضحضاحٍ من النارِ يَبلُغُ كعبيهِ يَغلي منهُ دِماغهُ».

وأما **القاعدة الثانية**: وهي القول بأنّ اجتناب الكبائر يوجب تخصيص الصغائر ويكفّرها عن المؤمن، فمردود عند أهل السنّة، فإنّ الصّغائر عندهم حكمها في التّكفير حكم الكبائر، يكون بأحد أمرين: إمّا بالتوبة النَّصُوحِ المقبولة، وإمّا بالمشيئة لا غير ذلك. وأمّا اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب تكفير الصّغيرة. فالسؤال المذكور إذاً ساقط عن أهل السنّة، ولكنّ الزمخشري التزم الجواب عنهم للزومه على قاعدته الفاسدة»، انتهى.

قال بعضهم: هذا الذي قاله صاحب الانتصاف فيه نظر، إذ لا خلاف بيننا وبين المعتزلة في أنّ اجتناب الكبائر يكفّر الصّغائر، وإنّما الخلاف بيننا وبينهم هل التكفير قطعي أو ظنّي؟ فنحن نقول ظنّي، وهم يقولون قطعي.

قلت: وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة واحتجاج أهل السنّة لمذهبهم، أنّه لا يجب القطع بتكفير الصغائر باجتناب الكبائر، وإنّما محمل ذلك على غلبة الظنّ وقوّة الرّجاء؛ لأنّا لو قطعنا بتكفيرها لكانت لهم في حكم المباح الذي يقطع بأن لا تباعة فيه، وذلك نقض لعرى الشّريعة. وقد قدّمت ما يظهر[1] لي أنّ هذا الإلزام غير صحيح، وأنّ الصغائر إنّما تكون كالمباحات أن لو سقطت المؤاخذة بها على كلّ تقدير؛ وهذا لا يقال، وإنّما نقول بما دلّت عليه الآية: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ﴾ من أنّ الصّغائر يؤاخذ بها مرتكب الكبائر، ويعاقب على الصّغائر والكبائر معاً، فإن اجتنب الكبائر أثابه الله تعالى على مجاهدته نفسه بتكفير الصغائر، فهو في فعله إيّاها قد وقع في ورطة المعصية، إلّا أنّ الله تعالى غفرها له بمجاهدة نفسه بترك الكبائر. وفاعل المباح لا يوصف بأنّه وقع في ورطة ولا فيما يغفر؛ لأنه لا تباعة عليه فيه بوجه، ولا يؤاخذ به على كل حال، فكيف يدّعى أنّ الصغائر إذا قطعنا بتكفيرها عن مجتنب الكبائر تصير كالمباحات في حقّهم؟ هذا ممّا لا يصحّ، والله أعلم.

---

(١) في ٢: (وقد قدمت لها نظائر فظهر).

[الشفاعة وأقسامها]:

قوله: (ويخرج منها) إلى آخره.

أجمع السّلف والخلف من أهل السنّة على قبول الشّفاعة لسيّدنا ومولانا محمد ﷺ، ولسائر الرسل والملائكة والمؤمنين مطلقاً. وأجلّها وأعظمها شفاعته ﷺ؛ لأنّها أعمّ الشفاعات وأتمّها. قال القاضي أبو بكر: «والشّفاعة على ستّة أقسام:

الأولى: لأهل الموقف، وهي خاصّة بنبيّنا محمد ﷺ. البخاري ومسلم: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة» الحديث[1]. وفيه التجاؤهم إليه بعد تطويفهم على جماعة من أنبياء الله الكرام، فكلّهم يصرفها عن نفسه ويقول: «لستُ لها» فإذا انتهت إليه قال: «أنا لها». وذلك المقام المحمود الذي وعده به ربّه، يغبطه فيه الأولون والآخرون، فيشفع لهم في تعجيل الحساب.

الثانية: الشّفاعة في قوم يدخلون الجنّة بغير حساب، وهذه أيضاً خاصّة به ﷺ.

الثالثة: الشفاعة في قوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم النبي ﷺ، ومن شاء الله تعالى من خواصّ عباده فيدخلون الجنّة.

الرّابعة: الشّفاعة فيمن دخل النّار من المؤمنين[2]، فقد جاء في مجموع الأحاديث إخراجهم من النّار بشفاعته ﷺ وشفاعة غيره من النبيئين والملائكة والمؤمنين. وفي هذه الأحاديث: «حتى لا يبقى إلّا من حبسه القرآن؛ فيقبض الله قبضة من أهل النّار لم يعملوا خيراً قطّ فيدخلهم الجنّة»[3] ومعناه

---

(١) البخاري في «التوحيد»: باب كلام الرب ﷻ، ومسلم في «الإيمان»: باب أدنى أهل الجنة منزلة لها.

(٢) في ١: (المذنبين).

(٣) أخرجه البخاري في «التوحيد»: باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ في حديث الشفاعة، وفيه فقال النبي ﷺ: «يخرجُ من النار من قال لا إلَهَ إلا اللهُ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرةً، ثم يخرج من النار مَن قال لا إله إلا اللهُ وكان في قَلبِهِ مِن الخيرِ ما يزِنُ بُرةً، ثم يخرجُ من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزِنُ من الخير =

أنّهم لم يعملوا شيئاً البتّة من أعمال البر البدنيّة ولا النطقيّة، فأمّا التصديق بقلوبهم فلا بدّ من ثبوته، غير أنّه ليس لهم عمل يدلّ عليه والعالم بالسرائر لا تخفى عنه خافية، يرحمهم بتصديق قلوبهم. ولا بدّ من هذا التّأويل إذ الجنّة محرّمة على الكافرين.

الخامسة: الشفاعة في زيادة الدّرجات.

السادسة: شفاعته ﷺ لعمّه أبي طالب».

فهذه ستّة شفاعات تكون له ﷺ في الموقف؛ فمنها ما يختصّ به، ومنها ما يشاركه فيه غيره ﷺ كما تقدّم[1].

قوله: (من شفع له من أهل الكبائر من أمّته).

قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»[2]. وتظافرت الأحاديث بالشفاعة التي بلغت بمجموعها التواتر. وأجمع على ذلك سلف الأمّة، وخالفت فيه المعتزلة. قال بعض أئمّتنا وحقيق لمن أنكرها ألّا ينالها، وتمسّكهم بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠]؛ قيل لهم: هذا المراد به الكافرون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فأثبت الشفاعة لمن ارتضاه ونفاها عن غير المرتضى. وبهذا يقع الجمع بين الآي والأحاديث.

= ذَرَّةٌ». وأحمد في «مسند أبي سعيد»؛ وفيه: «فيقول الجَبَّارُ: بقيت شفاعتي فيقبضُ قبضةً من النار فيُخرجُ أقواماً قد امتُحِشوا فيلقَوْن في نهر بأفواهِ الجنَّةِ يُقال له ماءُ الحياة فينبُتُون في حافَتَيه كما تنبت الحَبَّةُ في حميل السَّيْل قد رأيتموها إلى جانب الصَّخرة وإلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخضرَ، وما كان منها إلى الظلِّ كان أبيضَ فيُخرجُون كأنهم اللؤلُؤ فيُجعَلُ في رقابهم الخواتيمَ فيدخلون الجنَّة فيقول أهلُ الجنةِ: هؤلاءِ عُتَقَاءُ الرحمنِ أدخَلَهُم الجنة بغير عملٍ عمِلوه ولا خيرٍ قدَّموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتُم ومثْله معه».

(١) سقط من ٢: (كما تقدم).

(٢) أخرجه الترمذي في «صفة القيامة»: باب ما جاء في الشفاعة، وأبو داود في السنّة: باب الشفاعة، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

أصل: (وأنّ الله سبحانه قد خلق الجنّة فأعدّها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنّظر إلى وجهه الكريم؛ وهي التي أهبط منها آدم نبيّه وخليفته إلى أرضه، بما سبق في سابق علمه. وخلق النّار فأعدّها دار خلود لمن كفر به، وألحد في آياته، وكتبه، ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته).

[الإيمان بخلق الجنة والنار وخلودهما وأنّ الله تعالى أعدّهما للثواب والعقاب]:

شرح: قال الجوهري: «أصل الجنّة في اللغة البستان». وقال غيره: هي من الشّجر المتكاثفة المتظللة بالتفاف أغصانها، وهذا لا ينافي الأول.

والمراد بالأولياء المؤمنون؛ لأنّ المؤمن لا يخلّد في النار. الحسن عن سيدي: ليس الولي الذي يكون فيه وصف من الطاعات(١).

وتطلق على دار الثواب في الآخرة. وقد وصفها ﷺ فقال: «لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، ترابها المسك وحصباؤها اللؤلؤ»(٢).

والدليل على أنّها مخلوقة قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وفي الحديث: «إنّ الله تعالى لما خلق الجنة فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون»(٣) وفي آخر قال لجبريل: «ادخل الجنة وانظر ماذا أعددت فيها لعبادي الصالحين. فلما رآها جبريل ﷺ قال: يا ربّ ما يسمع بها أحد من عبادك إلا ويدخلها. فلما حفّها بالمكاره قال جبريل: من هنا منع

---

(١) سقط من ٢: (والمراد... الطاعات)، وما أثبتناه هو من ١، وفي الكلام نقص.

(٢) أخرجه الترمذي في «صفة الجنة»: باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، وقال: «هذا حديث إسناده ليس بذاك القوي»، ولفظه: «لبنة ذهب، ولبنة فضّة، وملاطها المسك الأذخر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران».

(٣) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٢/ ٤٢٦)، ولفظه: عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ قال: «خَلَقَ الله جَنَّةَ عَدْنٍ وَغَرَسَ أَشْجارَها بِيَدِهِ فَقَالَ لَهَا تَكَلَّمي فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنون». قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

القوم»[1] أو كما قال. فهذا كله يشهد أنها مخلوقة، ولا إحالة في هذا، وهو من الجائز الذي ورد الخبر بوقوعه فوجب التصديق به.

أما إنّه جائز فمعلوم؛ وأمّا ورود الخبر بوقوعه فقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ إلى غير ذلك مما ذكرناه، ومثل ما في الصحيح: «عرضت علي الجنة فتناولت منها عنقوداً»[2] الحديث، إلى غير ذلك من الأحاديث التي اتفق عليها أهل السلف، وأجروها على ظاهرها، وأجمعوا أن تأويلها من غير ضرورة إلحاد في الدين.

وقالت المعتزلة بتأويل هذه[3] الآي والأحاديث، وزعموا أنه لا فائدة من خلقها. قال إمام الحرمين: «وهذا انسلاخ عن إجماع المسلمين». قال بعضهم: قولهم لا فائدة من خلقها، بل له فوائد:

ـ منها الحث والحضّ والترغيب في الطاعات الموصلة إليها.

ـ ومنها أنّ أرواح السعداء يتنعمون بها في البرزخ، وأرواح الشهداء ترزق[4] منها.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنة»: باب في خلق الجنة والنار، عن أبي هريرة، بلفظ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَر إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا. فَذَهَبَ فَنَظَر إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا. فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا». ولم نقف عليه بلفظ: «من هنا منع القوم».

(٢) أخرجه البخاري في «الأذان»: باب رفع البصر إلى الأمام، ومسلم في «الكسوف»: باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، ومالك في صلاة الكسوف: باب العمل في صلاة الكسوف.

(٣) سقط من ٢: (بتأويل هذه).

(٤) في ١: (الشقاء تروق).

- ومنها أنّ الحور العين يتهيئون لعباد الله المؤمنين، ويتنعمون فيها إلى غير ذلك، مع أنّه تعالى يفعل ما يشاء فلا حيلة لصنعته[1]. فإن عارضوا بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فلو خلقت لهلكت، لكنها لم تخلق، فلم تهلك. قيل لهم: هو عموم مخصوص، والجنة أحد المستثنيات التي خصّها الدليل.

قال ابن عباس: «الموجودات المحدثة التي لا تفنى سبعة: اللوح، والقلم، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، والأرواح». ووافقته المعتزلة على بقاء العرش، والكرسي، والجنة، والنار، واللوح، والأرواح[2].

قوله: (دار خلود).

الخلود والخلد الدوام والبقاء. وبعض المتأخرين يقولون: الخلد المكث الطويل، حتى قال بعضهم: وإن اقترن بالتأبيد، لأنّه يقال: فلان يصلي أبداً. ومن كلام العرب الأول أنهم يحيّون الملك بـ: خلد الله ملكه. قال امرئ القيس:

وهل يَعِمَنْ إلا سعيد مخلّد ... قليل الهموم ما يبيت بأوجال[3]

وهذا الخلود لأهل الجنة خلود التأبيد بإجماع المسلمين؛ وكذلك خلود المشركين في النار. وأما ما ورد في بعض الكبائر مما يقتضي الخلود فمحمول على المكث الطويل عند أهل السنة، أو يكون فعل ما فعل مستحلاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ الآية [النساء: ٩٣] قال ابن العباس: «متعمداً: مستحلاً».

[النظر إلى وجه الله الكريم وأدلّته]:

قوله: (وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم).

النظر: لفظ مشترك بين معان، فإذا أريد به نظر البصر عدّي بـ «إلى» قال

---

(١) في ١: (فلا حيلة لصنعته).

(٢) في ١: (بسقوط القلم) وفي ٢: (بسقوط الأرواح).

(٣) ديوان امرئ القيس (١٣٩).

تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وإذا أريد بها الفكر عدّي بـ «في» ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] الآية، ومن الانتظار بغير حرف ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وتأولت المعتزلة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٣] وقالوا: إلى واحد الآلاء، ف ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة، أو إلى ثواب ربها ناظرة. وقالوا: والضرورة دعت إلى ذلك؛ لأن رؤية الله تعالى ممتنعة، لما يلزم عليه من المقابلة واتّصال الأشعّة. وكلّ ذلك مستحيل.

واعلم أنّ الكلام في ثبوت رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة، فرع عن حكم العقل بجوازها؛ فنقدّم الكلام أوّلاً على الجواز، ثمّ على الوقوع؛ لأنّ المعتزلة قدحت في الجواز، ولهذا تأوّلوا ما ورد في الشرع دالاً على الوقوع.

فنقول: العلم بالجواز له طريقان: العقل والشرع.

أمّا العقل، فقد أجمعنا أنّ الرؤية لا تتعلق بالمعدوم، فلم يبق متعلّقها إلّا الموجود[1]، وقد تعلّقت بالموجودات المختلفة، فحينئذٍ إمّا أن يكون المصحّح هو الوجود[2] أو زائد على الوجود[3] أو هما؛ ولا سبيل إلى الرابع[4]؛ لأنّها لا تتعلّق بالمعدوم.

وكذلك لا سبيل أن يكون الزائد هو المصحّح؛ لأنّه إمّا وجود فالمصحح الوجود، وإمّا ليس بوجود فهو عدم ونفي[5]؛ والنسب والإضافة والوجوه والاعتبارات كلّها آيلة إلى النفي، وكذلك الأحوال على قول من يقول بها، فلم يبق إلّا الوجود وحده أو هما.

ولا سبيل أن يكون المصحّح هما، للزوم التركيب في المصحّح.

---

(١) في ١: (الوجود).
(٢) في ٢: (الموجود).
(٣) في ١ و٢: (الموجود).
(٤) في ١: (الدافع).
(٥) سقط من ٢: (ونفي).

لا يقال: إنّ التركيب المجتنب في ذلك هو وجودان[1]، فإمّا وجود ووجه أو حال[2]، فليس بتركيب.

لأنّا نقول بل يجتنب ذلك كلّه؛ لأنّ ذلك الوجه أو تلك الحال إن كان الوجود يتصوّر بدونه فهو زائد، وهو معقول التركيب. ويلزم منه إثبات القول بالواسطة، فهو محال. وإن لم يتصوّر فهو جزء ماهية، فليس بزائد، فالمصحّح إذاً الوجود.

ولا يقال أيضاً: إنّ ذلك الزائد شرط في الوجود؛ لأنّ الشرط لا يستلزم وجود المشروط. ويلزم على مقتضاه تعلّق الرؤية بالعدم[3]، وهو محال. وإن كان الوجود هو الشرط، فالوجود هو المصحّح.

فخرج من مضمون ذلك على كلّ تقدير أنّ المصحّح هو الوجود، فبثبوته يثبت صحّة الرؤية، وبانتفائه تنتفي. والحكم إذا ارتبط بالشيء طرداً أو عكساً كان عليّاً[4]؛ فالوجود علّة في الرؤية.

فإذا تقرر هذا، فالباري تعالى موجود فصحّت[5] رؤيته.

فإن قلت: هذا معارض على القول بالأحوال، وعلى القول بانتفائها؛ أمّا على القول بها فلأنّ العلّة من شرطها قيامها بمحل توجب له حكماً، والوجود نفس الموجود على مذهب أهل السنّة أو حال على مذهب الآخرين. وعلى كلّ تقدير فلا يكون علّة. والصحّة[6] حكم للذات، والشيء لا يوجب حكماً لنفسه. وأمّا على القول بانتفائها، فلأنّ الموجودات مختلفة بذواتها، ووجود كلّ شيء مخالف لوجود الآخر، فلا يلزم من صحّة رؤية موجود واحد[7] صحّة رؤية كلّ موجود، لعدم الاشتراك ووجوب الاختلاف. وهذان

---

(1) في ١: (وجدان).
(2) في ١: (أحوال).
(3) في ١: (بما تقدم).
(4) في ١: (علة) و٢: (علماً)، والتصحيح من شرح القلشاني.
(5) في ٢: (بصحة).
(6) في ٢: (والصفة).
(7) في ١: (رؤية موجودات).

الإلزامان[١] ذكرهما المقترح والفخر رحمهما الله. وهما[٢] من أقوى ما اعتمدا عليه في الانتقاد على دلائل المتقدّمين في أنّ المصحّح للرؤية الوجود.

واعلم أنّ المتقدمين عوّلوا[٣] على أنّ المصحّح للرؤية الوجود. ولن يأتي آخر هذه الأمّة بأفضل ممّا كان عليه أوّلها، فحسب المتأمّل تدبّر كلامهم يلوح له الحقّ ويظهر له البرهان. وسأذكر لك إن شاء الله تعالى هنا قاعدتين إن تأملتهما يلح لك بهما فساد الإلزامين المتقدمين، وتنفكّ بهما الاعتراضات التي ذكرها الفخر كلّها على الجملة.

ـ فاعلم أنّ التعليل يكون في المعاني العقليّة ويكون في الموجودات. وتعقل ارتباطات بين المعقولات في أعمّ من الوجود. بيان ذلك: أنّ الإمكان حكم مصحّح لتعلّق قدرة القادر بالممكن، يلزم من ثبوته الثبوت ومن نفيه النفي، وهو ليس بمعنى زائد على الممكن اتفاقاً. فكذلك الوجود مصحح لتعلق رؤية الرائي بالمرئي.

ولا يلزم منه أن يكون الوجود زائداً على المرئي فيعلل الحكم النفسي[٤] بالذات. والأحكام تتبع الذوات والأعيان بمعقولياتها.

ـ القاعدة الثانية: اعلم أنّ الوجود اسم للحقيقة المقابلة للعدم، وتعلم على الضرورة أنّه ليس بين الوجود والعدم رتبة، والموجودات مختلفة بذواتها، واختلاف حقائقها لا يخرجها من أن تكون موجودة، فاسم الوجود إذاً وضع لإفادة الحقائق؛ فالجوهر حقيقة والعرض حقيقة، وهما مختلفان غير أنّهما متّفقان في أنّهما غير معدومتين في استحقاق[٥] التسمية في الوضع بالوجود[٦]، والإدراكات متعلّقة بالحقائق؛ فوجب أن يكون لكل ذي حقيقة حقيقة[٧] مصحّحة لإدراكه، وتلك[٨] الحقيقة مخالفة للعدم المستحيل رؤيته، فيثبت معها

---

(١) في ٢: (الأمران). (٢) في ٢: (وإلّا).
(٣) في ١: (عدلوا). (٤) في ١: (المنفي).
(٥) سقط من ٢: (والعرض... في استحقاق).
(٦) سقط من ٢: (بالوجود). (٧) سقط من ١: (حقيقة).
(٨) في ١: (لإدراك تلك).

التّصحيح وينتفي بانتفائها، فصحّت[1] رؤية كل موجود.

فبان بهذين القاعدتين أن التّعليل يكون في أعمّ من الموجود، وأنّ[2] الحكم يتبع الذات لمعقوليتها. وبان أيضاً أنّ اختلاف الحقائق لا يخرجها من أن تكون موجودة. فهذه طريقة العقل في العلم بجواز رؤية الله تعالى.

ومعنى الجواز، أنّه تعالى موصوف بالاقتدار على خلق رؤيته في العين يرى بها، كما هو تعالى قادر عل خلق علم في القلب يعلم به؛ وليس للرؤية أثر في المرئي لا في ذاته ولا في صفاته كالعلم، وإنّما هو كشف مخصوص.

وليس من شرط الرؤية مقابلة المرئي، ولا انبعاث أشعة ولا بنية مخصوصة؛ لأنّ الرؤية معنى قائم بالمحلّ، وانضمام أجزاء أخرى لمحلّ الرؤية ليس من خاصيّة المحلّ ولا من شروطه؛ لأن المحالّ متساوية في حقائقها. وإذا لم يجب تركيب المحلّ من أجزاء، بطل ما ركّب عليه من مقابلة وانبعاث أشعّة. قال أبو المعالي: الباري تعالى يرى خلقه، وليسوا في مقابلته، وكذلك يرونه وليس في مقابلة».

وأمّا طريق العلم بجواز رؤية الله تعالى من السمع فكثير:

- فمن ذلك سؤال موسى عليه السلام، إذ لو كانت مستحيلة لما سألها. وقد أوجبت له العصمة، العلم بالله تعالى وبما يجب له ويستحيل عليه.

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهو نفي للوقوع. والمستحيل لا ينفى وقوعه، وإنّما ينفى جوازه.

- ومن ذلك تعليقها على جائز، وهو استقرار الجبل. والمستحيل وقوعه لا يعلّق على جائز، لأنّ فيه تجويز وقوعه، وكلام الله منزّه عن ذلك. بخلاف الحكم الجائز إذا علّق على مستحيل فإنه يقتضي اليأس من وقوع ذلك الجائز ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ولوجه لا يقع لاستحالته، فدخولهم الجنة لا يقع لتعليقه على ما لا يقع.

---

(١) في ١: (بصحة).

(٢) في ١: (دون).

ـ ومن ذلك إجماع السلف الصالح على الابتهال إلى الله تعالى أن يريهم وجهه الكريم. ولولا علمهم بالجواز لما سألوا.

وإذا تقرّر أنّ رؤية الله تعالى جائزة عقلاً وسمعاً، لم يبق إلا النظر في الوقوع.

ـ فمن الأدلّة على وقوع هذا الجائز قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، ولا معارضة بينها وبين قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، إذ هذه خرجت مخرج التمدح بأنّه تعالى قادر على منعهم من رؤيته، ولا يقدرون على منعه من رؤيتهم، فكما هو قادر على المنع فهو قادر على رفعه؛ لأنّ القادر على الشيء يقدر على مثله وضدّه. وقد استدلّ بها القاضي رضي الله عنه على جواز رؤية الله تعالى بمحضر بعض المعتزلة، فأقر المعتزلي بذلك بعد تعجبه من استدلاله بها، لأنّها كانت أحد معتمداتهم[1]. وأيضاً فالآية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] مطلقة والأخرى مقيّدة، والمقيد يقضي على المطلق.

ومنهم من فرق بين الإدراك والرؤية وأنّه تعالى نفى الإدراك، إذ الإدراك يقتضي الإحاطة بالشّيء، والرؤية لا تقتضي ذلك فجازت وامتنع الإدراك. ولهذا نقل عن الأشعري منع إطلاق أنّه تعالى مدرك بالبصر، لما في لفظ الإدراك من الإيهام. واستدل مالك بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] فقال بدليل الخطاب، إذ دليله أنّ المؤمنين غير محجوبين.

ـ ومن الأدلة الشرعية، ما قاله ﷺ فيما صحّ عنه وتواتر وكثر نقله: «إنّكم ترون ربّكم يوم القيام كما ترون القمر ليلة البدر»[2]، ونحوه من

---

(١) في ٢: (معتقداتهم).

(٢) أخرجه البخاري في «التوحيد»: باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ ومسلم في «المساجد»، مواضع الصلاة: باب فضل صلاتي الصبح والعصر؛ بلفظ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ».

الأحاديث على اختلاف تركيب ألفاظها. والتشبيه هنا واقع بين الرّؤيتين[١] لا بين المرئيين.

- وقد أجمع السّلف ومن تبعهم من الخلف، على أنّ المؤمنين يرون ربّهم بأبصارهم في الآخرة، في دار السّلام.

واختصاراً تبيّن ما جوّزه أهل الحقّ من ذلك، أن تعتبر بعلمنا بالله ﷻ؛ فمن حيث جاز أن نعلمه لا في مكان ولا في متحيّز أو مقابلاً، ولم يتعلّق علمنا بأكثر من الوجود؛ جاز أن نراه غير مقابل ولا محاذ ولا مكيّف ولا محدود. قال الإمام أبو عبد الله النحوي: «مسألة العلم حلقت لحيّ المعتزلة».

قوله: (وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم).

قوله فيها يشعر بتخصيص كرامتهم بالنّظر في الجنّة، وأنّهم لا يرونه قبل دخولها[٢]. وقد ورد في السّنة ما يقتضي جواز[٣] وقوع الرّؤية للمؤمنين في عرصات القيامة. وجوّزها بعض المتأخّرين للكافرين في العرصات، وذلك باطل.

وممّا يتعلّق بمسألة الرؤية مسألة اختلف فيها، وهي هل رأى رسول الله ﷺ ربّه ليلة الإسراء أو لا؟ فمنهم من قال: رآه بعيني رأسه. ومنهم من قال: رآه بعين قلبه. قال الأشعري: من قال بعين قلبه[٤] لم يرد به العلم؛ لأنّه ﷺ عالم بالله تعالى في كلّ زمان، فلا بدّ من حمله على قدر زائد على العلم تسمّى رؤية. وليس من شرط الرؤية بنية مخصوصة على أصلنا، فتكون في القلب وتكون في العين، قال: *فقد أجمعوا على حصول الرؤية، وإنّما اختلفوا* في المحل. والظواهر تقتضي أنّه رآه بعيني رأسه والله أعلم.

قوله: (إلى وجهه الكريم).

مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري أن الوجه صفة لله تعالى، معلومة من

---

(١) في ١: (الروايتين).

(٢) في ٢: (قبل ذلك).

(٣) سقط من ٢: (جواز).

(٤) سقط من ٢: (قال... قلبه).

الشرع يجب الإيمان بها، مع نفي الجارحة المستحيلة، إذ كل ما ينافي الجلال فهو مستحيل.

وذهب الجمهور إلى أنّ الوجه يراد به الوجود والذّات.

[جنة الثواب هي الجنة التي أهبط منها آدم]:

قوله: (وهي التي) إلى آخره.

ما ذكره هو مذهب أهل الحق، خلافاً لمن زعم أنّ الجنّة التي أهبط منها آدم جنّة في الدّنيا بأرض عدن، وليست بجنّة الآخرة، إذ هي موصوفة بدار الخلود والقرار والمقامة، ومن دخلها لا يخرج لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وهذه الصّفات منتفية عن جنّة آدم.

والجواب أنّ صفات الجنة ليست ذاتيّة لها، وإنّما هي بفعل الله تعالى؛ فجاز وصفها بذلك في وقت دون وقت، أو يكون وصفها موقوف على شرط، فلاي وصف بها قبل الشرط.

وهبوط آدم هبوط شرف وخلافة ورسالة. وسمّي آدم؛ لأنّه من أديم الأرض. وروي عنه ﷺ أنّه قال: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلّها، فخرجت ذريته على نحو ذلك، منهم الأبيض والأسود والأسمر، والسهل والحزن، والطّيب والخبيث»[١].

قوله: (وخليفته).

لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. والخليفة الحاكم بأمره، وكلّ نبيّ خليفة.

---

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٢/٢٨٨)، عن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبيّ قال: «خَلَقَ الله آدَمَ مِنْ أديمِ الأَرْضِ كُلِّها، فَخَرَجَتْ ذُرِّيَّتُهُ عَلى حَسْبِ ذٰلِكَ مِنْهُمْ الأَبْيَضُ، وَالأَسْوَدُ، وَالأَسْمَرُ، وَالأَحْمَرُ، وَمِنْهُمْ بَيْنَ ذٰلِكَ وَمِنْهُمْ السَّهْلُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ». قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

قوله: (بما سبق).

إشارة للآية. وفي الصحيح: «تحاج آدم وموسى، فحجّ آدم موسى؛ قال موسى: أنت آدم أبو البشر أغويت النّاس وأخرجتهم من الجنّة. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاه الله برسالته وبكلامه أفتلومني على أمر قد قدّر علي قبل أن أخلق»[1].

[خلق النار ولمن أعدّت]:

قوله: (وخلق النّار) إلى آخره.

الخلاف الذي تقدم في خلق الجنة، وهل هي الآن موجودة أوْ لا، يجري في النار. وكل من قال بأنّ الجنّة مخلوقة، قال في النار كذلك. ومن نفى نفى. وممّا يدلّ على أنّها مخلوقة قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها» الحديث[2]. إلى غير ذلك.

والكفر: التغطية، والجحد، والإلحاد، والزيغ، والخروج. ويكون الإلحاد في الآية بالتكذيب والإعراض عنها. وقد يكون بتأويلها وحملها على غير محملها، فيتناول المبتدعة.

[منع الكافرين من رؤية الله تعالى]:

وقوله: (وجعلهم) إلى آخره.

---

(١) أخرجه مالك في «الجامع»: باب النهي عن القول بالقدر، ومسلم في «القدر»: باب حجاج آدم وموسى ﷺ، بلفظ: «تحاجّ آدم وموسى، فحج آدم موسى. فقال له موسى: أنت آدم الذي أغويت النّاس وأخرجتهم من الجنّة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله علم كلّ شيء واصطفاه على الناس برسالته؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أمر قد قدّر علي قبل أن أخلق؟».

(٢) أخرجه البخاري في «بدء الخلق»: باب صفة النار، ومسلم في «المساجد»: باب استحباب الإبراد، عن أبي هريرةَ ﷺ يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «اشتَكَتِ النارُ إلى ربِّها فقالت: ربِّ أكلَ بعضي بعضاً، فأذِنَ لَها بنَفَسينِ: نَفَسٍ في الشتاءِ ونفَسٍ في الصيف، فأشدُّ ما تجدونَ منَ الحرّ، وأشدُ ما تجدون من الزَّمْهَرِير».

أي ممنوعين؛ والمنع صفة تقوم بالممنوع[1] تضادّ الرؤية، فتسمية الحائط والحجب الكثيفة والبعد المفرط مانعاً مجازاً، إذ المانع حقيقة قائم بالعين.

أصل: (وأنّ الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً، لعرض الأمم وحسابها، وعقوبتها، وثوابها. وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ويؤتون صحائفهم بأعمالهم؛ فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً).

[معنى مجيء الله تعالى وإتيانه يوم القيامة]:

شرح: قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠].

والمجيء والإتيان على ظاهرهما يستحيلان، فيتعيّن طرح[2] هذا الظّاهر. وقطعنا أنّه غير مراد. ثمّ نظرنا بعد ذلك فوجدناه يحتمل أن يكون من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: جاء أمر ربّك.

وإنّما أسند المجيء إلى الله تعالى على سبيل التّمثيل، لظهور آيات اقتداره، وتبيين آثار قهره وسلطانه؛ مثل ذلك بحال الملك إذا يحضر بنفسه، فظهر بظهوره من آثار الهيبة والسياسة، ما لا يظهر بحضور عساكره كلّها ووزرائه وخاصّته.

ويحتمل أن يفعل فعلاً سمّاه مجيئاً. وتعيين واحد من المحتملات يفتقر إلى دليل. والأصل عدمه فوجب الوقوف. هذا مذهب السلف الصّالح.

ويقول القائل في مثل هذا: آمنت بالله وما جاء عن الله على مراد الله وفيما أشكل من صحيح الأحاديث: آمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ﷺ.

---

(١) في ١: (بالمانع).

(٢) في ٢: (مرد).

قوله: (يوم القيامة) لها أسماء عديدة ذكرها الغزالي.

قوله: (والملك).

قيل: جمع المصنّف بين الحقيقة والمجاز في لفظه المجيء، إذ مجيء الله مغاير لمجيء الملائكة في الحقيقة. والبحث في مثل هذا مثله في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ومعنى صفّاً صفّاً: تنزل ملائكة كلّ سماء فيصطفّون صفّاً بعد صفّ، محدقين بالجنّ والإنس. وقال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٧] وهي الجوانب.

ونصب «صفّاً صفّاً» على الحال. ومنهم[١] من جعله من باب التّوكيد اللفظي. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] أي صفوفاً. وفي الصحيح: «يجمع الله الخلائق الأوّلين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر» الحديث[٢]. وفي آخر: «أهل الجنّة يوم القيامة مائة وعشرون صفّاً أنتم منها ثمانون»[٣].

قوله: (لعرض الأمم).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]. والعرض إحضار المعروض وتمييزه من غيره، فيسأل ويحاسب، ثمّ يثاب أو يعاقب ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٦]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

---

(١) في ١: (ووهم).

(٢) أخرجه بدون لفظ «صفوفاً»: البخاري في «التفسير»: باب قول الله تعالى ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، ومسلم في «الإيمان»: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. وبلفظ: «صفوفاً» أخرجه ابن ماجه في «الأدب»: باب فضل صدقة الماء، ولفظه: «يصفّ الناس يوم القيام صفوفاً»، قال البصيري في مصباح الزجاجة: «هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي».

(٣) أخرجه الترمذي في «صفة الجنة»: باب ما جاء في كم صفت أهل الجنة، وقال: «هذا حديث حسن»، والحاكم (١/ ١٥٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ولم يخرجاه»؛ وأحمد في مسند ابن مسعود.

[الإيمان بالميزان ووجوده الحسّي]:

قوله: (وتوضع الموازين).

أي تنصب، وهو جمع ميزان. وأجمع أهل الحقّ على وجود ميزان حسّي له كفّتان ولسان. قال الغزالي: وصفته في العِظَمْ أنّه مثل أطباق السماوات والأرض. وتوزن به صحائف أعمال العباد». قال الغزالي: «ويحدث الله تعالى في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى، فتصير مقاديرها معلومة للعباد، حتّى يظهر العدل في العقاب، أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب. وتطرح صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفّة النور، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله تعالى؛ وتطرح صحائف السّيئات في كفّة الظلمات، فيخفّ الميزان بعدل الله تعالى.

وعن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ نائماً في حجري، فقطرت دموعي على خدّه ﷺ فاستيقظ فقال: «ما يبكيك»؟ فقلت: ذكرت القيامة وأهوالها، فهل تذكرون أهاليكم يا رسول الله؟ فقال: «ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد أحداً إلّا نفسه: عند الميزان حتى يعلم أيخفّ ميزانه أم يثقل؟ وعند أخذ الصّحف حتّى يعلم أيأخذ صحيفته بيمينه أم بشماله، وعند الصّراط حتّى يجاوزه»[1]. وقال أبو بكر الصديق ﵁: «إنّما تثقل موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحقّ وثقله عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلّا الحق أن يكون ثقيلاً؛ وإنّما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الباطل، وخفّته عليهم، وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلّا الباطل أن يخف».

---

(١) أبو داود في كتاب السنّة، باب ذكر الميزان، عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك؟ قالت: ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال هاؤم اقرؤوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم».

وُذهب بعض المعتزلة إلى أنّه ليس في الآخرة ميزان حسّي، وبعضهم يجوزه ولا يقطع به؛ واحتجوا بأنّ الأعمال معنوية والمعنى لا يوزن.

والجواب أنّ الموزون صحائف الأعمال كما تقدّم.

واختلف هل هو ميزان واحد، أو لكل أمّة ميزان واحد، أو لكل واحد ميزان. والصحيح أنّه واحد. والوزن أقسام:

- وزن يظهر منه الإيمان أو الكفر؛ وهو علامة الخلود في الجنّة أو النار. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢]. وقيل: الكافر لا يوزن له لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وجواب (وزناً): نافعاً، جمعاً بين الآيتين.

- الوزن الثاني فيما بين العباد من المظالم والحقوق. ففي مسلم: «أتدرون من المفلس؟» الحديث، وفيه: «فإن فنيت حسناته من قبل أن يفرغ ما عليه أخذ من سيّئاتهم فطرحت عليه فطرح في النّار»[1]. وأمّا الآية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] فمحملها على شخصين لا حقّ لواحد منهما عند الآخر، ولا تعارض.

فإن قيل: فإن لم يكن للمظلوم سيئة، كالأنبياء عليهم السلام، ولا للظالمين حسنة كالكفّار فما الحكم؟

قيل: يعطى المظلوم من الثواب بقدر ما يستحقّه على الظّالم، ويزاد في عقوبة الظّالم بقدر ما كان يأخذ من المظلوم، إن كان ثمّ ما يأخذ. فلو أسلم الظّالم لسقط عنه العقاب، وبقي المظلوم على مقدار ثوابه.

---

(١) أخرجه مسلم في «البر والصلة»: باب تحريم الظلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هٰذَا، وَقَذَفَ هٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هٰذَا، وَضَرَبَ هٰذَا، فَيُعْطَىٰ هٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيه. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

فإن قيل: فإن كان المظلوم ذمياً والظالم مسلماً؟ قيل: قال بعض أهل العلم يسقط حقه كالحربي. وقال آخرون: صار حقّاً للنبي ﷺ يطلب به لقوله ﷺ: «من آذى ذمياً كنت خصيمه يوم القيامة»[١] والله أعلم.

ـ الوزن الثالث فيما بين العبد وربّه. وروي عن عائشة رضي الله عنها «الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفره الله أبداً، وهو الشرك بالله؛ وديوان لا يتركه الله أبداً، وهو حقّ العباد؛ وديوان إن شاء الله غفره وإن شاء عذّب عليه، وهو ما بين العبد وبين ربّه»[٢].

[صحف الأعمال وكيفية أخذها]:

قوله: (ويؤتون صحائفهم بأعمالهم).

أي يعطونها فيقرؤونها. قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]،

قوله: (فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) إلى آخره.

المؤمن على قسمين: مطيع وعاص. فالطّائع يأخذ كتابه بيمينه إجماعاً، وكذلك العاصي عند الأكثر. ووقف بعضهم. قال الضرير:

والمذنب الفاسق ذو الإيمان	من آخذي الكتاب بالأيمان
وقيل إنّ حكمه موقوف	ولم يرد في أمره توقيف

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي، عن ابن مسعود، ولفظه: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» «جامع الأحاديث والمراسيل» (٦/ ٤٨١).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدّواوينُ ثَلاثَةٌ: فَديوانٌ لا يَغْفِرُ الله مِنْهُ شَيْئاً، وَديوانٌ لا يَعْبَأُ الله بِهِ شَيْئاً، وَديوانٌ لا يَتْرُكُ الله مِنْهُ شَيْئاً، فَأَمّا الدّيوانُ الّذِي لا يَغْفِرُ الله مِنْهُ شَيْئاً فَالْإِشْراكُ بِالله ﷻ، قالَ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وَأَمّا الدّيوان الّذِي لا يَعْبَأُ الله بِهِ شَيْئاً قَط فَظُلْم الْعَبْدِ نَفْسَه فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ ربّهِ، وَأَمّا الدّيوانُ الّذِي لَا يَتْرُكُ الله مِنْهُ شَيْئاً فَمظالِمِ الْعِبادِ بَيْنَهُمْ الْقِصاصُ لا محالَةَ». قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» «المستدرك» (٤/ ٦١٩).

والحساب اليسير: السهل الذي لا مناقشة فيه. وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من يحاسب يعذّب» فقيل: يا رسول الله فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨] فقال: «ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذب»[(١)].

وأمّا الكافر فيؤتى كتابه بشماله. قيل: تعلّق شماله إلى عنقه، وتجعل خلف ظهره، فيأخذ بها كتابه، جزاء على نبذه كتاب الله وراء ظهره. وقيل: بل يثقب صدره، فيدخل شماله منه، فيأخذ بها كتابه من وراء ظهره، والعياذ بالله.

قوله: (ومن أوتي كتابه وراء ظهره فاولئك يصلون سعيرا).

السعير: أحد طبقات جهنم العليا، نعوذ بالله منها. وهي سبع طباق؛ أعلاها جهنّم، ثمّ لظى، ثمّ الحطمة، ثمّ السّعير، ثمّ الجحيم، وفيه أبو جهل، ثمّ الهاوية، ثمّ الدّرك الأسفل الذي للمنافقين. اللّهمّ أجرنا منها برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

أصل: (وأنّ الصّراط حقّ يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النّجاة عليه من نار جهنّم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم).

[الإيمان بالصراط]:

شرح: ممّا يجب اعتقاده والإيمان به أنّ الصراط ثابت موجود يوم القيامة، قال عليه السلام: «هو جسر ممدود على متن جهنّم، أرق من الشّعر، وأحدّ من السّيف، يرده الأوّلون والآخرون»[(٢)]. قال الله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٣، ٢٤]. وفي الصّحيحين

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير»: باب ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، ومسلم في «الجنة»: باب إثبت الحساب، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحَدَ يحاسَب إلا هَلَكَ» قالت: قلت: يا رسول اللهَ جَعلني الله فِداءَك، أليس يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، قال: «ذاكَ العَرْض يُعْرَضون، ومن نوقش الحسابَ هَلَكَ».

(٢) أخرجه أحمد في مسند عائشة.

قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحض مزلّة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك»[١]. وفي مسلم عن عائشة ﵂ قالت: يا رسول لله أين يكون النّاس يوم تبدّل الأرض غير الأرض؟ قال: «على الجسر»[٢] إلى غير ذلك.

وقد أجمع على ذلك السلف ومن تبعهم، وخالفت المعتزلة فيه، وتأوّلوه قالوا: إذ لا يمكن المشي على ما هذا صفته، وهذا جهل[٣]، وقدرة الله صالحة. وقد سئل ﵇: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: «الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه»[٤]. وغرّ المعتزلة وقوفهم مع المعتادات. قال الضرير في هذا المعنى:

والربّ لا يعجزه إمشاؤهم ... عليه إذ لم يعيه إنشاؤهم
تبّا لقوم ألحدوا في أمره ... ما قدروا الإله حقّ قدره

والعابرون[٥] على الصّراط ينقسمون إلى قسمين ناج وموبق.

والنّاجون يتفاوتون في سرعة النّجاة. فمن جائز عليه كالبرق الخاطف، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وَجَرْياً، ومشياً، وحبواً، وعلى البطن؛ فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في النّار، ومختطف بكلاليب كشوك

---

(١) أخرجه البخاري في «التوحيد»: باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، ومسلم في «الإيمان»: باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) أخرجه مسلم في «صفة القيامة والجنة والنار»: باب في البعث والنشور، بلفظ: قالت عائشة: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط». وبلفظ: «على جسر جهنم» أخرجه الترمذي في «التفسير»: باب سورة الزمر.

(٣) سقط من ١: (وقد أجمع... جهل).

(٤) أخرجه الترمذي في «التفسير»: باب ومن سورة بني إسرائيل، عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁، قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفاً مُشَاةً وَصِنْفاً رُكْبَاناً وَصِنْفاً عَلَى وُجُوهِهِمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قال: «إِنَّ الَّذي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِم كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكَةٍ».

(٥) في ١: (والفائزون).

السعدان. كما فسّر ذلك عليه السلام[1].

والموبقون أيضاً متفاوتون. ومعنى أوبقتهم: أهلكتهم.

أصل: (والإيمان بحوض رسول الله ﷺ، ترده أمّته، لا يظمأ من شرب منه، ويُذاد عنه من بدّل وغيّر).

[الإيمان بحوض النبي ﷺ]:

شرح: ممّا يجب الإيمان به حوض رسول الله ﷺ. وقد تواترت الأخبار به، وأنّه ترده أمّته، لا يظمأ من شرب منه أبداً، ويذاد عنه من بدّل أو غيّر. آنيته من فضّة عدد نجوم السماء، له ميزابان يجريان فيه من الجنّة. ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وألين من الزّبد، وأبرد من الثلج. طوله ما بين عمان إلى أيلة.

وقد خرّج أحاديث الحوض أهل الصحّة، وأجمع عليه السلف الصّالح، وأطبقوا على الابتهال إلى الله سبحانه أن يسقيهم منه. أسأل الله البر الرّحيم أن يسقينا منه.

السهيلي[2] في الروض الأنف، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي

---

(١) بعض سياقات الحديث أخرجه البخاري في «الرقاق»: باب الصراط جسر جهنم، بلفظ: ويُضرَبُ جسرُ جهنم، قال رسُول الله ﷺ: «فأكون أولَ من يُجيز، ودُعاءُ الرسل يومئذٍ: اللهمَّ سلِّمْ سلِّم، وبه كلاليبُ مثل شَوكِ السَّعدان، أما رأيتم شوكَ السَّعدان؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «فإنها مثل شوكِ السعدان، غيرَ أنها لا يَعلمُ قدرَ عِظَمِها إلّا الله، فتَخْطفُ الناسَ بأعمالهم: منهمُ الموبَقُ بعمله، ومنهم المُخرْدَل ثم ينجو»؛ وأيضاً في «التوحيد»: باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بلفظ: قلنا يا رسول الله وما الجَسر؟ قال: «مَدحَضَةٌ مَزلةٌ عليه خَطاطيف وكلاليبُ وحسكةٌ مفلطَحَةٌ لها شوكةٌ عُقيفاء تكون بنَجْد يقال لها السعدانُ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسلَّم وناجٍ مخدُوشٌ ومكدوسٌ في نار جهنَّم حتى يَمرَّ آخرُهُم يُسحب سحباً».

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله بن الخثعمي السهيلي المالقي. حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير. توفي بمراكش سنة ٥٨١هـ. «الأعلام» (٣/٣١٣).

رسول الله ﷺ: «إنّ الله أعطاني نهراً يقال له الكوثر، لا يشاء أحد من أمّتي أن يسمع خريره إلّا سمع». فقلت: يا رسول الله كيف؟ قال: «أدخلي إصبعيك في أذنيك وسدّي»، ففعلت، قال: «هذا الذي تسمعين هو من خرير الكوثر»[1].

واختلف هل الحوض من خصائصه ﷺ، أو لكلّ نبيّ حوض؟ واختلف أيضاً هل هو قبل الصراط أو بعده. واستدل كلّ واحد من الفريقين بظواهر لا تفيد قطعاً. وتوقف فيه البادي.

ومعنى لا يظمأ: لا يعطش أبداً. فإن قيل: فما فائدة شرب أهل الجنة؟ أجيب بأن طعامهم وشرابهم إنما هو للتلذذ، لا لإزالة ألم الجوع والعطش، لأنّهما آفتان ولا آفات في الجنة.

ومعنى يذاد: يطرد.

وبدّل وغير: ظاهره في العقائد. الداودي: ويحتمل في الأعمال، أو في بدعة لا تخرج عن الإسلام، فيكون ذلك في وقت دون وقت. وأحوال يوم القيامة ومواطنه مختلفة كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، قال ابن عبد البر: «كلّ من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج[2] والروافض وأصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المعلنون بالكبائر. وكلّ هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممّن عنوا بهذا الخبر». وقيل: المراد به أهل الردة.

---

(١) أخرجه الدارقطني «جامع الأحاديث والمراسيل» (١/ ١٧٤).

(٢) الخوارج، ويقال لهم: الحرورية والمحكّمة والنواصب والشراة: هم طائفة من الطوائف الإسلامية، خرجوا على الإمام علي ﷺ في صفّين بعد التحكيم، وهم الغلاة في بغضه وبغض عثمان وعائشة والحكمين وأصحاب الجمل رضوان الله عليهم. وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة بادت جميعها ما عدا بعض الأزارقة والإباضية الذين لا زالوا إلى يومنا هذا. انظر: «الفرق بين الفرق» (ص٧٨ ـ ١١٢).

أصل: **(وأنّ الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقص الأعمال، فيكون فيها النقص وبها الزيادة. ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنيّة، ولا قول وعمل ونيّة إلا بموافقة السنة. وأنّه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة).**

[حقيقة الإيمان والإسلام]:

شرح: هذه المسائل المهمّة التي لا غناء للفقيه عنها. ويحتاج فيها إلى معرفة حقيقة الإيمان والإسلام لغة وشرعاً، وهل هما متحدان أو متغايران؟ وهل بينهما خصوص وعموم أم لا؟ وهل يزيد الإيمان وينقص؟ أو لا يزيد ولا ينقص؟ أو لا ينقص ويزيد[(١)]؟ وهل الأعمال من الإيمان أم لا؟.

فقيل: أصل الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد. وأصل الإيمان التصديق بالقلب.

وفي الشرع قيل: معناهما واحد. واستدل قائله بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الذاريات: ٣٥].

وقيل: معناهما مفترق، ولا يكمل كلّ منهما إلا بالآخر.

قيل: والإيمان التصديق بما يجب؛ والإسلام الانقياد بفعل ما يجب. وفي حديث سؤال جبريل المتقدم جعل النبي ﷺ الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن[(٢)] من الاعتقاد. وأطلق على الجميع الدين حين قال: «هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم»[(٣)].

والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعاً؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛

---

(١) سقط من ٢: (أو لا ينقص ويزيد).　　(٢) في ٢: (يظهر).

(٣) أخرجه البخاري في «الإيمان»: باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان، ومسلم في «الإيمان»: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، بلفظ: «جاء ليعلمكم».

فأخبر سبحانه أنّ الدين الذي رضيه وتقبّله من عباده هو الإسلام، ولا يكون في محلّ القبول والرضا إلّا بانضمام التصديق إلى العمل.

قال ابن الصلاح[1] في كلامه على حديث سؤال جبريل ﷺ: هذا بيان لأصل الإيمان، وهو التصديق الباطن؛ وبيان لأصل الإسلام، وهو الاستسلام والانقياد، وهو الظاهر.

وحكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليه الصّلاة والصيام والزكاة والحج، لكونهما أظهر شعائر الإسلام وأعظمها. وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قَيْدِ[2] انقياده واختلاله.

ثم إنّ اسم الإيمان يتناول ما فسَّر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات، لكونها ثمرات التصديق الباطن، الذي هو أصل الإيمان ومقويّات ومتمّمات وحافظات له. وبهذا فسّر النبي ﷺ في حديث وفد عبد القيس، بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان والخمس من المغنم[3].

ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة؛ لأن اسم الشيء مطلقاً يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص إلا بقيد.

ولهذا جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: «لا يسرق السارق حين يسرق

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوري الكردي الشرخاني، أبو عمرو، تقي الدين، المعروف بابن الصلاح، أحد العلماء الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال. له مصنفات في علوم الحديث والفقه الشافعي والفتاوى والتراجم. توفي سنة ٦٤٣هـ. «الأعلام» (٤/٢٠٦).

(٢) في ٢: (ضدّ).

(٣) أخرجه البخاري في «العلم»: باب تحرض النبي وفد عبد القيس، ومسلم في «الإيمان»: باب الأمر بالإيمان، وفيه: أمرهم بالإيمان بالله ﷻ وحدَهُ، قال: «هَلْ تَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ وحدَه»؟ قالوا: الله ورسولهُ أعلمُ. قال: «شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ. وَإِقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رَمضانَ، وَتُعطوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَم. ونهاهم عن الدّبّاء، والْحَنتَم، والمُزفَّتِ»؛ قال شُعبةُ: رُبَّما قال النَّقِير، وربّما قال المُقيَّر. قال: «احفظوه وأخبروه مَنْ وراءَكم».

وهو مؤمن»[1].

وأصل[2] الإسلام أيضاً يتناول ما هو أصل الإيمان، وهو التصديق الباطن. ويتناول أصل الطاعات، فإنّ ذلك كلّه استسلام، فخرج ممّا ذكرنا وحقّقنا أنّ الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان.

فإذا اجتمع التصديق بالقلب بما يجب التّصديق به شرعاً، من وحدانيّة الله تعالى وغير ذلك؛ وانقاد بلسانه وجوارحه بالإقرار والعمل؛ كان مسلماً مؤمناً. فإن لم يكن تصديق في الباطن[3] فلا يصدق على الظّاهر إيماناً؛ قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]، فبيّن تعالى أنّ محله القلوب، وكذا فسّره ﷺ في حديث جبريل كما سبق.

[زيادة الإيمان ونقصانه]:

وأمّا زيادة الإيمان ونقصانه ففيه ثلاثة أقوال: يزيد وينقص؛ لا يزيد ولا ينقص؛ يزيد ولا ينقص.

والأوّل والثالث رويا عن مالك، فالأوّل باعتبار الأعمال وتسميتها إيماناً كما سيأتي. ومن قال بالثاني اعتبر حقيقة التّصديق القائم بالمحلّ، وهو عرض فلا يزيد ولا ينقص، إلّا أن يقال زيادته باعتبار كثرة متعلّقاته وكثرة أدلته، وانتفاء الغفلات، وتوالي ذلك من غير فتور.

وأمّا الثالث فمراعاة الإطلاق الشرعيّ ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، ولم يرد نقصه.

وقال محققو المتكلمين: نفس التّصديق لا يزيد ولا ينقص؛ لأنّ التّصديق ليس شيئاً يتجزّأ حتى يتصوّر كماله مرة ونقصه أخرى. والإيمان

---

(١) أخرجه البخاري في «الأشربة»: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾، ومسلم في «الإيمان»: باب نقصان الإيمان بالمعاصي.

(٢) في ٢: (واسم). (٣) سقط من ٢: (في الباطن).

الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته، وهي الأعمال ونقصانها[١]. قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النّصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف، وهو ظاهر. وقيل: الأظهر أنّ نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلّة. ولهذا يكون إيمان الصدّيقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشّبه ولا يتزلزل بعارض، بل لا تزال[٢] قلوبهم منشرحة منيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال؛ وغيرهم ليس كذلك. ولا يتمارى في أنّ نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس، والله أعلم.

وأمّا إطلاق اسم الإيمان على الأعمال، فمتّفق عليه عند أهل الحقّ. ودليله في الكتاب والسنّة أكثر من أن يحصى، وأشهر من أن تشهر. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أجمعوا على أنّ المراد صلاتكم.

مسألة: [إطلاق القول: أنا مؤمن، أو تقييده بالمشيئة]:

اختلف العلماء في إطلاق الإنسان «أنا مؤمن»، أو تقييدها بالمشيئة فيقول: «أنا مؤمن إن شاء الله». وبالأوّل قال المحققون، وبالثاني قالت جماعة. وذهب الأوزاعي[٣] إلى التخيير فيقول: «إن شاء الله أنا مؤمن» أو يقول: «أنا مؤمن إن شاء الله»[٤]. فمن أطلق نظر إلى الحال، ومن قيّد بالمشيئة قال إمّا على وجه التبرّك أو نظر إلى العاقبة، وهي مجهولة لا يدري هل يثبت على إيمانه الآن أو لا؟.

[مقومات الإيمان الكامل وزيادته ونقصه بالعمل وفي العمل]:

قوله: (قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح).

والقول لا يكون إلّا باللسان. والإخلاص لا يكون إلّا بالقلب. والعمل

---

(١) في ١: (ونقائصها).

(٢) في ٢: (يتزيد).

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، أبو عمرو، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين. له كتاب «السنن» في الفقه و«المسائل» كانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه، إلى زمن الحكم بن هشام. توفي سنة ١٥٧هـ «الأعلام» (٣/ ٣٢٠).

(٤) سقط من ١: (أو يقول أنا مؤمن إن شاء الله).

لا يكون إلّا بالجوارح. لكنّه في كلام المؤلّف من باب التوكيد والبيان والتحقيق ورفع المجاز[1]. ونظيره ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. على أنّ العمل قد يكون قلبيّاً، يقال: عمل قلبي وعمل بدني. والأسبق إلى الفهم تخصيص العمل بأفعال الجوارح.

وعلى أنّ العمل يشتمل ما كان قلبيّاً أشار بعضهم في قوله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات»[2] إلى أنّ النيّة من جملة الأعمال، فتفتقر إلى نيّة، ثم هذه النية تفتقر إلى نية[3]، ويقع التسلسل.

والجواب إمّا بقصر[4] الأعمال على أعمال الجوارح، أو نقول بالعموم. ويقال في النيّة ما قيل في العلم، حيث استشكل بما يعلم، إذ غير العلم يعلم بالعلم؟ والعلم بماذا يعلم؟

فأجيب: يقوم بنفسه وبغيره، فكذلك النيّة هنا[5]، والله أعلم.

قوله: (وإخلاص بالقلب).

الإخلاص: إفراد الحقّ في الطّاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرّب إلى الله تعالى، دون شيء آخر، من تصنّع لمخلوق واكتساب محمدة عند الناس.

وقد يقال: الإخلاص تصفية العقل عند أعمال البرّ عن ملاحظة الخلق. وقال سهل بن عبد الله[6] رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه: «نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركاته وسكونه في سرّه وعلانيّته لله تعالى، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا».

---

(١) في ٢: (الإعجاز).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سقط من ٢: (تفتقر إلى نية).
(٤) في ١: (لفظ).
(٥) سقط من ٢: (فكذلك النية هنا).
(٦) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص وعيوب الأفعال. له كتاب «تفسير القرآن» وكتاب «رقائق المحبين» وغير ذلك. توفي سنة ٢٨٣هـ. «الأعلام» (١٤٣).

قال ذو النون[1] رَحِمَهُ اللهُ: «ثلاثة من علامة الإخلاص؛ استواء المدح والذمّ من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة». هذا بعض ما قيل في الإخلاص. اللهم اجعلنا من المخلصين ووفقنا بتوفيق العارفين.

قوله: (يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقص الأعمال، فيكون فيها النقص وبها الزيادة).

أشار رَحِمَهُ اللهُ إلى أنّ نفس التّصديق لا يقبل الزيادة ولا النقصان؛ لأنّه إذا نقص صار شاكّاً فانتفت حقيقة التصديق. وإنّما الزيادة والنقصان فيما زاد على تصديق القلب، لقوله: فيكون فيه النقص، وبها الزيادة، أي في الأعمال وبها.

قوله: (ولا يكمل قول الإيمان إلّا بالعمل).

فيشعر بأنّ حقيقة الإيمان حاصلة[2] بمجرّد التصديق والإقرار بما جاء به رسول الله ﷺ. إلّا أنّها لا تكمل إلّا بالعمل. وهذا مذهب أهل السنّة فيمن مات مصدّقاً بما ذكرناه، تاركاً للعمل على سبيل الكسل لا على سبيل التكذيب، أنّه وإن نفذ فيه الوعيد بما ارتكب من تضييع الفرائض وارتكاب المحارم غير مستحلّ، فلا بدّ من خروجه من النار لأنّ حقيقة الإيمان الذي هو التصديق حاصلة له؛ خلافاً لمن يقول: إنّ الأعمال من ماهية الإيمان، ومن حقيقته، وهم المعتزلة، وأدلتهم وجواب أهل السنة عنها معلومة في كتاب الأصول[3].

قوله: (ولا قول ولا عمل إلّا بنيّة).

المراد بالنيّة الإخلاص، أن يعمل لله خاصّة. والنية في اللغة: القصد إلى الشيء والعزيمة عليه، وتمييزه عن غيره؛ فكأنّه يقول: القول أو العمل إذا لم يكن منوياً مخلصاً لله، فلا ينتفع به صاحبه، قال ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات»[4].

---

(١) ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أحد الزهاد العباد المشهورين، من أهل مصر، كانت له فصاحة وحكمة وشعر، توفي سنة ٢٤٥هـ. «الأعلام» (٢/ ١٠٢).

(٢) في ١: (خالصة).

(٣) في ٢: (أصول الفقه).

(٤) سبق تخريجه.

وقيل مراد المؤلّف بالنيّة الإيمان، فكأنّه يقول: ولا نطق باللسان، ولا عمل بالجوارح، إلّا بشرط الإيمان بالقلب. ويلزم منه أن يسمّى التصديق بالقلب من غير نطق إيماناً؛ لأنّ الشرط يغاير المشروط. ولا يتمّ إلا على مذهب القاضي على ما تقدّم أوّل الباب.

قوله: (ولا قول ولا عمل ولا نيّة إلّا بموافقة السنّة).

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ»(١)، وعنه ﷺ: «ستفترق هذه الأمّة على ثلاثة وسبعين فرقة كلّهم في النار إلّا واحدة». قالوا: ما الواحدة يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(٢)، وعنه ﷺ أنّه قال: «إياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار»(٣)، وقال الحسن(٤): «عمل قليل في سنّة خير

---

(١) أخرجه الترمذي في «العلم»: باب ما جاء في الأخذ بالسنة، وابن ماجة في كتاب «النبي ﷺ»: باب اتباع سنة الخلفاء. قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في «الإيمان»: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، وقال: «حسن صحيح»، وأبو داود في «السنة»: باب شرح السنة.

(٣) أخرجه النسائي في «صلاة العيدين»: باب كيف الخطبة، ولفظه: «... إنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ». وأخرجه أبو داود بدون جملة «وكل ضلالة في النار» في «السنة»: باب في لزوم السنة، ولفظه: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وأصله في مسلم في «الجمعة»: باب تخفيف الصلاة والخطبة، ولفظه: «أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ. وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

(٤) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب. وسكن البصرة. وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الله لومة لائم. توفي بالبصرة سنة ١١٠هـ. «الأعلام» (٢/ ٢٢٦).

من عمل كثير في بدعة». قال بعضهم: أبواب الخير[1] كلّها مسدودة، إلّا من قصدها من باب محمد ﷺ.

فالسنّة شرط في صحّة كلّ عمل. فثبت بهذا أنّ القول والعمل يجب أن يكون معروضاً على السنّة، فما وافقها فهو المطلوب، وما خالفها لم يلتفت إليه، وكان معصية أو قريباً منها. وبهذا الذي قررناه علم مزية علم السنة. اللهم وفقنا للعلم والعمل بها، آمين.

وقد روي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقبل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»[2] ذكر هذا الحديث ابن عباد البطليوسي في تعليقه على الرسالة، فإن صحّ فقد نفى رسول الله ﷺ قبول الإيمان إلا بالعمل.

[المذنبون من أهل القبلة لا يكفرون بذنوبهم]:

قوله: (وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة).

يريد أنّ المذنبين من أهل القبلة المحمدية[3] لا تخرجهم ذنوبهم ومعصيتهم عن الإسلام، بل هم مؤمنون مذنبون، قاله أهل السّنة. وخالف في ذلك غيرهم، قالت المعتزلة: من مات غير تائب فهو مخلّد في النار، ولا يطلق عليه اسم مؤمن ولا كافر، وهو فاسق. وقالت الخوارج: مرتكب الكبيرة كافر. وقالت المرجئة: لا تضرّ الذنوب مع الإيمان، ولايدخل النار من كان في قلبه الإيمان، وقد تقدّم هذا.

ولما قال المؤلف رحمة الله تعالى أنّ الإيمان قول وإخلاص وعمل، اقتضى ذلك أنّ من لم يعمل وكان مذنباً لا يكون مؤمناً، فقال هذا الكلام هنا على وجه الاحتراز من هذا، فأخبر بهذا الكلام أنّ الذنب لا يضادّ الإيمان فيكفر بذنبه، إذ الإيمان محلّه القلب، فلا يزيله إلّا ما حلّ في مكانه وهو

---

(١) سقط من ١: (الخير).

(٢) لم نقف عليه.

(٣) سقط من ١: (المحمدية).

الكفر. وقد أوتي رسول الله ﷺ برجل شرب الخمر ليقيم عليه الحدّ، فقام رجل فقال: ما أكثر ما يؤتى به لعنه الله، فقال ﷺ: «لا تلعنه، فإنّه يحب الله ورسوله»[1].

وقد أجمع السلف ومن تبعهم من الخلف على عدم التكفير بالذنب، وهذا في الفاسق فسق الجوارح. وأمّا الفاسق بالاعتقاد كالمعتزلة، فقد اختلف الناس في تكفير المعتزلة وأهل الاعتقادات الفاسدة. ولمالك والشافعي والباقلاني فيهم قولان. والخلاف في هذا سببه هل لازم القول قول، أوْ لا؟ فيقول القائل بتكفير المعتزلة: كفار لأنّهم وإن اعترفوا بأحكام الصفات فقد أنكروا الصفات، ويلزم من أنكر الصّفات إنكار أحكامها، ومن أنكر أحكامها[2] فهو كافر.

وكذلك من يكفّر المجسّمة فيقول: المجسّمة كفّار لأنّهم عبدوا جسماً، وهو غير الله تعالى، فهم عابدون لغير الله تعالى، ومن عبد غير الله كفر. قال الشيخ ابن دقيق العيد في قوله ﷺ: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدوّ الله، وليس كذلك إلّا حار عليه»[3] قال: «رتب رسول الله ﷺ أصلاً على[4] من وصف غيره بالكفر وليس كذلك هذا الوعيد العظيم، وهو قوله: «إلا حار عليه» أي رجع. ومنه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٤] معناه أن [لن] يرجع، قال: هي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين من المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث، لمّا اختلفوا في العقائد، فغلّظوا على مخالفيهم وحكموا بكفرهم، وخرق حجاب الهيبة في ذلك جماعة من الحشوية[5]، وهذا

(١) أخرجه البخاري في «الحدود»: باب ما يكره من لعن شارب الخمر؛ بلفظ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلّا أنه يحب الله ورسوله».

(٢) سقط من ٢: (ومن أنكر أحكامها).

(٣) أخرجه مسلم في «الإيمان»: باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم. وأخرجه مالك في «الجهاد»: باب الشهداء في سبيل الله، مرسلاً، بلفظ: «هؤلاء أشهد عليهم».

(٤) سقط من ١: (أصلاً على).

(٥) الحشوية ـ بسكون الشين وفتحها ـ: هم قوم تمسكوا بظواهر الآيات فوقعوا =

الوعيد لاحق بهم إذا لم يكن خصومهم كذلك». وقال بعد كلام: «والحقّ أنّه لا يكفر أحد بذنب[1] من أهل القبلة إلّا بإنكار متواتر من الشريعة[2] عن صاحبها ﷺ، فإنّه حينئذٍ يكون مكذباً للشرع. وليس مخالفة القواطع مأخذاً للتكفير[3] وإنّما مأخذه مخالفة [القواعد][4] السمعية القطعية طريقاً ودلالة». وهذا كلام حسن.

أصل: (وأنّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون. وأرواح أهل الشقاوة معذّبة إلى يوم الدين. وأنّ المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون. يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وأنّ على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك من علم ربّهم. وأنّ ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه).

[حقيقة الشهيد وأحواله]:

شرح: المراد بالشهيد هنا المقتول في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وسمّوا شهداء إمّا من الشهادة أو من المشاهدة.

فعلى الأوّل فعيل بمعنى مفعول، أي مشهود له بالجنة، ومشهود عليه بالوفاء لله تعالى، وقال ﷺ في قتلى أحد: «أنا شهيد على هؤلاء»[5] أي بالوفاء لله تعالى»[6]. ولما كانت الشهادة في هذا المقام ولاية وصلت بـ «على».

= في التجسيم وغيره. وسمّوا بذلك لأنّهم كانوا في حلقة الحسن البصري فوجدهم يتكلمون كلاماً، فقال: ردّوا هؤلاء إلى حشا الحلقة، فنسبوا إلى حشا، فهم حشوية. وقيل في تسميتهم غير ذلك. انظر: «جامع الفرق والمذاهب» (٧٨).

(١) سقط من ١: (بذنب). (٢) في ٢: (من النصوص الشرعية).

(٣) في ١: (مأخذ التكفير) وفي ٢: (مأخوذة التكفير) والتصحيح من «إحكام الأحكام» لابن دقيق العيد (٢/ ٢١٠).

(٤) الإضافة من «إحكام الأحكام» لابن دقيق العيد (٢/ ٢١٠).

(٥) أخرجه البخاري في «الجنائز»: باب من يقدم في اللحد.

(٦) سقط من ١: (وقال ﷺ ... تعالى).

وإن كان من المشاهدة فمعناه أنّه يشاهد من ملكوت الله تعالى ويعاين من ملائكته ما لا يشاهده غيره.

قال السهيلي: «والأولى أن يكون فعيل بمعنى مفعول، إما بمعنى مشهود له بالجنة، أو مشهود عليه بالوفاء، ويدلّ عليه قوله ﷺ لما ذكر الشهداء: «والمرأة تموت بجمع شهيد»[1] ولم يقل شهيدة. وفعيل إذا كان صفة بمؤنث بمعنى مفعول كان بغير «هاء» ك «امرأة جريح، وقتيل»؛ وبمعنى فاعل بـ «الهاء» ك «امرأة عليمة ورحيمة».

واختلف العلماء في معنى هذه الحياة المسندة إليهم، مع الإجماع على تزويج نسائهم وإرثهم وتنفيذ وصاياهم؛ فقيل: هي حياة غير مكيّفة ولا معقولة للبشر، يجب الإيمان بها بظاهر النّص ويكف عن كيفيّها. وقيل: هي حياة مجازيّة، بأن فضلهم الله تعالى بدوام حالهم الّتي كانت في الدّنيا من الرّزق وإجراء الثّواب عليهم كالحياة، بخلاف أرواح سائر المؤمنين. فلمّا أشبهوا الأحياء بذلك وصفوا بالحياة. قيل: وأجمعوا أنّ أرواحهم لا تعود إلى أجسامهم على ما كانت عليه في الدّنيا، إلّا إذا كان يوم القيامة فحينئذٍ. وأجمعوا أنّ لهم مزية على غيرهم من المؤمنين؛ لأنّهم خصوا بالرزق والفرح وغير ذلك.

وقد وردت الأحاديث بصحّة ذلك كله. خرّج مسلم أنّه ﷺ قال: «أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل» الحديث. وفيه قالوا: «يا ربّنا نريد أن ترد أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى»[2].

---

(١) أخرجه مالك في «الجنائز»: باب النهي عن البكاء على الميت، وأبو داود في «الجنائز»: باب فضل من مات بالطاعون، والنسائي في «الجنائز»: باب النهي عن البكاء على الميت. والمعنى: هي المرأة التي تموت عند الولادة وولدها في بطنها، لم تلده وقد تم خلقه.

(٢) أخرجه مسلم في «الإمارة»: باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة.

وفي الموطأ: «إنّما نسمة المؤمن طائر تعلق في شجرة الجنة»[1]. قال بعض العلماء: معنى «في جوف طير» أي في صور طير. كما تقول: رأيت ملكاً في صورة إنسان. فالشهيد في الجنّة يأكل منها ويشرب ويسرح حيث شاء، ثم يأوي إلى القناديل. وغير الشهيد نسمة أي روحه طائر لأنّ الروح جعل في جوف طائر، ليأكل ويشرب كما يفعل بالشّهيد. فالروح نفسها طائر تعلق ـ بفتح اللام ـ تتشبّث بها ويرى مقعده منها. ومن رواه «يعلُق» فمعناه: يصيب منها العلقة، أي ينال منها ما دون نيل الشهيد. وإن كان أراد بـ «تعلق» الأكل نفسه، فهو مخصوص بالشهيد، فتكون رواية من رواه بالضم للشهداء، وبالفتح لمن دونهم والله أعلم. قال مجاهد: «الشهداء يأكلون من ثمر الجنة، وليسوا فيها، وإنما تدخل الجنة يوم القيامة». وأنكر هذا أبو عمر ورده. قال السهيلي: وليس بمنكر، وقد خرّج ابن أبي شيبة[2] في مصنّفه أن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء بنهر أو على نهر يقال له: بارق، عند باب الجنة، في قباب خضر يأتيهم رزقهم منها بكرة وعشياً»[3] فهذا يبين ما أراد مجاهد والله أعلم. وجمهور العلماء على أنهم في الجنة، يأكلون ويشربون، وهو ظاهر الأحاديث. ويمكن الجمع في ذلك بأن تكون أحوالاً لطوائف وللجميع في أوقات مختلفة، والله أعلم.

وأما غير القتيل في سبيل الله، فورد عنه ﷺ أنه قال: «الشهداء سبعة سوى القتيل في سبيل الله: المطعون، والمبطون، والغريق، والحريق، وصاحب ذات الجنب، والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تموت بجُمْع»[4]

(١) أخرجه مالك في «الجنائز»: باب جامع الجنائز، والنسائي في «الجنائز»: باب أرواح المؤمنين، وابن ماجه في «الزهد»: باب ذكر القبر والبلى.

(٢) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، أبو بكر، المحدث الحافظ، له في الحديث كتب منها «المسند» و«المصنف في الأحاديث والآثار»، توفي سنة ٢٣٥هـ. «الأعلام» (١١٧/٤).

(٣) أخرجه أحمد في «مسند عبد الله بن عباس»، والحاكم في «الجهاد»: باب مقام الشهداء، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم».

(٤) أخرجه مالك في «الجنائز»: باب النهي عن البكاء على الميت، ولفظه: =

ـ بضم الجيم ـ قيل: هي التي تموت من الولادة وولدها في بطنها، وقيل: ولو وضعت، وقيل: التي تموت بكراً لم يمسّها الرجال، والله أعلم. وفي الترمذي: «من قتل دون ماله فهو شهيد»[١] وفي النسائي: «من قتل دون مظلمة فهو شهيد»[٢].

وفي الدارقطني: «موت غربة شهادة»[٣] وفي غيره: «من مات غريباً مات شهيداً»[٤] وفي الترمذي: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من سورة الحشر، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يمسي، إن مات في يومه مات شهيداً، ومن قرأها حين يمسي فكذلك»[٥]. الثعالبي: «من قرأ آخر سورة الحشر إلى آخرها: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل؛ فمات من ليلته مات شهيداً»[٦]، الآجري[٧] عنه ﷺ أنه قال لإنسان: «إن استطعت أن تكون على وضوء أبداً فافعل، فإن ملك الموت إذا قبض روح العبد وهو على وضوء كتب الله له

= «الشُّهَدَاءُ سَبْعَةٌ سِوىٰ الْقَتِيلِ فِي سَبِيلِ الله: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرْقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَالْحَرِقُ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ».

(١) أخرجه البخاري في «المظالم»: باب من قاتل دون ماله، ومسلم في «الإيمان»: باب الدليل على أنّ من قصد، والترمذي في «الديات»: باب ما جاء فيمن قتل دون ماله.

(٢) أخرجه النسائي في «تحريم الدم»: باب من قاتل دون مظلمته.

(٣) أخرجه ابن ماجه في «الجنائز»: باب ما جاء فيمن مات غريباً. قال البوصيري: «في إسناده الهذيل بن الحكم، قال فيه البخاري: منكر الحديث».

(٤) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١/ ٢٢٧).

(٥) أخرجه الترمذي في «فضائل القرآن»: باب.

(٦) أخرجه أبو الشيخ، عن أبي أمامة «جامع الأحاديث والمراسيل» (٧/ ٣٢٦).

(٧) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري، الإمام المحدث، الفقيه الشافعي، صاحب التواليف، منها: كتاب «الشريعة في السنة» كبير، وكتاب «الرؤية»، وكتاب «الغرباء»، وكتاب «الأربعين»، وكتاب «الثمانين»، وكتاب «آداب العلماء» وكتاب «مسألة الطائفين»، وكتاب «التهجد»، وغير ذلك. توفي سنة ٣٦٠هـ. «الأعلام» (٦/ ٩٧).

الشهادة»[1]، وفي مسلم: «من طلب الشهادة صادقاً أعطيها، ولو لم تصبه»[2]. فهؤلاء المذكورين في هذه الأحاديث، أحكامهم في الغسل والصلاة بخلاف شهيد المعترك في سبيل الله تعالى، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله: (عند ربهم يرزقون).

نص الآية الكريمة، والمعنى: عند ربهم أي مقربون عنده زلفى. ومعنى يرزقون: أي كما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون، والله أعلم.

[حقيقة الروح ومصيرها بعد الموت]:

قوله: (وأرواح السعادة باقية ناعمة إلى آخره).

الأرواح جمع روح. والروح يطلق على معان، قال الزبيدي[3] في مختصر العين: «الروح[4] برد نسيم الريح. والراحة والرواح: النفس يذكر ويؤنث. والروحاني من خلق الله تعالى: روح بلا جسد إن شاء الله تعالى»[5]، انتهى من كلام الزبيدي.

قال غيره: وتعبّر العرب بالروح عن الأمور الشريفة المنزّهة، ولما كان الروح أشرف ما في الإنسان، عبّر عنه بالروح.

وقد سمّ الله جبريل عليه السلام بالروح: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، والقرآن روحاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وعيس عليه السلام روح الله، وأضيف إلى الله إضافة خلق وملك وتشريف، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك (٦/٣٠٦) بلفظ: «ويا بني إن استطعت أن لا تزال أبداً على وضوء فإنه من يأته الموت وهو على وضوء يعط الشهادة». وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم في «الإمارة»: باب استحباب طلب الشهادة.

(٣) محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر. عالم باللغة والأدب، شاعر. من تصانيفه «مختصر العين» و«الواضح» في النحو و«طبقات النحويين واللغويين» وغيرها. توفي سنة ٣٧٩هـ. «الأعلام» (٦/٨٢).

(٤) سقط من ١: (الروح).

(٥) سقط من ٢: (إن شاء الله تعالى).

ومراد المؤلف هنا روح الإنسان المختص به. وهو مشتق من الريح وهو ما اختلف الناس فيه اختلافاً كثيراً. قال ابن راشد[1] في المرقبة: «أخبرنا القرافي عن تقي الدين ابن دقيق العيد، أنّه رأى كتاباً للحكماء في حقيقة النفس والروح، وفيه ثلاثمائة قول. قال: وكثرة المقالات تؤذن بكثرة الجهالات».

ثم إن علماء الإسلام اختلفوا هل يجوز الخوض في معرفة حقيقة الروح أم لا؟ على قولين.

ـ حجة المنع، قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] ثم إنّه تعالى بيّن أنّه لم يؤت الخلق من العلم إلا القليل، وذلك أنه يقتضي أنه من الكثير الذي انفرد به ﷺ بعلمه، وما حجب علمه عنّا فكيف لنا أن نخوض فيه.

ـ حجة الجواز، أنّه إنّما منع الخوض فيه مع غير العلماء. وإلى هذا ميل الإمام أبي حامد الغزالي ﷺ.

ثم القائلون بالجواز اختلفوا، هل هو عرض نشأ من كيفية التركيب، كما نشأت الصورة المليحة والرقوم الباهرة في ثياب الحرير، فإذا انحل التركيب ذهب؛ أو هو جوهر؛ أو ليس بجوهر ولا عرض، ولا يوصف بأنه داخل الجسم، ولا خارجه؟ وإليه ميل الإمام أبي حامد الغزالي ﷺ. والذي عليه المحققون أنه جسم نوراني شفاف، سار في الجسم كسيران النار في الفحم. قلت: والظواهر الشرعية كلّها تدلّ على كون الروح جسماً. قال تعالى في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ومعلوم أنّ أجسامهم

---

(١) محمد بن عبد الله بن راشد القفصي، أبو عبد الله، الإمام العلامة العمدة المحقق، الفقيه المالكي، الأصولي، أخذ عن أئمة من أهل المشرق والمغرب، ولي القضاء في قفصة وغيرها، واستقر بتونس، من مصنفاته شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي، والفائق في الأحكام والوثائق، والمرقبة العليا في تفسير الرؤيا. توفي سنة ٧٣٦هـ. «شجرة النور» (٢٠٨).

بالية. وقال في آل عمران: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] وليس ذلك لأجسادهم، بل ذلك وصف للأرواح، وذلك يدلّ على أنها أجسام. وكذلك: «إنّما نسمة المؤمن طائر تعلق في شجرة الجنة»[١] إلى غير ذلك من الأخبار الدالة على إضافة الأفعال إلى الروح والأخبار عنها بما لا يتأتى الإعراض عنه.

واختلف هل النفس والروح بمعنى واحد أم لا؟ قال الإمام أبو المعالي: «جعل الله فيها آية عظيمة في الدلالة على التوحيد، بأن جعل بين جنبيك موجوداً ترى أفعاله مشاهدة، ولا تقدر أن تصل إلى إدراك حقيقته، ولا تحيط بكنه صفته؛ فلا تنكر وجود[٢] الإله الذي تشاهد أفعاله، ولا سبيل إلى الإحاطة به».

والذي يجب القطع به أن الروح موجود مخلوق لله ﷻ من جنس مخلوقاته، ابتدأه الله تعالى وبدأه من العدم إلى الوجود، وأسكنه هذا الجسد، فحيي الجسد عند ذلك، أي خلق الله تعالى الحياة في كل جزء من أجزاء الجسد، عندما جاوره الروح. ثم يخرجه من هذا الجسد فيموت الجسد عند مفارقته؛ عادة أجراها الله تعالى، أي إنّه يخلق الموت، أي صفة مضادة للحياة، في كل جزء كانت الحياة تحلّه قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ولأن المحلّ القابل للشيء يستحيل عروّه عن ذلك الشيء ونقيضه.

ثم تنقل الروح إن كانت سعيدة إلى علّيين، وإن كانت شقية إلى سجّين، فتبقى هذه منعمة وهذه معذبة، حتى إذا كان يوم القيامة أعاد الله الجسد كما كان أول مرة، فترجع الروح إليه، فلا تخرج منه أبداً. ثم يقع الحساب وتتطاير الصحف. وينصب الميزان، ويمد الصراط؛ فهؤلاء للنعيم الذي لا آخر له، وهؤلاء إلى العذاب الذي لا فراغ له.

---

(١) أخرجه مالك في «الجنائز»: باب جامع الجنائز، والنسائي في «الجنائز»: باب أرواح المؤمنين، وابن ماجه في «الزهد»: باب ذكر القبر والبلى.

(٢) في ٢: (صفة).

وقيل: مستقر الأرواح القبور فهي في أقبية[1] قبورها، ولها اتصال وإدراك، لما أعدّ لها، فتنعّم بذلك أو تعذّب. وقيل: مستقرها الصور. وكيف ما كان فهي باقية لا تفنى في نعيم أو عذاب، حتى تعاد أجسادها يوم الحساب. في الصحيحين أنّه ﷺ قال: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنّة، ومن كان من أهل النار فمن أهل النّار»[2].

[الإيمان بفتنة القبر والثبات عند سؤال الملكين]:

قوله: (وأنّ المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون) إلى آخره.

قد بلغت الأخبار بفتنة القبر وعذابه مبلغ التواتر. وقد استعاذ عليه السلام من عذاب القبر. والاستعاذة منه ومن فتنته مستفيضة في السلف الصالح قبل ظهور المبتدعة.

والفتنة المراد بها هنا الاختبار. وفتنة القبر سؤال الملكين، وهما منكر ونكير، وهما فتانا القبور. ورد في الحديث صفتهما: «أنّهما أسودان أزرقان، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجرّان شعورهما، وأنيابهما كالصياصي، يخرج لهيب النار من أفواههما ومناخرهما ومسامعهما، يمسحان الأرض بشعورها، ويحفران الأرض بأظفارهما، مع كلّ واحد منهما عمود من حديد، لو اجتمع عليه أهل الأرض ما حرّكوه»[3] وإنما سمّيا بما ذكر لأنّهما لا يشبهان خلق الآدميين، ولا خلق الملائكة، ولا خلق الطير، ولا خلق البهائم، ولا خلق الهوام[4]، بل هما خلق بديع، وليس في خلقهما

---

(١) في ٢: (أفنية).

(٢) أخرجه مالك في «الجنائز»: باب جامع الجنائز، والبخاري في «بدء الخلق»: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم في «الجنة وصفة نعيمها»: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

(٣) أبو الشيخ في «السنة»، والحاكم في «الكنى» «جامع الأحاديث والمراسيل» (١٨/ ٢٤٨).

(٤) سقط من ١: (ولا خلق الهوام).

أنس للناظرين إليهما، وتسميتهما بذلك لقب، لا[1] على وجه الذم، وإنّما قيل لهما «الفتانان» لانتهارهما الميّت وشدة مراجعتهما، اختباراً للميت عن صحيح إيمانه. وصفة مساءلتهما وردت بهما الآثار واختلفت الروايات في ذلك. ففي البخاري: «أنّ العبد إذا وضع في قبره وتولّى عليه أصحابه أنّه يسمع قرع نعالهم، أتى الملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد ﷺ، فأمّا المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك قد بدّلك الله مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً»[2]. قال قتادة[3]: «وذكر لنا أنّه يفسح له في قبره»، وقال مسلم: «سبعون ذراعاً». «وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما تقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، وضرب بمطراق من حديد ضربة يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلان»[4] وفي هذا روايات كثيرة. وذكر الغزالي في كتاب علوم الآخرة وروي عن ابن مسعود ﷺ أنّه قال: يا رسول الله ما أوّل ما يلقى الميت إذا دخل في قبره؟ قال: «يا ابن مسعود ما سألني عنه أحد إلا أنت، فأوّل ما يناديه ملك اسمه رومان، يجوس خلال المقابر، فيقول: يا عبد الله اكتب عملك، فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس. فيقول: هيهات، كفنك قرطاس ومدادك ريقك وقلمك إصبعك. فيقطع له قطعة من كفنه، ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب في الدنيا، فيذكر حينئذٍ حسناته وسيّئاته كيوم واحد، ثم يطوي الملك القطعة ويعلقها في

---

(١) سقط من ١: (لا).

(٢) أخرجه البخاري في «الجنائز»: باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم في «الجنة»: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

(٣) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري. مفسر حافظ، ضرير، أكمه. قال أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. وكان يرى القدر، وقد يدلس في الحديث. مات بواسط في الطاعون سنة ٦٩هـ. «الأعلام» (٥/ ١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري في «الجنائز»: باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم في «الجنة»: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

عنقه». ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي عمله. فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر، وهما ملكان» فذكر في صفتهما قريباً مما تقدم وفيه: بيد كل واحد منهما مقمعة من حديد، لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه، لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكّاً، فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة، فتدخل في منخر الميت من الصدر، ولا يقدر على حركة، غير أنه يسمع وينظر، قال: فيبديانه بعنف وينهرانه بجفاء، وقد صار التراب له كالماء حيث ما تحرك انفتح فيه ووجد فرجة، فيقولان له: من ربك وما دينك وما نبيك وما قبلتك؟ فمن وفّقه الله وثبّته بالقول الثابت في الحياة الدنيا قال ومن وكّلكما عليّ ومن أرسلكما إلي؟ وهذا لا يقوله إلا علماء الأخيار[1]، فيقول أحدهما للآخر: صدق وكفي شرنا، ثم يضربان القبر عليه كالقبة العظيمة، ويفتحان له باباً إلى الجنة من تلقاء يمينه، ثم يفرشان له حريرها وريحانها، ويدخل عليه من نسيمها وريحها وريحانها، ويأتيه عمله في صورة أحبّ الأشخاص إليه، ويؤنسه ويحدثه ويملأ قبره نوراً، ولا يزال في فرح وسرور ما بقيت الدنيا، حتى تقوم الساعة، فليس شيء أحب إليه من قيامها.

ودونه في المنزلة المؤمن العامل الخيّر، ليس معه حظّ من العلم[2] ولا من أسرار الملكوت، يلج عليه عمله عقب رومان في أحسن صورة، طيب الريح حسن الثياب، فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: من أنت الذي منّ الله عليّ بك في غربتي؟ فيقول: أنا عملك الصالح فلا تحزن ولا توجل، فعمّا قليل يلج عليك منكر ونكير فيسألانك، فلا تدهش. ثم يلقّنه حجته، فبينما هو كذلك إذ دخلا عليه، فينتهرانه ويقعدانه مستنداً، ويقولان: من ربّك؟ فيقول: الله ربّي، ومحمّد نبيي، والقرآن إمامي، والكعبة قبلتي، وإبراهيم أبي، وملّته ملتي، غير مستعجل. فيقولان: صدقت، ويفعلان به كالأول، إلّا أنّهما يفتحان له باباً إلى النار، فينظر إلى حيّاتها وعقاربها وسلاسلها وأغلالها وحميمها وجميع غمومها وهمومها وزقومها، فيفزع فيقولان له لا عليك سوء، هذا موضعك قد

---

(١) في ٢: (الأحيار).

(٢) في ٢: (العمل).

أبدله الله تعالى بموضعك من الجنة، نم سعيداً. ثم يغلقان عليه باب النار. ولم يدر ما مر عليه من الشهور والأعوام والدهور. ومن الناس من يتلجلج في مسألته، فإن كانت عقيدته مختلّة[1]، وامتنع أن يقول: الله ربّي، وأخذ غيرها من الألفاظ، فيضربانه ضربة يشتعل منها ناراً، ثم تطفأ عنه أياماً، ثم تشتعل عليه، هذا دأبه ما بقيت الدنيا. قال بعد كلام: وأمّا الفاجر فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان له: لا دريت ولا عرفت، ثم يضربانه بتلك المقامع حتى يتلجلج في الأرض السابعة، ثم تلفظه الأرض في قبره. واختصرت بعض الكلام.

اللهم احفظنا من المكاره، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قوله: (ويثبت الله) إلى آخره.

هذا نص الآية الكريمة. وأظهر الأقوال في تفسيرها أنّ تثبيتهم في الدنيا عند الموت، وفي الآخرة عند سؤال الملكين.

وخالفت المبتدعة في فتنة القبر وعذابه، وقالوا: إنّا نرى الميّت في قبره بعد دفنه بأيام لا يزال على حالته، حتى إنّ حبة السمسم إذا وضعت عليه لم تزل على ما كانت عليه. وهذه حماقة منهم، وجهل بأحكام الله تعالى، ووقوف مع المعتاد. ومن يضلل الله فما له من هاد.

وقوله أوّل الكلام: وإن المؤمنين يفتنون، يشعر بأنّ الكفار لا يسألون. وقد ورد في الحديث ما يقتضي سؤال الكافرين بقوله ﷺ: «وأمّا المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[2]. وقال ابن عبد البر: «الأخبار تقتضي أنّ الكفار لا يسألون، وإنما يسأل من حقن دمه وماله ودخل في حزب المسلمين، فالسؤال في تمييز المؤمنين حقاً، ممّن دخل

---

(١) سقط من ١: (فإن كانت عقيدته مختلّة).

(٢) أخرجه البخاري في «الجنائز»: باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم في «الجنة»: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

في حزبهم وليس منهم، ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فأمّا من لم يتحلّ بحلية المؤمنين ولم يدخل في حزبهم فهو متميّز بظاهره عنهم، ولا يسأل لتساوي ظاهره وباطنه.

والواو في قوله: ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ واو الحال، تقديره: إذاً يسألون.

وهل يسأل الصغار كالبالغين؟ قال القرطبي[1] في تذكرته: هم كالبالغين. ويأتي في باب الدعاء للطفل في قول الشيخ: «وقه من فتنة القبر» ما يقتضي[2] ما قاله القرطبي، والله أعلم.

[الإيمان بالملائكة الحفظة]:

قوله: (وأنّ على العباد حفظة يكتبون أعمالهم) إلى آخره.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]. ورقيب: يرقب عمله، وعتيد: حاضر يكتب كلّ شيء، حتى أنينه في مرضه. وسمّوا حفظة لحفظهم ما يصدر من الإنسان من قول وعمل. قيل: وظاهر ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ الآية أنّهما يكتبان المباح. وفي الحديث عنه ﷺ قال: «مقعد مليكك على ثنيتك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، لا تستحي من الله ولا منهما». قال سفيان: «بلغني أنّ كاتب الحسنات أمين على كاتب السيّئات، فإذا أذنب العبد قال: لا تعجل، لعلّه يستغفر الله». ونقله المهدوي[3] حديثاً، وقال فيه: فإذا لم يتب؟ قال: نعم.

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري الخزرجي القرطبي الأندلسي، أبو عبد الله. من كبار المفسرين، الفقيه المحدث، صالح متعبد. من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب في شمال أسيوط بمصر، وتوفي بها. من كتبه «الجامع لأحكام القرآن» و«التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة». توفي سنة ٦٧١هـ. «الأعلام» (٥/ ٣٢٢).

(٢) في ١: (يأتي).

(٣) أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي التميمي، أندلسي أصله من المهدية، مقرئ ومفسر ونحوي. صنف كتباً منها «التفصيل الجامع لعلوم التنزيل» وهو تفسير كبير، =

قال: اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين، ما أقلّ مراقبته لله ﷻ. وقيل: إنّهما اثنان لا يفارقان.

والصّحيح أنّهما اثنان بالليل، واثنان بالنّهار لحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنّهار»(1). وقال الأوّلون: يحتمل أن يكون المتعاقبون غير الحفظة. قيل: ويفارقان الإنسان عند غائطه وعند جماعه.

قوله: (ولا يسقط) إلى آخره.

أي إنّ كتبهم الأعمال ليس لخوف سقوطها عن علم الله، تعالى الله عن ذلك، وإنّما هو لإقامة الحجّة عليهم، واستشعار النفوس الضّعيفة أنّ الشيء المقيّد المحفوظ بالكتابة لا يسقط، ولهذا يقول الكافرون: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الآية [الكهف: ٤٩].

[الإيمان بملك الموت]:

قوله: (وإنّ ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه) إلى آخره.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أي وكّل بقبض أرواحكم، يتناول بيده إخراج الروح من الجسد ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣]. وأعوانه يعالجونها حتّى تبلغ الحلقوم بدليل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

= يذكر فيه القراآت والإعراب، واختصره في «التحصيل في مختصر التفصيل» و«التيسير في القراآت» وغيرها. توفي سنة ٤٤٠هـ. «الأعلام» (١/ ١٨٤).

(١) عن أبي هُريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسْألُهُمْ - وهوَ أعلمُ بهم -: كيفَ تَركتُمْ عِبادِي؟ فيَقُولونَ: تَركْنَاهمْ وهم يُصَلُّونَ، وأتيناهُمْ وهم يُصَلُّون». أخرجه مالك في «الصلاة»: باب جامع الصلاة، والبخاري في «مواقيت الصلاة»: باب فضل صلاة العصر، ومسلم في «المساجد»: باب فضل صلاتي العصر والصبح.

والله هو المتوفي حقيقة؛ لأنه الذي يخلق الموت في الجسد عند مفارقة الروح له بدليل: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ الآية [الملك: ٢].

وبهذا الذي قررناه يحصل الجمع بين هذه الآي، وتتنزّل كلّ آية منزلتها من البلاغة. قال ابن رشد: «وملك الموت يقبض روح كلّ حيوان، آدمياً كان أو غيره. وخصّه المبتدعة ببني آدم». قاله في «المقدّمات». وروي عن مجاهد أنّه قال: «زويت لملك الموت الأرض، وجعلت مثل طست يتناول منها حيث يشاء». وذكر عياض في «المدارك» أنّه قال: سأل بعض الولاة إبراهيم بن يزيد[١] عن ملك الموت كيف يقبض روحاً في الهند، روحاً بأقصى المغرب، وأخرى بمصر وأخرى بالعراق في وقت واحد؟ فقال إبراهيم: «لما صعب أمر هؤلاء الحرس والأعوان بين يديك حسبت أمر الخالق سبحانه وقدرته كذا. وسأمثّل لك مثلاً: الشمس تطلع على البلاد في حين واحد، فلو أمرت بقبض الأرواح جميعاً لكانت تقدر؟» قال: نعم، قال: «كذلك ملك الموت، أعطي من القوة مثل هذا».

قيل: إنّ ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثمّ يأمر أعوانه بقبضها. قال القرطبي في «التذكرة»: روى جعفر بن محمد[٢] عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له عليه السلام: «ارفق بصاحبي هذا فإنّه مؤمن». فقال ملك الموت عليه السلام: يا محمد طب نفساً

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النخعي، من مذحج، من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث. من أهل الكوفة. مات مختفياً من الحجاج. قال فيه الصلاح الصفدي: «فقيه العراق، كان إماماً مجتهداً له مذهب». توفي سنة ٩٦هـ. «الأعلام» (١/ ٨٠).

(٢) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق. كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئاً عليه صداعاً بالحق. له رسائل مجموعة في كتاب. توفي بالمدينة سنة ١٤٨هـ. «الأعلام» (٢/ ١٦٢).

وقرّ عيناً، فإنّي بكلّ مؤمن رفيق. واعلم أنّ ما من أهل بيت مدر ولا شعر في برّ ولا بحر، إلا وأتصفّحهم في كلّ يوم خمس مرّات، حتى لأنا أعرَف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أنّي أردت قبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتّى يكون الله تعالى هو الآمر بقبضها»[1].

فإن قيل كيف يتصوّر أن يكون غيري أعرف منّي بنفسي؟ أجيب بأنّ كلّ أحد مرّ عليه زمان لا يعرف فيه نفسه، من حين ولادته إلى تمييزه، وملك الموت يعرفهم ابتداء وانتهاء، ويبيّن هذا قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٧٦] ولم يقل كما يعرفون أنفسهم.

قال جعفر بن علي: «بلغني أنّه يتصفّحهم عند مواقيت الصّلاة»، ذكره الماوردي[2]. وذكر أبو نعيم[3] عن ثابت البناني[4] قال: «الليل والنّهار أربعة وعشرون ساعة، ليس فيها ساعة تأتي على ذي روح إلّا وملك الموت قائم عليها، فلو أمر بقبضها لقبضها». وهذا عام في كلّ ذي رحم كما تقدّم.

وذكر أنّ سبب قبض ملك الموت الأرواح، ما روى الزهري وغيره ما معناه أنّ الله تعالى لمّا أراد خلق آدم ﷺ أرسل جبريل ليأتيه من تربة الأرض، فأتاها ليأخذ منها فاستعاذت بالله من ذلك فأعاذها، فأرسل ميكاييل فكان كذلك، فأرسل عزرائيل فاستعانت فلم يعذها فأخذ منها. فقال الربّ تبارك وتعالى: «أما ما استعاذت بي منك؟» قال: نعم. قال: «فهلّا رحمتها

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» «جامع الأحاديث والمراسيل» (١/ ٣٤٨).

(٢) علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى قضاة عصره، الفقيه الشافعي، من العلماء الباحثين أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة. من كتبه «الأحكام السلطانية» و«الحاوي» في فقه الشافعية وغيرهما. توفي سنة ٤٥٠هـ. «الأعلام» (٤/ ٣٢٧).

(٣) أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم، حافظ، مؤرخ، من الثقات في الرواية والحفظ. ولد ومات في أصفهان. من تصانيفه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» و«معرفة الصحابة» و«دلائل النبوة» وغيرها. توفي سنة ٤٣٠هـ. «الأعلام» (١/ ١٥٧).

(٤) ثابت البناني، بصري، تابعي، ثقة، رجل صالح. «ثقات العجلي» (١/ ٢٥٩).

كما رحماها صاحباك؟» قال: يا ربّ طاعتك أوجب علي من رحمتي إيّاها. قال ﷻ: «اذهب فأنت ملك الموت، سلّطتك على قبض أرواحهم» فبكى. فقال: «ما يبكيك؟» فقال: يا ربّ إنكّ تخلق من هذا الخلق أنبياء وأصفياء ومرسلين، وإنّك لم تخلق خلقاً أكره إليهم من الموت فإذا عرفوني أبغضوني. قال: «إنّي سأجعل للموت عللاً وأسباباً ينسبون الموت إليها، ولا يذكرونك بخلق الأوجاع وسائر الحفوف».

[حقيقة الروح]:

قوله: (يقبض الأرواح).

القبض حقيقته معلومة. وهذا يبيّن أنّ الرّوح ليس عرضاً من الأعراض كما يقوله الأسفرائيني وغيره. وإنّما هو جسم من الأجسام كما قال الأشعري وإمام الحرمين، عليه معوّل أكثر المتأخّرين من الفقهاء والمتكلّمين. قال إمام الحرمين: «هو جسم هوائي لطيف، به تكون حياة الجسد عادة أجراها الله تعالى». وذكر ابن يونس[1] في آخر كتاب الجنائز عن أصبغ[2] عن ابن القاسم أنّه سمع عبد الرحمن بن خالد[3] يقول: «بلغني أنّ الرّوح له جسد ويدان ورجلان ورأس وعينان، يُسَلُّ من الجسد سلًّا، وهو في «العتبيّة»، قال ابن رشد في المرقبة[4]: أخبرني الفقيه الخطيب أبو محمد البرجيني، عن الشيخ

---

(١) أبو بكر محمد بن يونس التميمي الصقلي، الإمام الحافظ النظار، أحد العلماء وأئمة الترجيح الأخيار، الفقيه المالكي، الفرضي، الفاضل الملازم للجهاد. ألف كتاباً في الفرائض، وشرحاً على المدونة عليه اعتماد طلبة العلم. توفي بالمنستير سنة ٤٥١هـ. «شجرة النور» (١١١).

(٢) أبو عبدالله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري. نظّار فقيه، من أجلّ أصحاب ابن وهب وابن القاسم وأشهب، توفي سنة ٢٥٥هـ. «الديباج» (١/ ٢٩٩).

(٣) عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي المصري، أبو الوليد. وال، من رجال الحديث الثقات. كان على شرطة مصر، ثم ولي مصر لهشام بن عبد الملك. توفي سنة ١٢٧هـ. «الأعلام» (٣/ ٣٠٥).

(٤) في ١: (ابن رشد في المواقيت) وفي ٢: (ابن رشد في المراقبة).

الصّالح أبي الطاهر الركراكي قال: حضرت عند وليّ من أولياء الله حين النّزع، فشاهدت روحه قد خرجت من مواضع من جسده، ثمّ تشكّلت على رأسه بشكله وصورته، ثمّ صعدت إلى السّماء، وصعدت نفسي معها. فلمّا انتهينا إلى سماء الدنيا شاهدت باباً، ورجل ملك ممدود عليه، فأزال ذلك الملك رجله وقال لنفس ذلك الولي: اصعدي فصعدت، فأرادت نفسي أن تصعد معها، فقال: «ارجعي فقد بقي لك وقت». قال: فرجعت فشاهدت النّاس دائرين على جسمي، وقائل يقول: مات، وآخر يقول: لم يمت فدخلت من أنفي أو قال من عيني وقمت.

وقد تقدّم الكلام على الروح والإشارات إلى الخلاف، فهل الروح والنفس بمعنى واحد أو لا، بما فيه كفاية.

واختلف في الموت هل هو صفة وجوديّة وهو قول الأشعري؛ أو عدميّة وهو عدم الحياة، وهو قول الأسفرائيني. ودليل قول كلّ منهما معلوم في كتاب الأصول.

أصل: (وأنّ خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم. وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون، أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ علي، رضي الله عنهم أجمعين. وأن لا يذكر أحد من صحابة الرّسول إلّا بأحسن ذكر، والإمساك عمّا شجر بينهم. وأنّهم أحقّ الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظنّ بهم أحسن المذاهب).

[فضل الصحابة رضوان الله عليهم]:

شرح: قال الجوهري: القرن من الناس أهل زمان واحد وأنشد:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

قيل: واشتقاقه من الأقران، ويراد به الجماعة من النّاس يجتمعون على ملّة واحدة، أو ملك أو زمان واحد.

واختلف في مقدار ذلك الزّمان اختلافاً كثيراً. وأكثر ما قيل فيه مائة وعشرون سنة. وأقلّ ما قيل فيه عشرة أعوام.

وفسّر المصنّف القرن بمن رأى رسول الله ﷺ وآمن به، ثمّ من رآهم، ثمّ من رأى من رآهم. وبهذا فسّره أكثر العلماء.

وقال المغيرة[1]: «أفضل القرون الصّحابة، ثمّ أبناؤهم، ثمّ أبناء أبنائهم». واختلف فيما بعد ذلك من القرون، هل يوقف على التّفضيل أم يمشي الحكم كذلك؟ فذهب ابن رشد إلى أنّ هذه القرون الثلاثة هي التي بانت بالفضل والتفاوت خاصّة. وقال غيره: لا يزول التفاوت كذلك إلى قيام السّاعة. والتّحاكم في ذلك إلى قوله ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[2] هل خرج مخرج الحصر للتفضيل أم لا؟ قيل: ودلّ للثاني قوله عليه السلام[3]: «ما من يوم إلّا والذي بعده شرّ منه»[4]، وروي: «في كلّ عام ترذلون، وإنّما يسرع بخياركم»[5].

[تعريف الصحابي]:

قوله: (وأفضل الصّحابة) إلى آخره.

الصحابي اسم لمن رأى النبي ﷺ وتبعه. زاد بعضهم وأخذ عنه. وقيل: وطالت صحبته واتّصل بقاؤه. وبالأول قال البخاري وابن حنبل والقاضي أبو بكر. وقيل: لا يكون صحابيّاً من كان صغيراً في زمانه عليه السلام. وقال أبو عمر ابن عبد البرّ: يصدق[6] هذا الاسم على من ولد في حياته ﷺ، وإن لم يره وهو بعيد.

---

(١) المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، الإمام الفقيه، أحد من دارت عليه الفتوى بالمدينة بعد مالك، الثقة الأمين. توفي سنة ١٨٨هـ. «شجرة النور» (٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الشهادات»: باب لا يشهد على شهادة جور، ومسلم في «فضائل الصحابة»: باب فضل الصحابة.

(٣) سقط من ١: (خير القرون.. عليه السلام).

(٤) أخرجه البخاري في «الفتن»: باب لا يأتي زمان، عن أنس، بلفظ: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشرُّ منه حتى تَلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ».

(٥) جملة «كل عام ترذلون» من كلام الحسن البصري «كشف الخفاء» (رقم١٩٧٩)، ولم نقف على الجملة الثانية.

(٦) سقط من ١: (يصدق).

[ترتيب الصحابة في الفضل]:

واختلف العلماء ﷺ في التفضيل بين الصّحابة، فمنهم من وقف. قال مالك[1]: «أدركت جماعة من أهل بلدنا لا يفضلون بين الصحابة ويقولون: الكل فضلاء. والأكثر على التفضيل، وعليه:

ـ فأفضل الصحابة أهل الحديبية للآية: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح: ١٨] قيل: نزلت في أهل الحديبية.

ـ وأفضلهم أهل بدر؛ أخرج مسلم عنه ﷺ: «اطلع الله على أهل بدر فقال: يا أهل بدر افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[2].

ـ وأفضل أهل بدر العشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة ابن الجراح، رضي الله عنهم أجمعين.

ـ وأفضل العشرة الخلفاء الأربعة.

ـ وهم في الفضل على ترتيبهم في الخلافة. وقيل: بالوقف فيما بين عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بمحبتهم بفضله.

ومن العلماء من ذهب إلى أنّ من مات في حياة النبي ﷺ شهيداً أو غير شهيد أفضل ممّن بقي بعده، والله أعلم.

قال بعض الشيوخ: واعلم أن التفضيل إمّا باعتبار الباطن، وكثرة الثواب، ورفع الدرجات، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالخبر؛ وإمّا باعتبار الظواهر، ولا يحصل ذلك إلا بالتفاوت في خصال الفضائل، فمن كثرت فيه فهو أفضل. وما منهم واحد ﷺ إلّا وله فضائل ومناقب لا تحصى.

وعلى الجملة فلا مزية فوق مزية الصدّيق، وهو أفضل من وطئ الحصى

---

(١) سقط من ١: (مالك).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنة»: باب في الخلفاء.

بعد رسول الله ﷺ. قال فيه ﷺ: «لو كنت متخذاً أحداً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[1].

وورد في فضائل عمر: «لو لبثت فيكم ما لبث نوح في قومه ما استوفيت لكم فضل عمر»[2].

وفي عثمان: «ألا أستحي ممن استحيت منه ملائكة السماوات والأرض»[3]، وفيه نزلت: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ الآية[4] [الزمر: ٩].

وفي فضائل علي رضي الله عنه: «علي منّي كهارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»[5]. وقال ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[6]، و«عهد إليّ ألّا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق»[7].

وقد مدحهم الله أجمعين في كتابه فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى

---

(١) أخرجه البخاري، في «مناقب الأنصار»: باب هجرة النبي وأصحابه، ومسلم في «الفضائل»: باب فضائل الصحابة.

(٢) لم نقف عليه، هو ظاهر الوضع، وكان الشارح في غنى عنه أمام ما جاء في صحيح السنة في فضل عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في «مناقب الأنصار»: باب هجرة النبي وأصحابه، ومسلم في «الفضائل»: باب فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم «لباب النقول» للسيوطي (ص١٨٤).

(٥) أخرجه البخاري في «فضائل أصحاب النبي»: باب مناقب علي بن أبي طالب، ومسلم في «فضائل الصحابة»: باب من فضائل علي بن أبي طالب.

(٦) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم في «معرفة الصحابة»: باب أنا مدينة العلم، وقال صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي فقال: «بل موضوع». وأخرجه الترمذي في «المناقب»: باب مناقب علي بن أبي طالب بلفظ: «أنا دار الحكمة، وعلي بابها»، وقال: «حديث غريب منكر». وقال السيوطي: «هو حديث حسن».

(٧) أخرجه مسلم في «الإيمان»: باب الدليل على أن حب الأنصار وحب علي من الإيمان، عَلِيٌّ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النبي الأمي إِلَيَّ: «أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ».

وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] اللهم انفعنا بمحبّتهم، واحشرنا في زمرتهم، واختم لنا بما ختمت به لعبادك الصالحين، برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

[النهي عن ذكر الصحابة إلّا بما هو أحسن]:

قوله: (وأن لا يذكر احد) إلى آخره.

روي عنه ﷺ أنّه قال: «الله الله في أصحابي لا تتخذونهم غرضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذاني. ومن آذاني فقد آذى الله. ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[١]. وقال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[٢]. قيل: معناه ألّا يذكروا إلّا بأحسن ذكر. وقال ﷺ: «من سبّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل»[٣].

قال أبو بكر أيوب السختياني[٤]: «من أحبّ أبا بكر فقد أقام الدين. ومن أحبّ عمر فقد أوضح السّبيل. ومن أحبّ عثمان فقد استضاء بنور الله. ومن أحبّ عليّاً فقد استمسك بالعروة الوثقى رضي الله عنه أجمعين. ومن أحسن الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق. ومن انتقص

---

(١) أخرجه الترمذي في «المناقب»: باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ، وأحمد في مسند عبد الله بن مغفل المزني.

(٢) أخرجه الطبراني قال الهيثمي: «فيه مسهر بن عبد الملك، وثقه ابن حبان، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح» «مجمع الزوائد» في الفتن: باب ما كان بين أصحاب رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني «جامع الأحاديث والمراسيل» (٧/ ٢٥٧).

(٤) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، أبو بكر: سيد فقهاء عصره. تابعي، من النساك الزهاد، ومن حفاظ الحديث. كان ثبتاً ثقة، روي عنه سبعمائة حديث. «الأعلام» (٢/ ٣٨).

واحداً منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبّهم جميعاً ويكون قلبه سليماً».

قوله: (والإمساك عما شجر بينهم).

الإمساك: الكفّ والسكوت.

وشجر: معناه وقع واختلط، ومنه الشجرة لاختلاط أغصانها. يريد ما وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وغير ذلك من الوقائع.

قد تقدم قوله عليه السلام: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[1] و«لا تؤذوني في أصحابي»[2]. وعن عبد الله بن عمر أنه أجاب أهل البصرة، لما أرسلوا يسألونه عن أمر عثمان وعلي رضي الله عنهما، بأن قال: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «تلك دماء لم يخضب الله فيها أيدينا، فلا نخضب فيها ألسنتنا». وقال بعض الأئمة: أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم عيون، ودواء العين أن لا تمس، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

والمعتقد أن الصحابة رضي الله عنهم عدول اختارهم الله تعالى لصحبة نبيّه، ولنصرة دينه، وأثنى عليهم في كتابه العزيز، وكل ما وقع بينهم في ذلك فليس عن هوى ولا لتحصيل دنيا، وإنما هو عن اجتهاد ورأي. فالذي يجب على الكافة اعتقاد عدالتهم وأنّهم مجتهدون، وكلّ مجتهد في الأحكام مصيب فمتى سمعوا شيئاً من وقائعهم كفّوا عن الخوض فيما لا يعلمون «من حسن إسلام

---

(١) أخرجه الطبراني قال الهيثمي: «فيه مسهر بن عبد الملك، وثقه ابن حبان، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد في الفتن»: باب ما كان بين أصحاب رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني، بلفظ: «لا تؤذوني في صاحبي» «جامع الأحاديث والمراسيل» (٨/ ١٨٣)، «كنز العمال»: حديث (٣٢٥٩١). وبلفظ الجمع أخرجه البخاري في «فضائل الصحابة»: باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»، بلفظ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد...»، ومسلم في «فضائل الصحابة»: باب تحريم سب الصحابة عليهم السلام بنحوه.

المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

قوله: (وانّهم) إلى آخره.

قيل: هذا مما يناقض ما قبله؛ لأن التماس أحسن المخارج لهم في الوقائع فرع ثبوت الخوض في ذلك، وقد تقدم النهي عن الخوض في ذلك بقوله: «والإمساك عما شجر بينهم»، وأجيب بوجهين:

الأول: أنّ هذا خاص بالعلماء، والأوّل بجمهور الناس وعامتهم؛ إذ العلماء مأمورون بالبيان وإزالة الإشكال لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] بخلاف العوام، فإنه لا يجوز لهم الكلام في ذلك، لفرط جهلهم.

الثاني: أنّ الإمساك المراد به الكفّ عن تتبع الوقائع في الحروب، والإعراض عما نقله جهلة المؤرخين في ذلك، والتماس المخرج الحسن يكون فيما نقل منها واشتهر.

أصل: (والطاعة لأئمّة المسلمين، من ولّاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح، واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم. وترك المراء والجدال في الدين. وترك كلّ ما أحدثه المحدثون. وصلّى الله على سيدنا محمد نبيّه، وعلى آله وأزواجه وذرّيته، وسلّم تسليماً كثيراً).

[وجوب طاعة أئمة المسلمين من ولّاة الأمور والعلماء]:

شرح: الطاعة فعلة من طاع يطوع، إذا انقاد.

والأئمة: جمع إمام. وللإمام شروط إذا استكملها[2] استحق هذا الاسم. قال الغزالي: «شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة:

- الذكورية. وهذا شرط بدون خلاف.

---

(١) أخرجه مالك في «حسن الخلق»: باب ما جاء في حسن الخلق، والترمذي في «الزهد»: باب حدثنا سليمان. والحديث صحيح.

(٢) سقط من ١: (إذا استكملها).

- والورع.

- والعلم.

- والكفاية.

- وأن يكون قرشي النسب. وهذا في إمامة الخلافة».

قيل: والإمامة على أربع أوجه، إمامة وحي، ووراثة، وعبادة، ومصلحة.

فالأولى: النبوءة.

والثانية: العلم.

والثالثة: الصلاة.

والرابعة: الخلافة.

وكلّها ثابتة لرسول الله ﷺ.

وولّاة الأمور: الحكام.

والطاعة لهؤلاء واجبة لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وهم أمراء الحق العاملون[١] بأمر الله تعالى، وأمر السنة، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. قيل: وكان بعض الخلفاء يقول: أطيعوني فيما أطعت الله[٢] فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم[٣] أنه قال لمّا قال مسلمة بن عبد الملك، ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فقال: أليس يرغب عنكم إذا خالفتم لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وعنه ﷺ: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني»[٤].

---

(١) في ٢: (العالمون).

(٢) في ١: (ما عدلت).

(٣) سلمة بن دينار المخزومي، أبو حازم. ويقال له الأعرج. عالم المدينة وقاضيها وشيخها. فارسي الأصل. كان زاهداً عابداً. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم. توفي سنة ١٤٠هـ. «الأعلام» (٣/ ١١٣).

(٤) أخرجه البخاري في «الأحكام»: باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، ومسلم في «الإمارة»: باب وجوب طاعة الأمراء.

وقيل: هم العلماء العاملون بعلمهم.

فطاعة أولي الأمر واجبة، إذ بهم تقام الأحكام وتحفظ الفروج والأموال.

واعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. مسلم عن ابن عمر أنّ الرسول ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطّاعة فيما أحبّ وكره، إلّا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1]، وعنه ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبّونهم ويحبّونكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم. وشرار أئمّتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، فقلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصّلاة»[2]. وعنه ﷺ أنّه قال: «ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها» قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك شيئاً من ذلك؟ قال: «تؤدّون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم»[3].

[وجوب الاقتداء بالسلف الصالح]:

قوله: (واتباع السلف الصالح) إلى آخره.

السلف الصالح هم الصّدر الأول، الراسخون في العلم، المهتدون بهدى النبي ﷺ، المحافظون لسنّته، اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ، وانتخبهم لإقامة دينه، ورضيهم[4] وزمة للأمّة؛ فجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده، وأفرغوا في نصح الأمّة [جهدهم]، وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم، قد أثنى الله عليهم في كتابه بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الآيتان [الحشر: ٨، ٩]. وذكر الله تعالى فيهما المهاجرين

---

(١) أخرجه البخاري في «الأحكام»: باب السمع والطاعة للإمام، ومسلم في «الإمارة»: باب وجوب طاعة الأمراء.

(٢) أخرجه مسلم في «الإمارة»: باب خيار الأئمة وشرارهم.

(٣) أخرجه مسلم في «الإمارة»: باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء.

(٤) في ١: (وصيرهم).

والأنصار، ثمّ مدح أتباعهم بحسن اتباعهم، ورضي بذلك منهم ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠]، وتوعّد بالعذاب من خالفهم، واتّبع غير سبيلهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥] فيجب اتباعهم فيما نقلوه، واقتفاء آثارهم فيما عملوه، والاستغفار لهم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ الآية [الحشر: ١٠].

والسلف: المتقدّمون، وسلف الرّجل آباؤه المتقدّمون.

والصالح: اسم فاعل من صلح، إذا استقامت أموره وأحواله. وقيل: الصالح هو القائم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق الناس.

وقول المؤلّف **(الصالح)** مفرد يراد به الجنس. وقيل: الصالح يصلح بمعرفة الله تعالى، وتصديق الرّسول، واتّباع ما جاء به، ومجاهدة النفس.

والاستغفار: طلب المغفرة. وأصلها من الغفر وهو الستر. غفر الله ذنوبك أي سترها.

[معنى المراء والجدال وحكمهما]:

قوله: (وترك المراء والجدال) إلى آخره.

أصل المراء في اللغة الاستخراج، مأخوذ من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها لتدرّ. قال ابن الأنباري[1]: «مارى فلان فلاناً، إذا استخرج ما عنده من الكلام»، انتهى. فكان كل واحد من المتمارين، وهما المتجادلان، يماري ما عند صاحبه أي يستخرجه. ويقال: المراء جحود الحقّ بعد ظهوره.

والجدال: من المجادلة، وهو في اصطلاح النظّار: تفاوض يجري بين

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري. من أعلم زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار. من كتبه «الزاهر» في اللغة، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات»، و«عجائب علوم القرآن» وغيرها. توفي سنة ٣٢٨هـ. «الأعلام» (٦/ ٣٣٤).

المتناظرين فصاعداً، بتحقيق حقّ، أو إبطال باطل، أو تغليب ظنّ. وهو مأخوذ من الجدل[1] وهو الفتل. وقيل: يرجع لمعنى الاستخراج فيتّفقان. ولذا قال الجوهري: «المراء الجدال».

وقيل: وحكم الجدال تابع لقصد صاحبه. فإن قصد التعنّت والعناد، أو خاصم في الحقّ بعد ظهوره، أو باطل، أو غلب على ظنّه أنّ خصمه لا ينفع معه الجدال، أو كان ممن ليس تحته عمل؛ فممنوع. وروي عن مالك أنّه كان يقول: «إنّ أهل بلدنا يكرهون الجدال والبحث والنّظر، إلّا فيما عنه عمل، دون ما سبيله الاعتقاد، فإنّهم لا يرون فيه جدالاً، إلّا المناظرة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هداهم إلّا أوتوا الجدال»[2]. وقال مالك أيضاً: «إنّ هذا الجدال ليس من الدّين في شيء». وذكر أهل القدر وقال: «هم شرّ من الخوارج؛ لأنّ الخوارج إنّما تكلّموا في الذنوب، وهؤلاء تكلّموا في أمر الله ورأيتهم أهل طيش وسخافة عقول». وقال أيضاً: «إذا أتانا رجل أجدل من رجل، أنترك ما علمنا من الحقّ لجداله. وقال عبد الله بن عمر: أمّا أنا فعلى سنّة من ربّي، فإن كنت شاكاً فاذهب إلى شاكّ مثلك فناظره». وقال عمر بن عبد العزيز: «إنّما أنا متّبع وليس بمبتدع. وإنّما ضرب عمر سبيعاً لتعاطيه علم المشكلات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى».

وإن كان المقصود من الجدال إظهار الحقّ والردّ على من خالفه والتثبيت للسائل فمندوب وقد يجب. قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨]، وقال مخبراً عن إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ الآية [مريم: ٤٢]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية [الأنعام: ٨٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) في ١: (الجدال).

(٢) أخرجه الترمذي في «تفسير القرآن»: باب سورة الزخرف، وابن ماجه في «كتاب النبي»: باب اجتناب البدع والجدل. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وأقام ﷺ بمكة عشر سنين، يدعوهم إلى الله ويبين لهم البراهين الساطعة والآيات القاطعة، ويحتج عليهم ويقرعهم ويوبخهم ويتلو عليهم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. ومضى على ذلك السلف ومن تبعهم من الخلف.

والجدال المذموم كلّ ما خالف الحقّ ودفع في صدره، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الآية [آل عمران: ٧]، وذلك كجدال الخوارج والروافض[١] وغيرهم من المبتدعة، ولهذا قال الشيخ: «في الدين» أي إنّ ما يكون منه في غير الدين، فهو الممتنع. وأمّا ما يكون منه للدين ولإظهار كلمته فهو الذي أتت به الشريعة وثبت نقله عن علماء الأمة.

قال بعضهم: والقول الجامع في ذلك، أنّ الجدال إن استلزم مفسدة، فهو المذموم الممنوع شرعاً. وإن لم يستلزم مفسدة، فإما أن يستلزم مصلحة أو لا يستلزم شيئاً؛ فإن لم يستلزم فهو مباح وتركه أولى؛ وإن استلزم مصلحة فهو مندوب إليه، وتارة يجب في بعض الأحيان، وذلك بحسب الأشخاص والأزمان.

قال القاضي عبد الوهاب رضي الله عنه: «فوائد المناظرة خمسة: إيضاح الحق؛ وإبطال الشبهة؛ ورد المخطئ إلى الصواب؛ والضال إلى الرشاد والزائغ إلى صحة الاعتقاد؛ مع الذهاب إلى التعلم؛ وطلب التحقيق». وللمناظرة أحكام وآداب، فمن أحكامها:

- أن يقصد بها وجه الله تعالى، وإظهار كلمة الحق.

- وأن يجتنب بها الرياء والسمعة والمباهاة واللجاج، وغير ذلك ممّا يخالف تقوى الله تعالى.

---

(١) الروافض أو الرافضة: فرقة من الشيعة، وهم الذين يرفضون إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وأوّل من تسمّى بذلك الذينَ تركوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بعد ما بايعوه، وذلك أنهم طلبوا منه أن يتبرّأ من أبي بكر وعمر، فأبى وقال: «كانا وزيري جدّي ﷺ فلا أبرأ منهما»، فتركوه ورفضوه. انظر: «الفرق بين الفرق» (٣٩ - ٧٨).

ومن آدابها:

ـ أن يكون الكلام مناوبة لا مناهبة.

ـ وأن يعتدل في رفع صوته ويحسن الإصغاء إلى كلام صاحبه، ويحترز من التعنف والتعصب والمداهنة.

ومن قدّم في جميع أموره تقوى الله تعالى، واستعمل ذلك في جميع أحواله، فقد هدي إلى صراط مستقيم. وما أعز ذلك وما أندره في زماننا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[وجوب ترك الابتداع في الدين]:

قوله: (وترك كلّ ما أحدثه المحدثون).

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(١)]، وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[(٢)]، وقال: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[(٣)]. فكل ما كان في كتاب الله تعالى، أو سنة

---

(١) أخرجه النسائي في «صلاة العيدين»: باب كيف الخطبة، ولفظه: «.. إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثَ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ». وأخرجه بدون جملة «وكل ضلالة في النار» في «السنة»: باب في لزوم السنة، ولفظه: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وأصله في «مسلم في الجمعة»: باب تخفيف الصلاة والخطبة، ولفظه: «أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ. وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

(٢) أخرجه الترمذي في «العلم»: باب ما جاء في الأخذ بالسنة، وابن ماجه في «كتاب النبي ﷺ»: باب اتباع سنة الخلفاء. قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) قال ابن حجر في «تلخيص الحبير»: رواه عبد بن حميد من طريق حمزة النصيبي، وهو ضعيف جداً، ورواه الدارقطني من طريق حميد بن زيد، وهو لا يعرف، وأخرجه البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العمّي، وهو كذاب، ورواه القضاعي من طريق جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، وهو كذاب». وقال أبو بكر البزار: «هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ» «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (١٠/١٥٩).

نبيه ﷺ، أو عليه عمل الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ فهو دين الله تعالى الذي يدان به، وما خالفه فهو بدعة وضلالة. وأنشد بعضهم.

وخير أمور الدين ما كان سنّة ... وشر الأمور محدثات البدايع

اللّهمّ احفظنا من الخطإ والزلل في الاعتقاد والقول والعمل. اللّهمّ نور بالهداية أبصارنا وبصائرنا، وزيّن بالعلم ظواهرنا وبواطننا، وطهر بالتقوى قلوبنا وجوارحنا، برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلّ الله على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم. وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد[1].

---

(١) في ٢: (وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً دائماً إلى يوم الدين. والحمد لله ربّ العالمين).

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	رقم الصفحة

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

- **البغدادي، عبد القاهر.**

* الفرق بين الفرق، اعتناء إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **التنبكتي، أحمد بابا.**

* كفاية المحتاج، مخطوط دار الكتب الوطنية، تونس، رقم ٩٣٠٠.

* نيل الابتهاج (بهامش الديباج)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

- **ابن الخوجة، محمد.**

* تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٥م، بيروت - لبنان.

- **الدباغ الأنصاري، عبد الرحمن.**

* معالم الإيمان، في معرفة أهل القيروان، مع تعليقات أبي القاسم بن ناجي، المكتبة العتيقة بتونس.

- **الذهبي، شمس الدين محمد.**

* تذكرة الحفاظ، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٣هـ.

- **السخاوي، لشمس الدين.**

* الضوء اللامع، مكتبة القدسي، مصر.

- **الزركشي، محمد بن إبراهيم.**

* تاريخ الدولتين، تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، ط١، ١٩٩٨م. (ص٩٢ ـ ٩٣، ١٠٩).

- **الزركلي، خير الدين.**

* الأعلام، قاموس تراجم، ط٣ مصر.

- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله.

* كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك. تحقيق: عبد المجيد التركي. دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان.

* الرسالة الفقهية، مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة، تحقيق: الهادي حمّو ومحمد أبو الأجفان. دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦/١٩٨٦م بيروت، لبنان.

- الشرنوبي الأزهري، عبد المجيد.

* تقريب المعاني على متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني. المكتبة الثقافية، بيروت ـ لبنان.

- الضرير، أبو الحجاج يوسف.

* التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، مخطوط، المكتبة الوطنية، تونس، رقم ٨٣٥٧.

- ابن أبي الضياف، أحمد.

* إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨.

- ابن فرحون، إبراهيم.

* الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

- ابن القاضي المكناسي. أحمد.

* لقط الفرائد (ضمن ألف سنة من الوفيات) تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين.

* تفسير القرآن العظيم، جمعية إحياء التراث الإسلامي، ط١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

- كحالة، عمر رضا.

* معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٧م.

- لجنة من العلماء.

* المعجم الوسيط، دار الأمواج للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- محفوظ، محمد.

* تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط١ ١٩٨٢م.

- **مخلوف، محمد.**

* شجرة النور. دار الفكر.

- **ابن موسى السبتي، القاضي عياض.**

* ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك، نشر وزارة الأوقاف المغربية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- **مؤلف مجهول.**

* طبقات المالكية. ميكروفيلم مخطوط، دار الكتب الوطنية بتونس.

- **الوزير السراج، محمد.**

* الحلل السندسية. تحقيق محمد الحبيب الهيلة. دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

- **الونشريسي، أحمد.**

* الوفيات. (ضمن موسوعة أعلام المغرب). تحقق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧ ـ ١٩٩٦م.

فهرس الموضوعات